تأمـــلات فى السـيرة النبـوية

الدكتور
محمود محمد عماره
أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

الطبعة الثالثة

بها زيادات مهمة

١٤١٩ هـ/١٩٩٨م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع

المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر

تليفون: ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

«قرآن كريم»

«إنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأخلاقِ»

«حديث شريف»

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الدكتور محمد الطيِّب النجار

المشرف العام على مركز السيرة والسنة

رسالات الأنبياء إلى الناس تالدة خالدة تمتد جذورها إلى الإنسان الأول وهو آدم أبو البشر وتنتهى فروعها بانتهاء هذا الجنس البشرى وقيام الناس لرب العالمين.

وإذا كان محمد بن عبد الله ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء فإن رسالته لا تزال متصلة إلى يوم الناس هذا يحملها خلفاؤه والعلماء من أمته على توالى الأجيال والقرون.

ولا ريب أن سيرة هذا النبى العظيم ﷺ إنما هى الأساس الكامل لدعوته العظيمة التى أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم بالهدى والنور ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل ثم سُجلت بعد ذلك على مختلف العصور فى كتب يضيق بها الحصر والتعداد وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن هو خواطر كريمة فى بعض الجوانب من السيرة النبوية المباركة وتأملات دقيقة فى طائفة من الأحداث التى مرت بالرسول ﷺ أو مر هو بها. ومحاولة جادة لاستخلاص العبر والعظات من هذه الأحداث الخالدة المجيدة..

ولقد كان الرسول ﷺ فى حياته كالشجرة الطيبة التى ثبتت أصولها وانبسطت ظلالها وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، بل كالمشكاة المنيرة يتألق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى بها الله من يشاء من عباده، فلما قضى الله على رسوله ﷺ أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر فى

باطن الأرض رجع الناس بسيرته نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشاداً مادامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله.

وهذه الخواطر الكريمة والتأملات الدقيقة التى سجلها العالم الجليل الدكتور محمود محمد عمارة الأستاذ بكلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر، هذه الخواطر والتأملات تتركز حول العبر المستفادة مع أحداث السيرة النبوية وتهدف إلى تصوير تلك الأحداث بأسلوب رقيق وبيان واضح يكشف النقاب عما وراءها من أسرار تؤنس السارين فى بيداء الحياة وتضع أقدامهم على الطريق السوى وتخرجهم من الظلمات إلى النور، وسوف يجد القارئ فى هذه الخواطر إجابة شافية لما يجيش فى نفسه من تساؤلات، وسوف يجد كذلك ـ من الطمأنينة القلبية ما يدفعه إلى القدوة الصالحة والتأسى بالأدب المحمدى والسلوك الإسلامى.

وهاكم بعض أمثلة من هذه الخواطر والتأملات..

فحينما يتحدث عن رعى الرسول ﷺ للغنم يقول: «إن رعى الغنم كسب شريف وتربية نفسية وترويض على العطف على الضعيف ولقد أتاح رعى الغنم لمحمد ﷺ فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعقلية وكان ذلك تعويداً على الفضائل التى تعينه على حسن العبادة ومنها الصبر والأناة والرأفة ورعاية الضعيف، ومعنى ذلك أهمية رعى الغنم فى تسليح الإنسان بقيم لابد منها فى سياسة الأمم».

وحينما يتحدث عن خلوة محمد ﷺ بغار حراء يقول: كانت خلوته ﷺ فى غار حراء طرفاً من تدبير الله له وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة.. وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى وتغيير وجهة الأرض وتعديل خط التاريخ، دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة كى ينطلق فى هذه العزلة مع روح الوجود ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون.. وعندما جاء الوحى وهو فى غار حراء ولد الإنسان فى هذه اللحظة وثبتت صلاحيته ليكون

رسولاً نبياً بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الإنسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للمَلَك دون الإنسان.

وحينما يتحدث عن الهجرة النبوية نراه يقول: «إن غريزة حب الوطن من الغرائز الناشبة فى كيان الإنسان وإذا كان حب البقاء فطرة فى طبع الإنسان فإن حب الوطن أعمق جذوراً وأوسع مدى. وكما قال القائل:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وإذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة فإن وطن الروح أعز وأغلى وإذا اصطرعت فى النفوس محبة المكان ومسؤولية الإيمان فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال ولن يتردد أبدا فى هجرة وطنه انتصاراً لمبادئه وحفاظاً على دينه وإيمانه».

وهكذا كانت الهجرة امتحاناً عسيراً لأقدار الرجال، وترجمة عملية يثبت فيها المسلم أنه نجح فى الاختبار العملى بعد نجاحه فى الاختبار النظرى لأن حب الوطن فطرة في نفوس البشر. والذين ينتصرون على هذه الفطرة إيثاراً لوطن الروح يبقى ويزدهر. أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى.

وقد أثبت المهاجرون الأولون أن الإيمان الناضج يحول البشر إلى خلائق تباهي الملائكة سناء ونضارة، ولم تكن هجرة أحدهم كانتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء بعيد، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، ولكنها إكراه رجل آمن فى سربه ممتد الجذور فى مكانه على إهدار مصالحه والتضحية بأمواله والسير إلى مستقبل مبهم لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل ومشكلات وهموم وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: «مغامر طياش فكيف وهو ينطلق فى أرض الله الواسعة يحمل أهله وولده وهو بذلك رضى الضمير مطمئن القلب بالإيمان»؟

وهكذا يمضى العالم الداعية فى خواطره وتأملاته مشرق الأسلوب دقيق التصوير أميناً فى النقل فهو إذ ينقل أحياناً بعض الأفكار التى سبقه إليها بعض الباحثين يرد كل كلمة إلى صاحبها مشيراً إلى ذلك فى ذيول الصفحات.

وبعد فسوف تجد أيها القارئ الكريم فى ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله ما يشفى صدرك ويسمو بروحك ويهيب بك إلى أن تتمثل أمام عينيك وفى نفسك قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [سورة الأحزاب، ٢١].

هذا. ومن الله العون وبه التوفيق.

مدخل

فى طبعة هذا الكتاب الثانية. . أضافت دار النشر ـ خارج مصر ـ بحثا حول القرآن الكريم لا صلة له بالموضوع. . وقد كنت أرسلته إلى هذه الدار ليكون فصلا فى كتاب هو أليق بهذا البحث القرآنى. .

ولما أرادت مكتبة الإيمان تصحيح الوضع. . كان لابد من حذف هذا البحث القرآنى الآنف الذكر من هنا. . ليأخذ مكانه. . فى موضعه. . بين فصول كتاب آخر ـ تحت الطبع ـ

وخلال هذه المدة كنت قد انتهيت من تأملاتى حول غزوة تبوك. وغيرها من مواطن الأسوة. فرأيت إثبات هذه التأملات هنا فى مكانها المناسب من هذا الكتاب.

وبالله التوفيق

د. محمود محمد عمارة

بين يدى السيرة النبوية

تمهيد ومقدمات

انتهت بحوث البصراء بطبيعة النفوس إلى تلخيص عناصر العظمة فى أمور أربعة:

١ ـ الأخلاق الرفيعة التى يتميز بها العظيم.

٢ ـ سمو المبادئ التى يدعو إليها.

٣ ـ قدرته على التأثير وتكميل غيره بعد كمال نفسه.

٤ ـ نجاحه فى صياغة جيل يتمثل مبادئه، ويتحمل الأمانة من بعده.

والمتأمل فى سيرة رسول الله ﷺ يخرج بيقين جازم أن رسولنا الكريم ﷺ ـ من خلال استقراء سيرته العطرة ـ قد استجمع هذه الخصائص جميعاً.. وعلى أوفى معانيها..

لقد التقى فيه من خصائص القيادة كل ما تفرق فى نفوس العظماء من سمات..

فإذا رحت تتأمل شخصيته الفذة بهرتك أضواؤها حتى لكأنك منها فى بستان مورق مثمر.. فيه من كل زوج بهيج.

وإذا اشتهر زعيم أو قائد بمقدرة فائقة من ناحية فإنك تراه فى ناحية أخرى ساقطاً فى القاع..

وهذا نابليون.. الذى ذاعت بطولته.. ونسجت حولها الأساطير (لقد أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن يكونوا «قوادين» له. يوصلونه إلى الفتاة البولونية التى أحب.

وزاد على ذلك فاضطر أباها على أن يلزمها الإثم الذى أراده منها. وجعل

استقلال «بولونيا» رهناً بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة)[1].

من أجل ذلك.. كان من الظلم لمحمد ﷺ أن نقيسه بواحد من هؤلاء العظماء..

ولقد حاول كتاب مخلصون أن يرفعوا محمداً إلى السموات العلا فقالوا: هو عبقرى.. أو بطل الأبطال..

ولكن قصارى هذا الوصف كما أشار بعض الباحثين أنه واحد من أفراد قلائل.. وربما كان ذلك مندوحة إلى التشكيك فى تفرد رسالته بالهيمنة ما دام هناك مثله عباقرة.. وأبطال.. لهم مذاهب. ولهم مبادئ.... وهيهات:

إذا كان أثل الواد يجمع بيننا فغير خفى شيحه من خزامه

والحق أنه: سماء.. ما طاولتها سماء:

(فإن من العظماء من كان عظيم العقل. ولكنه فقير فى العاطفة، وفى البيان، ومن كان بليغ القول وثّاب الخيال، ولكنه عادى الفكر، ومن برع فى الإدارة أو القيادة ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق الفجار ومحمد ﷺ وهو وحده الذى جمع العظمة من أطرافها)[2].

ولا شك أن محمداً ﷺ ليس قصة تتلى فى يوم ميلاده كما يفعل الناس الآن... ولا التنويه به يكون فى الصلوات المخترعة التى قد تضم إلى ألفاظ الأذان... ولا يتجسد حبه العميق بتأليف مدائح، أو صياغة نعوت مستغربة يتلوها العاشقون، ويتأوهون. أو لا يتأوهون. فرباط المسلم برسوله الكريم أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة المكذوبة على الدين.

وما جنح المسلمون إلى هذه التعابير - فى الإبانة عن تعلقهم بنبيهم - إلا يوم أن تركوا اللباب الملىء وأعياهم حمله، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال.

ولما كانت هذه المظاهر والأشكال محدودة فى الإسلام فقد افتنوا فى اختلاق صور أخرى. ولا عليهم.. فهى لن تكلفهم جهداً ينكصون عنه.

(١، ٢) تعريف عام بدين الإسلام للشيخ على الطنطاوى.

إن الجهد الذى يتطلب العزمات هو الاستمساك باللباب المهجور. والعودة إلى جوهر الدين ذاته:

فخير من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم أن ينهض المرء إلى تقويم نفسه، وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من سنن محمد ﷺ: فى معاشه ومعاده.. وحربه وسلمه، وعلمه وعمله. وعاداته وعباداته.

إن المسلم الذى لا يعيش الرسول ﷺ فى ضميره.. ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره، لا يغنى عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة وإنما هى: مصدر الأسوة الحسنة التى يقتفيها، ومنبع الشريعة العظيمة التى يدين بها.

فأى حيف فى عرض هذه السيرة، وأى خلط فى سرد أحداثها، إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه[1].

لقد نجانا الحق سبحانه مما وقع فيه أهل الأديان الذين صوروا أنبياءهم تماثيل.. وذلك بسننه ﷺ التى تغنينا عن التمثيل.. لأننا بها نتمثله ﷺ بكل أقواله وأعماله:

ا ـ ففى رحابها كل التفاصيل كأنك تشاهده.

ب ـ ثم إنها ميزان لسير الحياة والأحداث.

جـ وهى كذلك زاد من القوة يمنحنا القدرة على مواجهة الفساد بالإصلاح والضعف بالقوة.

وإذن.. فدراسة السنة دراسة الآملين العاملين حياة للأمة. واستمرار لها.

مراحل السيرة:

يقول ابن القيم:

العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار، فهو مسافر فيها إلى ربه...ومدة سفره هى عمره الذى كُتب له...فالعمر هو مدة سفر الإنسان فى هذه الدار إلى

---

(١) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى ص ٤، ٥.

ربه.

ثم جعلت الأيام والليالى مراحل سفره... فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة. حتى ينتهى السفر.

والحديث عن السيرة النبوية يمر بمراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: هى مرحلة الإعداد الإلهى تمهيداً لنزول الرسالة.

المرحلة الثانية: من البعثة إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: من الهجرة إلى أن انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

مراحل الإعداد:

الله أعلم حيث يجعل رسالته... يقول الحق سبحانه:

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[1].

جاء فى سبب نزول الآية:

أن أبا جهل قال: زاحمنا بنى مناف فى الشرف. حتى إذا صرنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يُوحى إليه. والله لا نرضى بربه إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه فنزلت **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾** وهو رد عليهم: بأن النبوة ليست بالنسب والمال. وإنما هى بفضائل نفسانية يخص الله سبحانه وتعالى بها من يشاء من عباده. فيجتبى لرسالته من علم أنه يصلح لها، وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه[2].

وقد جعلها سبحانه حيث علم.

فاختار لها الزمان... واختار لها المكان... كما اختار لها سبحانه وتعالى الأمة التى سوف تتحمل مسؤولياتها الكبار... ثم اصطفى من هذه الأمة رجلاً تجمع فيه كل ما تفردت به من صفاء الفطرة. وقوة الإرادة. ونقاء الخلق.

---

(١) سورة الأنعام، آية: ١٢٤.
(٢) البيضاوى.

الزمان المناسب:

أما مناسبة الزمان: فقد كان الأمر على ما يقول الحق سبحانه.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

لقد طم الفساد - حينئذٍ وعمَّ - حتى صار الخلق عن الحق في فكر ذاهل. وشغل شاغل.

لقد انحلت عرى الشخصية الإنسانية. وماتت عناصر القوة فيها. بل لم يعد الإنسان حينئذ مستعداً ليعيش حياته حتى فى أدنى درجات السلم الاجتماعى.

كان الحاكم - فى الأمم الأجنبية - إذا احتجم. أو فُصد له. أو تناول دواء.. كان ينادى فى الناس:

ألاَّ يمارس إنسان من رجال البلاط.. أو سكان العاصمة عملاً. ويكفون عن كل صناعة أو ممارسة نشاط.. وإذا عطس[2] فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له[3].

فانظر كيف يتوقف دولاب العمل من أجل وعكة تلم برجل يحاول أن يجعل من ذاته محوراً يدور فى فلكه الكون!

وإذن فقد كانت السلبية هى القاسم المشترك فى هذه الأمم الأجنبية:

(اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان: لا يهيجهم ظلم.. ولا يستهويهم حق، ولا تملكهم فكرة.. أو دعوة تستحوذ عليهم استحوذاً يتناسون فيه أنفسهم.. ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم)[4].

البيئة المناسبة:

فى هذا الوقت بالذات يهيئ الله تعالى الأمة العربية لتتحمل مسؤولية

---

(١) سورة الروم، آية: ٤١.

(٢) عطس من باب ضرب وفى رواية من باب قتل. ومعطس وزان مجلس: الأنف.

(٣) عن السيرة النبوية للندوى: ٤٨، ٤٩.

(٤) المرجع السابق: ص ٤٧.

الإنقاذ. . إنقاذ العالم بما حباها من خصائص صارت بها أسلحة القدر التى قوض بها بنيان الظلم. . وأقام على سواعدها صرح العدل والنظام.

وبهذا كانت الجزيرة العربية خير مكان. . وكان العرب هم الصفوة الصالحين لعمارة الدنيا. وإصلاح ما فسد منها.

الموقع الجغرافى:

لقد احتلت الجزيرة العربية على سطح الكرة الأرضية موقعاً جغرافياً متميزاً. يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعم العالم. وتخاطب الأمم.

ومن هذا الموقع الفريد تصبح مركز الدائرة على مستوى العالم كله. ومن ثَمَّ يشع نورها فى كل زواياه ومساربه. . يعينها على ذلك ما يتمتع به ذلك الموقع الوسط من بُعد عن التأثر بأى من الحضارات أو الديانات المحيطة بها، فكان ذلك فضلاً من الحق سبحانه وتعالى؛ لتمهيد جو الحياة. . وصهر العوامل المقومة لإبراز الحدث الجلل الذى يغير وجه التاريخ تغييراً أصيلاً شاملاً، وهذه مرحلة الاصطفاء لقنوات التجدد الإنسانى من أعالى الذرى إلى وادى الوجود الواقعى.

وهى أيضاً مرحلة التربية والحضانة لمن سيحمل لواء الرسال الخاتمة الخالدة. التى جاءت لتصحح أغاليط الحياة فى نظامها الاجتماعى، ولتقيمه على دعائم التوحيد الخالص لله الخالق: وتجعل من هذا التوحيد ركيزة للقيم الخلقية. والفضائل الإنسانية[1].

خصائص الأمة العربية حاملة الرسالة:

لخص الشيخ العلامة أبو الحسن الندوى خصائص العرب فيما يلى[2]:

١ ـ (اختار الله العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولاً. . ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم.

لأن ألواح قلوبهم كانت صافية. . لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها. . شأن الروم، والفرس، وأهل الهند الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية، ومدنياتهم الزاهية، وبفلسفاتهم الواسعة. . . فكانت

(١) الشيخ محمد الصادق عرجون. محمد رسول الله ﷺ جـ١/٢١.
(٢) راجع السيرة النبوية الندوى: ص ٤٤ وما بعدها.

عندهم عقد نفسية وفكرية، لم يكن من السهل حلها.

أما العرب: فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة، خطتها يد الجهل والبداوة.. ومن السهل الميسور محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها كانت الأمم المتمدنة أصحاب جهل مركب.. بينما كان العرب أصحاب جهل بسيط.

٢ ـ كانوا أصحاب فطر صافية. وإرادة قوية لا تعرف الالتواء. إذ انكشف لهم الحق اعتنقوه وإلا حاربوه.

(والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك)[١].

٣ ـ من خصائصهم: الصرامة والصراحة لا يخدعون أنفسهم ولا غيرهم. اعتادوا القول السديد. والعزم الأكيد.

٤ ـ كانوا بمعزل عن الترف وما يترتب عليه من فساد.

٥ ـ كانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة.

٦ ـ أمة حرة لم تخضع لأجنبى أبداً. نشأت وهى على هيامها الحرية. والمساواة وحب الطبيعة.

من أجل ذلك كان العرب على موعد مع القدر الذى أعدهم لقيادة الإنسانية.

لقد دخل العرب بهذه الخصائص فى الإسلام فصقلها وأطلقها فى الاتجاه الصحيح تنشئ حضارة جديدة.

وقد كان (أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق. وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هو: عزة النفس، والمضى فى العزائم. إذ لا يمكن قمع الشر والفساد. وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة. وبهذا العزم الصحيح)[٢].

وبالله التوفيق

محمود محمد عمارة

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير ـ باب الحديبية.

(٢) الرحيق المختوم: صفى الرحمن المباركفورى، ص: ٥٤.

محمد ﷺ

نسبه

روى الترمذى:

أنه ﷺ قام على المنبر فقال: «من أنا؟»

فقالوا أنت رسول الله عليك السلام.

فقال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب... إن الله خلق الخلق. لم جمعهم فرقتين.. فجعلنى فى خيرهم فرقة. ثم جعلهم قبائل فجعلنى فى خيرهم قبيلة.ثم جعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً**»(١).

إنه خيار من خيار من خيار.

قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان تلك الأسئلة عن صفاته عليه الصلاة والسلام.

قال: كيف نسبه فيكم؟

قال: هو فينا ذو نسب.

قال: كذلك الرسل تبعث فى أنساب قومها. يعنى فى أكرمها أحساباً. وأكثرها قبيلة. صلوات الله عليهم أجمعين.

فهو سيد ولد آدم وفخرهم فى الدنيا والآخرة. (أبو القاسم. وأبو إبراهيم. محمد. وأحمد. والماحى الذى يمحى به الكفر. والعاقب الذى ما بعده نبى. وخاتم النبيين. والفاتح. وطه. ويس. وعبد الله)(٢).

---

(١) الترمذى: ٩/ ٢٣٦ كتاب المناقب.

(٢) البداية والنهاية: ٢/ ٢٣٩. والبخارى، جـ١، ص٥.

خصائص البيت النبوى:

ولد ﷺ فى بيت استجمع خلال الخير والبر. ومع أن والده «عبد الله» توفى دون الثلاثين. إلا أنه خلف من ورائه ذكرى طيبة بعد هذا العمر القصير.

وقد نوهت بأخلاقه الطيبة زوجه «آمنة» الأبية الوفية حين رثته لما بلغها نبأ وفاته:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم	وجاور لحداً خارجاً فى الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها	وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره	تعاوره أصحابه فى التزاحم
فإن تك غالته المنايا وريبها	فقد كان معطاء كثير التراحم(١)

ووفاء لذكرى زوجها الحبيب ذهبت لزيارته. قاطعة مع يتيمها وحاضنته خمسمائة ميل!

وهكذا تتحدد ملامح البيت النبوى.. وتتضح الأصول الكريمة فيما كان يتمتع به أبوه من. كرم.. وتراحم.. وما اختصت به أمه من وفاء.. وإذا كان عبد الله قد خلّف جمالا خمسة وقطيع غنم وجارية حبشية اسمها «بركة» أم أيمن فقد أسعد الدنيا بمولود صار من بعد نور الحياة وروحها وثروتها الغالية التى تباهى بها.

نشأته

كانت عادة سكان الحضر أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية، وقد شاءت حكمته تعالى أن يسترضع ﷺ فى «بنى سعد بن بكر».

وكانت لها شهرة فى المراضع. وفى الفصاحة.

إلى جانب ما يحققه الفضاء المتراحب من:

أ ـ اكتساب ما فى أخلاق البادية من سلامة واعتدال.

---

(١) طبقات ابن سعد ٦/١ ط الشعب.

ب ـ البعد عن أمراض الحواضر.

جـ ـ التمتع بالهواء الطلق.

وبذلك:

١ ـ يقوى الجسم.

٢ ـ تشتد الأعصاب.

٣ ـ تصح الألسنة.

ولهذا ـ كما يقول الشيخ محمد الغزالى تنمو الشخصية. وتتزود بالأخلاق الطيبة رويداً.

وقد صاحبته العناية الإلهية منذ لحظة ميلاده... هذا الميلاد الذى كان بشارة تومئ إلى أن بعثاً جديداً قد طلع فجره.

لقد ولدته أمه فى يسر وسهولة.. وضيئاً.. نظيفاً.. وضاح المحيا... حلو القسمات.. فكان ذلك إرهاصاً بما سوف تكون عليه الحياة فى ظله من جمال.

ثم اقترن هذا المولد منذ لحظته الأولى بمعنى الحرية التى جاء ليتوج بها رأس الإنسان المسير المستعبد... فكان فى ذلك بشارة بما سوف تبلغه الإنسانية على يديه من كمال.

يروى أن عمه أبا لهب.. لما بشرته مولاته ثوبية بولادة النبى ﷺ.. استخفه الفرح. فأعتقها.

حادثة شق الصدر:

جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم.

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد ﷺ وهو فى الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه فى الرضاعة خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأمه وأبيه: ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما

يسوطانه ـ أى يقلبانه ـ.

تقول السيدة حليمة: «خرجت أنا وأبوه فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: مالك يا بنى؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو؟

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد ﷺ أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمة آمنة فى مكة وقصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة: إن لابنى هذا لشأناً فلم أكن أحس أثناء حمله بشيء مما تجده الحوامل. وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام. ثم طلبت إليها أن تعود به إلى بادية بنى سعد مرة ثانية فعادت به حليمة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره.

وشَق صدره بصوره حسية رمز يبقى فى أذهان الناس دليلاً على أنه نبى هذه الأمة ولم يكن المقصود به تجريده كلية من دوافع البشر.. وإنما كان فراراً به من وساوس الشيطان حتى لا تعوقه عن الوصول إلى الكمال.

وليكون جهاده ـ كما قيل ـ من بعد فى الترقى إلى أعلى. بدل أن يبذل طاقته فى مقاومة التدنى.

وليستطيع وقد طهرت نفسه أن يطهره غيره... ويوضح هذا المعنى قوله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **«وإياى. إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير»**[1].

أى انقاد لى وأذعن فصار لا يهجس بشر.

بشر من البشر:

ومعنى ذلك أنه ظل بشراً من البشر. فيه ما فيهم من غرائز ودوافع. ولكن

---

(١) مسلم: ٨/ ١٣٩.

عناية الله تحرسه فلا تزل قدمه أبداً. . وإذا ما اقترب منه الشيطان فسوف يخنس راجعاً. . وهو حسير. على ما يقول سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[١].

وإذا كان شأن المتقين مع الشيطان أنه لا يأخذ منهم إلا كما تأخذ النسمة من الطود الأشم. . فكيف يكون الحال مع إمام المتقين ﷺ؟

إنه بشر. يهم كما يهم غيره. منبعثاً إلى التمتع بلذات الدنيا. . لكن الهداي الإلهية تقطع عليه الطريق ليظل فى مكانه الرفيع.

قال ﷺ: «**ما هممت بشيء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين: كل ذلك يحول الله بينى وبينه... ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة... قلت يوماً للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة: لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة. وأسمر كما يسمر الشباب. فقال: افعل.. فخرجت. حتى إذا كنت عند أول دار بمكة. سمعت عزفاً. فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس... فجلست أسمع.. فضرب الله على أذنى. فنمت. فما أيقظنى إلا حر الشمس... فعدت إلى صاحبى فسألنى. فأخبرته... ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك... ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة... ثم ما هممت بعده بسوء**»[٢].

إنه غلام كسائر الغلمان تحن نفسه إلى سماع ما يشتهون من الغناء. ورؤية ما يؤثرون من السمر.

لكن رحمة الله تعالى سبقته إلى هناك. . فكان سلطان النوم. . رسول هذه الرحمة. . لقد ضرب الله على أذنه فلم يسترسل فى السماع إلى أن أيقظته الشمس.

ونلاحظ من أخلاق زملاء المهنة تلك السماحة من زميله الذى ناب عنه فى الحراسة طول الليل. . ولم يتبرم.

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٢٠١.

(٢) رواه ابن الأثير والحاكم عن على بن أبى طالب وقال صحيح على شرط مسلم.

ثم لما استأذن منه ليلة أخرى.. أيضاً ما تبرم.. ولم يقترح أن تكون نوبته فى السماع تلك الليلة مثله من قبل.

ومع ما يسجله الموقف من تعاون وتجاوز بين الخلطاء الذين يستنزلون البركة بهذه السماحة.. إلا أن الموقف كان أكبر من ذلك:

كان إعداداً إلهياً لمحمد ﷺ وبصورة عملية قبل أن تتحول حياته إلى مراحل جهاد ومعاناة.. تشرق الفضائل فى نفسه وفى بواكير حياته كما يشرق ضوء الشمس فى الصباح.. ثم يكون بعد ذلك قرصاً وهاجاً مكتملاً يملأ الدنيا بالنور والخير.

محمد على الفطرة:

كان شيئاً طبيعياً أن تتحرك رغبة صبى إلى مثل ما يلهو به الصبيان.

أما بالنسبة للأصنام فلم تحدثه نفسه بالمثول أمامها.. بل كان يكره سماع الحلف باللات والعزى.

وذات ويوم.. وقع تحت تأثير ضاغط ليحضر عيداً من أعياد الأصنام... ولقد قاوم أهله جميعاً.

ولما وافقهم على حضور العيد.. كان حضوره درساً إلهيا كشف إلى أى مدى كان محمد ﷺ على الفطرة.

روى ابن سعد فى الطبقات عن ابن عباس:

حدثتنى أم أيمن قالت: كانت «بوانة» صنماً تحضره قريش تعظمه... تُنسك له النسائك[1] - أى تذبح له الذبائح... ويحلقون رؤوسهم عنده يوماً. إلى الليل وكان ذلك يوماً فى السنة. وكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه. وكان يكلم رسول الله ﷺ. أن يحضر ذلك العيد مع قومه. فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه. ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن: ما تريد

(١) نسك. من باب، قتل. والمنسك بفتح السين وكسرها: المكان أو الزمان الذى تذبح فيه النسيكة وهى الذبيحة. ومناسك الحج: عباداته.

يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جميعا.

قالت أم أيمن: فلم يزالوا به حتى ذهب. فغاب عنهم ما شاء الله. ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً. فقال له عماته: ما دهاك؟ قال: إنى أخشى أن يكون بى لمم - فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان. وفيك من خصال الخير ما فيك. فما الذى رأيت؟

قال: رأيت كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى وراءك يا محمد.. لا تمسه. قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

وتأمل كيف يواجه الصبى الصغير مختلف الضغوط كى يحضر مع قومه هذا الحفل العابث.

فعمه أبو طالب يلح عليه ليذهب معهم.... ثم يغضب عليه حين يرفض مشاركتهم.

وأيضاً: فعماته يهددنه بما يمكن أن يلحقه من أذى الآلهة التى لا يعظمها مثلهم.. ويحاول دائماً تجنبها.

ثم يُلَمحن له غاضبات بعدم اكثراثه لهم جميعاً. وما ينطوى عليه من إهانة لا تحتمل السكوت.

ويذعن الصبى الصغير.. مجاملةً.. وأمام الإلحاح الموصول.... وكان الحق تعالى يدبر له. فأراه ما أراه.. ولم يقدر أن يشاركهم فيما يفعلون من مجون... وخرج بعون الله أكبر إصراراً على موقفه الرافض لهذا العبث.

وانحسرت البيئة كلها.. بكل ضغوطها.. معلنة إفلاسها إزاء الإرادة العنيدة التى فرضت على البيئة احترامها.

ولقد كان الصبى هنا عوداً طرياً.. مال مع الريح مُكرَهاً.. وحقق أملهم مبدئياً بذهابه فى صحبتهم ولكن العود لم ينكسر.. وخرج من التجربة أشد تحرراً من ضغط المجتمع.. وأكبر استعلاء ونفوراً من تقاليده.

ولا بأس أحياناً من المرونة معايشة لمجتمع أكثر جمعاً وأقوى عدة.. بعدما

يعلن المحق مبدأه.. ويظهر مدى إصراره عليه. وإلا.. فإن الموقف المتحدى السافر.. منذ اللحظة الأولى.. ربما يؤلب عليه الجميع.. وتضيع فرص التفاهم.. بقدر ما تسفر المرونة فى النهاية عن انتصار الحق.. الذى بدأ جولته من الصفر.. متدرجاً بالحكمة.. إلى أن يجيئه نصر الله والفتح.

ونتساءل أخيراً:

ما هى الأسباب التى جاء بها نصر الله والفتح؟

١ ـ إنها كما قلنا مرونة ومجاملة للمجتمع ـ لا على حساب العقيدة طبعاً ـ بمعنى أنها خطوة إلى الوراء يخطوها الداعية.. حتى إذا قفز من بعد.. كانت القفزة محكمة.

٢ ـ ثم ألم تر إلى قول عماته له لما جاء مفزعا:

(وما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك)؟

أى أنه يواجه المجتمع لا بالكلام المعسول.. أو الشعار الصاخب.. ولا بالسلاح يفرق به الجماعة.. وإنما.. كان له ماضٍ شريف.. وهو رصيده الذى يؤيده فى موقفه ويفرض على الآخرين احترامه:

أى أن مواقفه المشرفة.. وأعماله الصالحة تشكل كل واحدة منها جندياً يقف إلى جانبه.. وهذا ما شهدت به عماته.. بل شهد به أعداؤه جميعاً.

إن للإصرار على الحق ثمنه المدفوع مقدماً: نفس متفتحة مقبلة على الحياة والأحياء.. على أن يكون النشاط الاجتماعى ترجمة هذا الوجدان الصافى... ولا بأس من مشاركة المجتمع فى بعض مظاهره.. كمرحلة أولية ينغمس بها الداعية فى مشكلات أمته.. ليتمكن من الرؤية الكاشفة لعيوب هذا المجتمع.. ثم معالجتها عملياً.. وعلى مرأى ومسمع منه..

إن الخطبة البليغة من فوق المنبر العالى.. لها أثرها ولا شك.. فإذا أضيفت إليها الحركة العملية البانية الهادية.. كان ذلك خيراً للدين وللمجتمع.

طفولة على مستوى الرجولة:

إذا حرم الطفل حظه من الحنان أفقده الحرمان القدرة على التعامل مع الناس بنجاح.. مدفوعاً بقسوة يجدها فى قلبه حين لم تسمع أذنه كلمة ندية. ولم تمسح رأسه يد حانية.

فإذا كان هذا الطفل يتيماً.. فإن الخافق المعذب فى صدره سيتحول سوط عذاب يصبه على مجتمع قسا عليه.. فلم يعنه على بره.

وحين يأخذ هذا الطفل نصيبه الأوفى من الرعاية.. فإن مواهبه تتفتح كأكمام الزهر.. لتنشر العطر فى كل اتجاه.

وإذا أتيح له أن يمارس حظة من اللعب البرىء.. المحروس بالقيم العليا.. فإنه يستوفى عناصر الرجولة التى نرشحه لها حين نخطو به إليها.. بعطفنا.. وتقديرنا لملكاته.

ولقد لقى رسول الله ﷺ من رعاية عمه أبى طالب.. ونال فى ظله من التقدير ما أوفى به على الغاية:

(لما توفى عبد المطلب ضم أبو طالب النبى ﷺ إليه... وحاطه أتم حياطة. ورق عليه. وأحبه حباً شديداً. لا يحبه ولده... وكان لا ينام إلا إلى جنبه. ويخرج فيخرج معه... وقد كان يخصه بالطعام.

وكان أبو طالب لا مال له.. إلا قليلاً.... وكان يقرب إلى أولاده تصبيحهم - فطورهم - أو البكرة.. فيجلسون وينتهبون الأكل - ويكف رسول الله ﷺ يده لا ينتهب معهم... فلما رأى أبو طالب ذلك، عزل له طعامه على حده.

وكان النبى ﷺ يصبح فى أكثر أيامه فيأتى زمزم فيشرب منها شربة. فربما عرض عليه الغداء فيقول: «لا أريد.. أنا شبعان».

وكان أبو طالب إذا أراد أن يغذيهم أو يعشيهم يقول: كما أنتم حتى يحضر ابنى... فيأتى رسول الله ﷺ فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم.

وإن كان لبنا، شرب رسول الله ﷺ أولهم.. ثم يتناول العيال القعب -

الإناء ـ يشربون منه. فيروون عن آخرهم من القعب الواحد ـ وإن كان أحدهم ليشرب قعباً وحده ـ فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

وكان أولاد أبى طالب يصبحون رمصاً ـ أى جمداً لوسخ فى أعينهم ـ غمصاً عمشاً ـ يسيل دمع عيونهم ـ شعثاً ـ تلبد شعرهم فهو وسخ لقلة تعهده بالدهن ـ

ويصبح محمد رسول الله ﷺ صقيلاً. دهيناً. كحيلاً. وكان أبو طالب له وساد يقعد عليها. فجاء النبى ﷺ يوماً فقعد عليها... فقال أبو طالب: (والذى يعبد إنَّ ابنى ليحس بنعيم)[1].

فأنت ترى اليتيم هنا يعيش بين رحماء.. بل ويؤثره الوالد على بنيه من صلبه إيثاراً ظهرت أماراته فى نومه: نومه إلى جانبه. صحبته له فى سفره... وإيثاره له بالطعام. وبالإكرام.

ومن شأن هذه الرعاية أن تفسح الطريق أمام مواهب اليتيم الذى آواه الله تعالى فى هذا البيت.. لتستوى على سوقها. ثم لتمد الحياة من بعد بأطيب الثمرات.

ولكن..! ولكن هذا التقدير لم يكن اعتباطاً.. فقد استحقه الصبى عن جدارة. بهذه الخصائص التى زاحم بها الرجال.

إنها مواهب اليتيم الذى آواه الله تعالى فى هذا البيت.. لتستوى على سوقها... إنه يستقبل حياته. مشرق الوجه.. باسم الثغر..

وبينما يستقبل رفاقه الصباح كسالى.. يقبل عليه هو راضياً.. متفائلاً.. نشطاً... بهذه الطهارة التى تحيى فيه بواعث العمل.

ثم... هو لا يسابق الصغار إلى الطعام.. ولا ينتهبه انتهاباً.. وهو بهذا الحس الاجتماعى النظيف يدرك أن له أخوة فى البيت.. فليس الطعام له وحده..

ثم إنَّه إنسان.. تمسكه إنسانيته أن يشارك الحيوان فى واحدة من خصائص الحيوان!

---

(١) إتحاف الورى جـ١/١٠١ وما بعدها.

وقد تنبأ له عمه بالسيادة والقيادة حين ناب عنه يوماً وجلس على وسادته الخاصة. إنه إذن صبى.. ولكنه سوى استحق بهذه الخاصية أن يأخذ سبيله القاصد إلى ذروة الكمال.

لكنه لا يأخذ هذا السبيل اعتباطاً.. وإنما هناك رعاية من عمه.. ومن أهله..

وما أكثر الأيتام بيننا اليوم.. والذين يحملون فى قلوبهم عواطف نبيلة.. وفى عقولهم أفكاراً ذكية.. لكنهم فقط فى حاجة إلى اليد الحانية.. والكلمة الهادية.. القادرة على استخراج ما فى أنفسهم من كنوز يمكن أن تكون للحق عوناً.. وللمجتمع رخاء.

ولو ترك اليتيم هكذا مدحوراً مخذولاً.. فسوف يمتد الإحساس بالغربة ليشمل مساحة القلب كلها..

ومع الأيام.. سوف يصفى حسابه مع مجتمع لم يدخله فى حسابه يوماً.. إنَّ الإحساس بالغربة يقتل مواهب الصغير المتفتح للحياة.. بل إنه لينحسر بقوى الرجال.. فيحبط مفعولها.. وكيف يتحمل الكيان الإنسانى ذلك الحرمان.. بينما الغافلون يتقاسمون النعيم.. على ما يقول أحدهم:

إنَّ عيباً على ديار المشارق أن أرحل عنها إلى ديار المغارب.

وغريب يعيش فيها غريباً بعد ما أتى قومه بالغرائب.

ويقاسى الظما حيال أناس قد تقاسموا بينهم مياه السحائب.

[الصبى يلعب.. ولا يلهو]:

وبهذه الشخصية المتفتحة النظيفة.. نزل الصبى محمد ﷺ ساحة اللعب مع رفاقه!

لكن لعبه.. كطعامه محكوم منذ نشأته الأولى بقيم الإيمان.

لقد مارس محمد ﷺ حياته الأولى كأى صبى مقبل على الحياة شاعر بما فيها من جمال معروض.. يستجيب له .. ويستمتع به.. فى حدود العقل

والاعتدال قال ﷺ . . حاكياً بعض ذكرياته:

«**وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار**».

ثم يقول ﷺ :

«**لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان. كلنا قد تعرى وأخذ إزاره. وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة. فأنى لأقبل معهم كذلك وأدبر. إذا لكمنى لاكم لا أراه لكمة وجيعة..**».

ثم قال:

«**شد عليك إزارك.. فأخذته فشددته على... ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى. وإزارى على. من بين أصحابى**».

فأنت ترى صبياً فتياً. تربطه مشاعر الانتماء برفاقه فيلعب كما يلعبون. . حتى إذا أوشك اللعب أن يدخل فى نطاق اللهو. جاءه النذير الذى لكمه لكمةً مؤلمة حتى يسبل أزاره.

أى أنه يمارس اللعب المباح مع أقرانه. . لكنه لا يسمح للأمر الواقع أن يفرض عليه لون الحياة الجارية.

إن سياسة الأمر الواقع لا تشكل حياته. ولكن ولاءه ابتداء للقيم. الصادقة. التى عليه أن يلتزم بها أولاً.

ولاحظ أن اللكمة كانت وجيعة. . لأن الخطأ الواقع أيضاً وجيع!. . فهو محمد الذى سوف يكون رسولاً. . وجدير بمثله أن ينشأ على الطهر والنقاء. . . ولا يخفى ما فى الموقف من درس مهم:

إنَّ صاحب اللكمة لم يأمره باعتزال الملعب!

وظل محمد ماضياً فى صحبة رفاقه، إلا أنه كان مستوراً. . ولو أنه اعتزل لما تحقق إلا فائدة جزئية ناشئة عن غيابه وعدم مشاركته إياهم فى أمر لا يليق. . . لكن بقاءه يلعب معهم مستوراً كان مثلاً حياً متحركاً يترك أثره المكرور بلا شك على رفاقه جميعاً.

وقد نرى اليوم ساحات اللعب المباح وقد خلت من شباب مخلص حسب أن تمام إسلامه بالهروب منها.

فبدا شاحب اللون. ضعيف الجسم. لا يصبر على عمل جاد.. بينما اللاعبون اللاهون قد استأثروا دونه بالعافية!

ولو أنهم نزلوا إلى الساحة فمارسوا الرياضة الحلال.. محتفظين لحظة اللعب بقيم الرجولة.. لأفادوا. وعادت الفائدة على أمتهم نتاجاً وفيراً. وخيراً كثيراً. وإذا كنا نناشد الشباب أن يعطوا أجسامهم حقها فى الترفيه.. فإننا نهيب بالدولة أن تمهد لهم السبيل.

بوادر النشاط العملى:

كان لمحمد الصبى فى صباه نشاط وتقلب فى البلاد. إلى جانب إسهامه فى قضايا مجتمعه.. وما ترتب على ذلك من إعداد ليحمل هموم البشرية من بعد.

سياحته فى البلاد:

لما بلغ سنه اثنتى عشرة سنة. تهيأ عمه أبو طالب للسفر إلى الشام.

وصب ـ أى مال ـ محمد له. فأخذ بزمام ناقته وقال.. «**يا عم: إلى من تكلنى؟ لا أب لى. ولا أم لى**».

فرق أبو طالب. وقرر ألا يفارقه... فبلغ به «تيماء» أو «بصرى» من أرض الشام.

وتقول كتب السيرة أنه مر فى الطريق بأكثر من راهب ـ ومنهم بحيرا ـ فبشروه جميعاً بأنه سيكون نبياً. ثم حذروه من اليهود الذين قد يمكرون به ليقتلوه.

وفى وفى رواية: (قال أبو طالب بعد هذه البشارة: يا ابن أخى: ألا تسمع ما يقولون؟! قال: «يا عم.. لا تنكر لله قدره»[1]!

ولا شك أنَّ ذكاء الصبى حينئذٍ محسوب.. هذا الذكاء الذى أدرك مغزى هذه

---

(١) من حديث ابن سعد عن طريق محمد بن عقيل.

البشارة.. وأنشأ عنده إحساساً غامضاً بمستقبل غير عادى.. وعلى غير ما ألف الناس من حوله. وإنك لتدرك كيف واجه الصبى منطق عمه المادى:

لقد استنكر عمه المحكوم بالواقع المادى أن يكون ذلك الصبى الصغير نبياً، ويجيئه الجواب منه ﷺ صادراً عن فطرة سليمة حساسة.. شاهدة بأن ذلك ممكن فى إطار قدرة الله تعالى التى لا يعجزها شىء. مسجلاً فى نفس الوقت غربة محمد الصبى فى قومه وإن كان يعيش معهم.. على أرضهم وتحت سمائهم.

محمد بين حرب الفجار وحلف الفضول:

وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره... هاجت حرب الفجار بين قريش وقيس عيلان ـ وقد سميت بذلك لكثرة ما انتهك فيها من المحارم إلى حد الفجور.

وقد شهد الرسول ﷺ بعض أيامهم... لما أخرجه أعمامه معهم.

وفى ذلك يقول ﷺ:

«كنت أنبل على أعمامى ـ أى ـ أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموا بها»[1].

أما حلف الفضول:

فقد كان من شأنه: أن تداعت قبائل من قريش... فاجتمعوا فى دار عبد الله ابن جدعان. لشرفه وسنه... وصنع لهم يومئذ طعاماً كثيراً. وكان رسول الله ﷺ يومئذ معهم... فاجتمعت بنو هاشم وأسد. وزهرة وتيم... وتعاقدوا وتحالفوا بينهم بالله: لا يظلم أحد بمكة: غريب ولا قريب. ولا حر ولا عبد. إلا كنا جميعاً مع المظلوم على الظالم. حتى نأخذ له حقه. ونرد إليه مظلمته ممن ظلمه. شريفاً أو وضيعاً.. منا أو من غيرنا.

وفى ذلك يقول الزبير:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا   ألا يقيم ببطن مكة ظالم

---

(1) سيرة ابن هشام.

أمر عليه تعاهدوا وتواثقـوا   فالجـار والمعتر منهم سالم

وفى بيان قيمة الحلف روت عائشة رضى الله عنها قالت:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لقد شهدت فى دار «عبد الله بن جدعان» حلف الفضول.. ما لو دعيت إليه اليوم لأجبت، وما أحب أن لى به حمر النعم»[1].

أجل لم تكن استجابته ﷺ واحدة. . فى الموقفين:

ففيما يتعلق بحرب الفجار:

فقد كانت ضد طبيعته الإنسانية المسالمة.

ولكن ما الحيلة وقد أخرجه أعمامه إخراجاً. ولم يكن فى الموقف الذى يتيح له الرفض.

وها هو ذا ﷺ يؤدى دوره. . . . فيحمل النبل إلى أعمامه مرة. . ثم يباشر الرمى بنفسه أخرى.

لكنه فى الحالين لم يكن مطمئنا إلى ما يفعل.

ولقد سجل بهذا التعليق الشريف ندمه. . وكم كان يود أنْ لم يكن له فى هذه الحرب وجود.

أما بالنسبة لحلف الفضول:

فقد كان سعيداً أن شارك فيه. . . . ذلك بأن أهداف الحلف الإصلاحية تنسجم مع نفسه المطبوعة على الخير. . وتتفق مع منهجه فى إقرار العدل. وحقن الدماء. والوقوف إلى جانب المظلوم.

ومن ثم يذكر حلف الفضول بمشاعر الاعتزاز والتقدير. مفضلاً إياه على أغلى ما فى الحياة وهو: حمر النعم. . أعلاها قيمة. . وأغلاها ثمناً.

لقد كان ﷺ رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين. . بل كان رحمة للعالمين. ومن ثم. .

---

(١) شفاء المرام ٢/ ١٠٠

فقد كان عزيزاً عليه أن تراق دماء الإنسان حيثما كان.. فكان نبى الإسلام.. والسلام.. معبراً بهذه النزعة الإنسانية الرحبة عن أهليته ﷺ وحده لإنقاذ العالم المحروب.

والأمر على ما قيل بحق:

(إن بريق الفرح بهذا الحلف يظهر فى ثنايا الكلمات التى عبر بها رسول الله ﷺ عنه:

فإن الحمية ضد أى ظالم مهما عز... ومع أى مظلوم مهما هان هى روح الإسلام الآمر بالمعروف.. الناهى عن المنكر.. والواقف عند حدود الله.

ووظيفة الإسلام أن يحارب البغى فى سياسات الأمم. وفى صلات الأفراد على سواء)[1].

وليت العرب اليوم يفيقون على صوت الذكرى يناديهم.. ويبين لهم ما فى ضمير أمتهم من نجدة.. تنصر المظلوم.. وشجاعة تأخذ على يد الظالم.. وحفاظا على الدماء العربية أن تسيل وبيد عربية.. لا غريبة.

من رعى الغنم إلى قيادة الأمم:

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبى إلا وقد رعى الغنم**».

قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا**».

قال السهيلى بعد ذكر صحاح الأحاديث التى ثبت فيها أنه ﷺ رعى الغنم.

وإنما جعل الله هذا فى الأنبياء تقدمة لهم: ليكونوا رعاة الخلق. ولتكون رعايا لهم[2].

وقد ثبت فى الصحاح أنه كان يرعى الغنم فى مكة على قراريط يأخذها من أهلها.

---

(١) فقه السيرة للغزالى/ ٧٥.

(٢) ابن هشام ١/ ١٧٨ ط. الجمهورية.

وقد قيل فى معنى القراريط: أنها جمع قيراط. وهو جزء من الدرهم أو الدينار.

وعلى ذلك فمعنى الحديث: أن النبى ﷺ كان يرعى الغنم على الأجرة.

وقيل إنه اسم مكان بمكة المكرمة.

وعلى كل. فرعى الغنم كما قيل:

[كسب شريف. وتربية نفسية. وترويض على العطف على الضعفاء. واستنشاق للهواء النقى الصافى. وتقوية للجسم.. وفوق ذلك كله فهو: اتباع لسنة الأنبياء][(1)].

ولقد أتاح رعى الغنم للرسول ﷺ فرصة ذهبية اكتملت فيها ملكاته النفسية وقواه الجسدية والعضلية مع الغنم.. والصحراء.. والفضاء.

وكان ذلك تأكيداً لاستقلال ذاته.. وإصراره على أن يأكل من عمل يده.

وإذا كان عمه أبو طالب قد فعل أفضل ما يليق به حين تكفل بمعاشه.. فقد كان رد الفعل عند محمد ﷺ أن يفعل أيضاً أفضل ما يليق به وهو أن يعمل.. لينفع نفسه وغيره... وتلك سنة عملية من سننه نهيب بشباب اليوم أن يعوها لتأخذ مكانها فى طليعة السنن الشريفة.

فلما استقرت حياته فى الصحراء راعياً حقق له ذلك العمل.

١ - فى الصحراء هدوء ينسجم مع نفسه التى تعشق السلام.

٢ - وفيها الاستمتاع بجمال الطبيعة البكر والذى لم تفسده يد الإنسان.

٣ - ثم إنها فرصة يتأمل فيها الراعى ملكوت الله تعالى فى الليل إذا سجى والنهار إذا تجلى.

٤ - وقد أتاح رعى الغنم لرسول الله ﷺ خبرة زراعية:

روى أن بعض أصحابه مر عليه بثمر الأراك فقال لهم: «**عليكم بما اسود منه.**

---

(١) السيرة النبوية للندوى/ ١٢٣.

فإنى كنت أجتنيه إذ أنا راعى غنم».

وفى رواية: «**فإنه أطيبه**».

٥ ـ على أن فى رعى الغنم أخذاً للنفس بما لابد منه من فضائل تعين على حسن القيادة... ومنها: الصبر. والأناة. والرأفة. ورعاية الضعيف.

ويعنى ذلك أهمية سياسة الغنم فى تسليح الإنسان بقيم لابد منها فى سياسة الأمم.

ولا بأس أن يأخذ أجراً على الرعى.. فهو عمل شريف.. وما أكثر المسلمين الذين يستنكفون اليوم أن يباشروا عملاً من هذا النوع بحجة أن ذلك يخدش كرامتهم... وفى نفس الوقت يباشرون من الأعمال ما يناقض سنة رسول الله ﷺ. استرضاء لبيئة جذبتهم فاستعبدتهم.

التاجر الأمين:

فى السنة الخامسة والعشرين من مولد محمد ﷺ.

(قال أبو طالب لابن أخيه النبى ﷺ: أنا رجل لا مال لى.. وقد اشتد الزمان علينا.. وهذه عير قومك قد حضر ـ أى حان ـ خروجها إلى الشام.

وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عير لها.. فلو جئتها فعرضت نفسك لأسرعت إليك.

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له. فأرسلت إليه فى ذلك وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك... فقال أبو طالب: هذا رزق قد ساقه الله إليك)[1].

وفى رواية أن خديجة هى التى عرضت عليه لما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق الحديث. وعظم الأمانة. وكرم الأخلاق.

لقد عاش محمد الصبى فى كنف عمه أبى طالب عزيزاً موفور الكرامة..

---

(١) اتحاف الورى ج١/ ١٣١ وما بعدها.

على النحو الذى مر بك.

لكن الزمان قد تغير واشتدت وطأته على رب الأسرة. فضاقت يده عن الإنفاق.

فكان من الوفاء لمحمد تدبير عمل شريف يفى بحاجاته.. بقدر ما يخفف العبء الضاغط على كاهل عمه.

فكان أن صارح أبو طالب محمداً ﷺ باغتباطه بما وافقت عليه السيدة خديجة بنت خويلد حينما علمت برغبة محمد ﷺ فى الإشراف على تجارتها مع العير المتأهبة للسفر إلى الشام.

وهكذا يواجهه العم بشدة الموقف.. ويعلمه فى نفس الوقت كيف يتحمل المسؤولية فى بواكير حياته. وإنَّ عرض الفتى نفسه على آخر طالباً عملاً أمر طبيعى لا يشين الرجل.. وإنما الذى يشينه حقا: أن يرى الزمن يضغط بشدة على والده.. ولا يحرك ساكناً.. راضياً أن يعيش عالة على حساب المتاعب والمصاعب التى يلاقيها والده!!

ويلاحظ أن أبا طالب لم يتركه حائراً يصارع الظروف وحده، وإنما وقف معه. فدله على الطريق. واقترح عليه نوع المهنة[1]. وجهة العمل.

ولم تهبط عليه فرصة العمل جزافاً.. ولكن سمعته الطيبة هى التى رشحته للوظيفة عن جدارة واستحقاق.

فلم تكد خديجة تسمع بالفكرة حتى أسرعت هى إليه وكان رجاؤها حاراً أن يقبل العمل لها.. بدليل ما عرضته عليه من رزق فاق رزق غيره ممن عمل لها من قبل.

ولقد أدى التاجر الأمين محمد دوره بصدق وأمانة فنجح نجاحاً منقطع النظير. وذلك بأنه:

١ - باع تجارته التى خرج بها.

---

(١) المهنة بالفتح. والكسر فى لغة.

٢ ـ وربح ضعف ما كان يربح غيره.

٣ ـ ثم اشترى ما رأى شراءه لازماً.

٤ ـ فلما قدم لخديجة كشف الحساب.. إلى جانب ما أخبرها به غلامها ميسرة رفيقه فى الطريق.

وحينئذٍ برزت لها شخصية محمد ﷺ .. الصادق.. الأمين.. وفوق ذلك ما رأته وماً سمعت به من رعاية إلهية تحيط به كلما غدا أو راح.

وعندئذٍ اختمرت فى عقلها وقلبها فكرة الزواج من محمد ﷺ . لِمَا رجت فى ذلك منْ الخير.

ولقد كان تقرير ميسرة الذى قدمه إلى خديجة.. والتى رفعته بدورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل كان هذا التقرير فاتحة فصلٍ جديد من فصول حياته الشريفة يعتبر بحق مثلاً يُحتذى لمن أراد من شبابنا أن ينسج على منواله.

إن رسولنا الكريم ﷺ لم يرض لنفسه أن يكون عالة على غيره.. ولكنه دخل معركة العيش برأس ماله وهو: السمعة الطيبة.. والخبرة الصادقة.. ففتحت له الأبواب.. فتقدموا أيها الشباب.. فاعملوا.

فكما أن السماء لا تمطر فضة ولا تمطر ذهباً.. فهى كذلك لا تمطر سكناً ولا زوجة.

وضريبة النجاح.. أن تخوض غمرات الكفاح.

قصة زواجه من خديجة:

أرسلت خديجة صديقتها «نفيسة» دسيساً إلى النبى ﷺ فقالت يا محمد:

ما منعك أن تتزوج؟

قال: «**ما بيدى ما أتزوج به**».

قالت: فإن كفيت ذلك؟ ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة.. ألا تجيب؟

قال: «**فمن هي؟**» قالت: خديجة.

قال: «**وكيف لي بذلك؟**» قالت: عَلَيَّ.

قال: «**أفعل**».

فأخبرتها فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا. وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها[1].

كانت خديجة رضى الله عنها من الشرف فى ذروته... ويكفى أنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة... مما حمل الكثير على طلب يدها.. بيد أن القدر الأعلى ادخرها لصاحب الخُلق العظيم ﷺ..

وإذا كان اختيار المرء قطعة من عقله.. فقد أثبتت باختيارها محمداً ﷺ تفكيرها وبعد نظرها.. حين استقرت أفكارها على خير من قذفت به أرحام الأمهات.

والإنسان يبحث دائماً عن شكله.. ومثله... ﴿**قل كل يعمل على شاكلته**﴾

فما تناسب من النفوس اتصل. وما تخالف منها انفصل.

فسر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال... والشكل يستدعى شكله. والمثل إلى مثله ساكن. متجه ومتجاوب فللمجانسة عمل محسوس. وتأثير مشاهد. والتنافر لا يكون إلا فى الأضداد. والموافقة لا تكون إلا فى الأنداد[2].

فما الذى جذب خديجة رضى الله عنها إلى محمد ﷺ؟. لم يكن حسن الصورة فقط.. وإنما قالت هى:

(يابن عم: إنى قد رغبت فيك لقرابتك. وشرفك فى قومك. وأمانتك. وحسن خلقك. وصدق حديثك)[3].

---

(١) اتحاف الورى: جـ١/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) طوق الحمامة لابن حزم.

(٢) سيرة ابن هشام جـ١: ٢٤٠ ط. الجمهورية.

وإذن فلم تنبعث رغبة الزواج فى قلبها لنجاحه فى تجارتها. وإنما كانت للرغبة أصولها: فهو قريبها... وهو على خلق عظيم.

وأعظم ما يتحلى به هو: الأمانة.. وصدق الحديث.

ورغم فقره فقد ظلت نفسه فوق الثريا.. شرفاً ونبلاً.. وقد دلت البداية على النهاية.. فقد كانت خير زوجة.. لخير زوج.. حين جاء تقديرها للأمر وتكييفها للظروف واقعياً.. متئداً... فلما اقتنع العقل المتأنى.. منحه القلب أشواقه.

فمضى الحب يسعى على قدمين.. أو يطير بجناحين حتى بلغ سماء لا يُطار لها على جناح ولا يُسعى إليها على قدم.

ولقد ولدت فكرة الزواج فى عقل خديجة وقلبها.. لتعيش أبداً.. بل ولتتخطى الزمان والمكان.. ليكون الزوجان معاً فى الجنة خالدين فيها. على ما يقول سبحانه:

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[1].

اختيار المؤمنة شريك حياتها:

وضح لخديجة رضى الله عنها أن محمداً ﷺ طراز فريد بين الرجال. بما يتمتع به من شمائل عظام.

وتحركت فى قلبها رغبة صادقة أن يكون زوجها المرتقب. بل وعرضت هى نفسها عليه. وما تحركت هذه الرغبة التى لم تفصح عن اتجاهها إلا بعد الدراسة والبحث الطويل. وعلى الطبيعة بعد الاختبار فى مجال التجارة.. وهو ميدان حساس.. من حيث تعلق النفوس بالمال وصعوبة التفلت من إغرائه. ولا يثبت أمام بريقه إلا أولو العزم من الناس.

لم تكن هى الرغبة المتعجلة.. أو النظرة السريعة يغريها المنصب.. أو يأسرها جمال خداع.. ثم بعدها فليكن الطوفان.. وإنما هو الإدراك البصير بعواقب

---

(١) سورة غافر، آية: ٨.

الأمور. . فى أمر كالزواج ينبغى أن يؤسس على قواعد ثابتة غير قابلة للاهتزاز.

ولقد عرضت نفسها عليه. . . ولا بأس أن تعرض المرأة نفسها على الرجل الشريف.

وما أكثر الذين تقيدهم من تقاليد المجتمع قيود وأغلال. حين يرون الفتى الصالح. . منصرفين عنه إلى غيره من ذوى الجاه والمال والعشيرة.

وربما يمسك الخجل الممقوت ألسنتهم فلا يطلبون الفتى الصالح لابنتهم الصالحة. . لأن تقاليد المجتمع لا تسمح. . وتعجب من أناس مستسلمون لتقاليد البيئة إلى درجة الخنوع. . ثم يزعمون أنهم يحبون أبناءهم وبناتهم. . لكنهم حين يختارون لهم يتصرفون تصرف الأعداء.

وها هى ذى خديجة رضى الله عنها تضرب الأمثال للناس. . فتختار صاحب الدين والخلق وبنفسها. . وفى ذلك عبرة لمن أراد أن يتخذ إلى السعادة سبيلاً.

وها هو ذا عمه أبو طالب يشهد بذلك يوم إتمام زواجه ﷺ بخديجة. . ويقول: (. . ثم إنَّ ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً. وإن كان فى المال قلا. فإنَّ المال ظل زائل. وأمر حائل. وعارية مستردة. . . ثم قال: وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم. وخطر جليل.

لقد كان محمد ﷺ قليل المال. . كغيره من الأنبياء. . وبذلك تمرس على القناعة. والرضا باليسير من حطام الدنيا.

ثم زوده ذلك بمشاعر الرقة على الفقير والرحمة بالعاجزين.

ثم رعى الغنم. . فكان أن رسخت ملكة الصبر واليقظة والحذر فى قلبه. . وعايش التجار ورأى ما تحفل به الأسواق من الميل إلى الحلال والحرام. . وما تضج به من أيمان صادقة وكاذبة. . فكان أن اتسع أفقه. . وانكشف له الغطاء عن ألوان من الناس ما كان ليحيط بأخلاقها علماً لولا هذه المعايشة. . ولقد رأت فيه خديجة نموذج الرجل الكامل. . فاختارته لنفسها. . وكان هذا الاختيار آية من آيات الله تعالى. وفضلاً منه ورحمة.

كيف تم الزواج:

إذا دل اختيار خديجة على رجاحة عقلها.. فماذا عنده ﷺ؟

[لقد قبل الرسول ﷺ الزواج بخديجة رضى الله عنها قبولاً شاهداً بحكمته ﷺ. وحسه البصير بمعادن البشر.

ثم هو فى نفس الوقت مؤكد بطلان ما ذهب إليه المغرضون من أعداء الإسلام الذين رموه ﷺ بالرغبة الملحة فى الزواج من خديجة بالذات.... فقد كان عليه الصلاة والسلام فى سن الخامسة والعشرين.. وكانت هى فى سن الأربعين.. إلى جانب سابق زواجها من غيره.

ولقد ظل الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً. وقد ناهز النبى عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر. دون أن يفكر خلالها بالزواج من امرأة أو فتاة أخرى. وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن التى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء. والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر. دون أن يفكر بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث][1].

ويبقى بعد ذلك فى قصة الزواج دروس وعبر:

فخديجة الشريفة الحرة ترسل أولاً صديقتها الحميمة «نفيسة» لتستكشف الأمر.. وتتلمس مدى رغبة الرسول ﷺ فى الزواج. لتنوب عنها فى تحمل ما فى المواجهة من حرج.. ولتحميها من قسوة الموقف لو لم يكن هناك قبول.. ويكشف الحوار السريع عن حكمة الصديقة الوفية.. التى تلمح إلى أنك شاب.. قد اكتملت رجولتك.. فما الذى يمنعك من الزواج؟

فلما أخبرها ﷺ بصراحة الأبرياء أنه لا يملك مؤنة الزواج.. صارحته أيضاً بأنه لا مشكلة إذن... فلن يشكل المهر عقبة.. بالإضافة إلى الجمال.. والعفة..

---

(١) البوطى، فقه السيرة: ص ٥٨.

والشرف.. كل أولئك بين يديك.. ولو أردت.. فلما ذكرت خديجة رضى الله عنها.. أحس بالرغبة الأصلية نحوها.. ولكن كيف السبيل؟

وتحملت «نفيسة» تبعة إتمام الزواج... وبدأ الاستعداد لتنفيذ الفكرة.

أرسلت خديجة إلى عمها عمرو بن أسد.. ليزوجها.. وأرسل هو أيضاً إلى أعمامه ليأخذ الزواج سمته اللائق به.. مشمولاً بأعراف العرب التى لا تجعل من الزواج نزوة طارئة تبرق فى قلبين.. ثم تخبو... ولكنه العهد الوثيق.. يتم تحت إشراف الآباء.. إعلاناً.. وتقديراً.. وابتهاجاً.

وهذا هو الزواج.. كما ينبغى أن يكون صادراً عن التفكير.. لا عن النظرة العجلى والنزوة الطارئة...

رسول الوحدة:

وعند بناء الكعبة اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود:

ادعت كل قبيلة أنها أحق بوضعه...ثم اتفقوا على تحكيم أول قادم يدخل من باب بنى شيبة.

وكان من تدبير الله تعالى أن يكون الداخل الأول محمداً ﷺ... وقالوا: هذا الأمين. قد رضينا بما يقضى بيننا... فوضع رداءه. وبسطه على الأرض... ثم وضع الحجر عليه. ثم قال: «ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل» ثم احتمل الأربعة الحجر حتى وصلوا إلى مكانه فى الكعبة وأخذه الرسول ووضعه فى مكانه... وهكذا أذهب الله به الخلاف. وحقق الائتلاف.

من تجارة الدنيا إلى تجارة الآخرة:

كان اشتغاله ـ ﷺ بالتجارة ـ فرصة أتاحت له أن يتقلب فى البلاد. وما يثمره ذلك من خبرات وتجارب عن طريق لقاءاته ومعاملاته مع أجناس مختلفة من البشر.. وفى مزدحم البيع والشراء وما يظهره من خلائق الرجال وعاداتهم.

إلى جانب ما توفره التجارة مع ربح يصون حياته.

ثم كانت التجارة مسرحاً أكد للناس مدى أمانته وصدقه فى مجال قل فيه

الأمناء والصادقون.

وقد ظهر ذلك لخديجة رضى الله عنها مما حملها على إظهار رغبتها فى الاقتران به. . . فكان لها من تدبير الله تعالى هذا الدور الخطير. خاصة فى اللحظات الأولى. التى نزل فيها الوحى الأعلى. فكانت نعم النصير. الذى ثبت أقدامه ﷺ . ثم واصل الدعوة إلى ربه فى صحبة زوجته الوفية.

وشاءت إرادة الله تعالى أن ينتقل من تجارة الدنيا إلى تجار الآخرة. والتى تنجى من عذاب أليم. وذلك بنزول الوحى عليه.

وقبل ذلك كان لنزول الوحى تمهيد تمثل فى عزلته ﷺ .

العزلة:

يقولون: (إذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك).

وهكذا: كانت حياة البيئة التى نشأ فيها ﷺ . . . لقد حجزهم الهوى فى سجن اللذات فلم يروا طلائع النور.

ولما كان ﷺ على النحو الذى عرفت:

سمو نفس. وصفاء قلب. فقد كان طبيعياً أن تتسع شق الخلاف بينه وبين قومه وأن يحس بالغربة بينهم. . فحبب الله إليه الخلاء ليخلو بنفسه. ناجياً بها من معترك الحياة الصاخبة إعداداً لها كى تتحمل دورها القريب فى صدق وأمانة:

يقول الخطابى البستى مشيراً إلى غربة المصلح فى وطنه:

وما غربة الإنسان من شقة النوى ... ولكنها والله من عدم الشكل
وإنى غريب بين بست وأهلها ... وإن كان فيها موطنى وبها أهلى

يقول ابن قيم الجوزية[1]:

إذا رزقت يقظة فصنها فى بيت عزلة ... فإن أيدى المعاشرة نهابة
واحذر معاشرة الباطلين فإن الطبع لص ... لا تصادقن فاسقاً ولا تثق إليه

فإن من خان أول منعم عليه لا يفى لك

(١) بدائع الفوائد ٢٣٥.

عزلة المسلم:

روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**أنا برىء من كل مسلم مع مشرك**».

قيل: لم يا رسول الله؟ قال: «**لا تراءى ناراهما**».

قال ابن الأثير: أى يلزم المسلم ويجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك. ولا ينزل بالموضع الذى إذا أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك إذا أوقدها فى منزله. ولكنه ينزل مع المسلمين فى دارهم.

وإنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان[١].

ونضيف: إنَّ مقاصد ذلك التباعد الفرار بالمسلم من أخلاق المشركين حتى لا يتأثر بهم لأن الطبع يسرق من الطبع. بخلاف ما إذا سكن فى ديار المسلمين فإن رفقة الخير تزين له ذلك الخير. وتحضه بالقدوة عليه.

فى غار حراء:

كانت عزلته ﷺ «فى غار حراء بالذات» فقد كان يرى الكعبة المشرفة من داخله.. فهو مرتبط بالبيت ورب البيت حتى فى عزلته. وكانت عزلته ﷺ فيه علامة على نزوع نفسه وشوقها إلى الخلاص.

(وأمست نظرته إلى قومه نظرة عالم الفلك فى عصرنا ـ إلى جماعة يؤمنون بأن الأرض محمولة على قرن ثور، أو نظرة عالم الذرة إلى جماعة يتراشقون بالحجارة إذا تحاربوا. وينتقلون بالمطايا إذا سافروا)[٢].

(وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له. وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم.

ولابد لأى روح يراد لها أن تؤثر فى واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى.. لابد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت. وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة. وهموم الناس الصغيرة التى تشغل الحياة.

---

(١) لسان العرب جـ ١٨/ ١٥٤٢.

(٢) فقه السيرة للغزالى: ٨٨.

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى. وتغيير وجه الأرض. وتعديل خط التاريخ.. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات. ينطلق فى هذه العزلة شهراً من الزمان مع روح الوجود الطليقة.

ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون. حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله)[١].

ومعنى ذلك أن العزلة فرار بالنفس من واقع يلح عليها بكثير من الأمراض القلبية.. والتى لا نجاة من تأثيرها إلا بفراق المجتمع نفسه زمناً معلوماً.

ثم هى من ناحية أخرى قرب من الحق سبحانه وتعالى يربى ملكة الحب له والتقديس لذاته... فإذا امتدت فى حنايا القلب عاطفة الحب.. وإذا برئت النفس من مجاراة المجتمع فيما يعج به من باطل.. عادت بعد ذلك إلى ساحة المعركة بين الحق والباطل وهى عصية على الانحراف.. قادرة على الدفاع وعلى الهجوم.

والعزلة ليست انقطاعاً كاملاً عن الحياة... ويلاحظ أنه ﷺ كان فى عزلته (يأخذ معه السويق والماء.. ويطعم من جاءه من المساكين)[٢].

بمعنى أنه لم يتحول بالعزلة ملكاً مبتوت الصلة بالبشر.. وإنما هو فى خلوته يتأمل.. ويتفكر.. وما تزال نفسه تقوم بدورها فى الإصلاح: يعمل ليأكل من عمل يده.. ولا ينسى حق أهله عليه - فلا يغيب إلا أياماً معدودات... إن لزوجه عليه حقاً.. وللناس عليه حقاً.. وحق ربه تعالى لا يضيع ذلك كله.

ونلفت نظر بعض المتشددين الذين يكلفون أنفسهم ما لا تطيق.. نلفت نظرهم إلى ما ذكره طلائع الجغرافيين العرب من أن غار حراء وما حوله حينئذٍ لم يكن صحراء قاحلة.. ولكنه كان معشوشباً تكسوه خضرة... ليعلموا أن عزلته ﷺ لم تكن قتلاً للدوافع النفسية.. ولا انقطاعاً كاملاً عن مباهج الحياة.

يقول بعض الباحثين[٣]:

---

(١) فى ظلال القرآن ٢٩/١٦٦، ١٦٧.

(٢) راجع كتب السيرة.

(٣) دراسات فى السيرة النبوية.

(ومحمد صلوات الله وسلامه عليه إذا خرج إلى غار حراء.. لم يكن يمر فى طريق موحش ليس بذى نبات ولا غرس... إنما كان يسير فى طريق لين سهل. فيه خضرة قليلة. وشجر وبعض ماء وكان إذا وصل إلى حراء لم يشق عليه الصعود إليه كما يشق علينا اليوم وذلك لما يتوفر له من عزيمة صادقة تزيده قوة وتسهل له الصعاب).

ويعنى هذا: اختيار غار حراء موطناً للتعبد كان تدبيراً إلهياً.. ينشرح به الصدر.. وتبتهج النفس.. ويجد العقل فرصته للتحليق فى ملكوت الله تعالى.. فى جو كل ما فيه يشهد بوحدانية الله.. بعيداً عن صخب الحياة.

ولا شك أنها عزلة. وإن شئت قلت: خطوة إلى الوراء تجىء القفزة بعدها محكمة. يصل بها الإنسان إلى هدفه.

وليست هى الرهبانية الذاهبة بالإنسان إلى سفوح الجبال بلا عودة... لأنها بهذا المعنى فرار من الميدان. على ما يقول الرافعى يصف الرجل السلبى:

(يحسب أن قد فر من الرذائل إلى فضائله... وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء. والبر والإحسان إذا كانت فيمن انقطع فى صحراء. أو على رأس جبل؟

أيزعم أحد أن الصدق فضيلة فى إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟

وأيم الله إنَّ الخالى عن مجاهدة الرذائل جميعاً لهو الخالى من الفضائل جميعاً)[1].

إن الفرار من الحياة الصاخبة ضرورة أحياناً فى حياة الفرد العادى. كى يستجم استجماماً يعده لمرحلة تالية يكون فيها أقدر على ممارسة دوره بتفوق. وهو لازم بين بالمعنى الأخص فى حياة حملة الرسالات:

حين يستعلون بالعزلة على جواذب الأرض.. ليتحرروا من إسارها. حتى يخلص الفؤاد للحق.

---

(١) وحى القلم: ٢/ ٩٧.

وإذن فقد كان محمد ﷺ بشراً فى قمة الكمال البشرى.. ولم يكن ملكاً.. وإلا لما استطاع أن يقوم بالبلاغ.. وقد كانت الخلوة[1] نقطة تحول فى حياته تقف به بين عالم الملائكة وعالم البشرية ليصلح عندئذ للتلقى عن الملك:

فجبريل مَلَك بكل ما تحمل الكلمة من روحانية علوية...

ومحمد عليه السلام:

أ - بشر.

ب - وهو بالخلوة روحانى.

ولكى يتمكن من التعامل مع عالم الملائكة لابد من: ترقيق الطبيعة البشرية بهذه الخلوة.

أى أنها شبيهة بفترة حضانة لمبدأ الرسالة... إلى جانب ما حدث من «غط» جبريل له.

هذا الغط الذى يشبه أن يكون تفتيتاً لعلائق البشرية لتستعد للتلقى.. وليس ذهاباً بالبشرية جملة. وإلا لما تمكن من مخاطبة الأمة وقيادتها.

ولعل هذا ما أشار إليه العلماء:

(إنَّ مع الخلوة فراغ القلب. وهو معينة على التفكر.

والبشر لا ينتقل عن طبعه إلا بالرياضة البليغة... فحبب إليه ﷺ الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر. فينسى المألوف من عاداته. فيجد الوحى منه مراداً سهلاً لا حزناً)[2].

أى إنَّ الوحى حين ينزل.. ينزل على طبيعة بشرية أقرب ما تكون إلى أفق الملائكة. فيعينها ذلك على حسن التلقى والاستيعاب.

يقول العارفون بطبائع النفوس - ومنهم ابن عربى - إنَّ إشراق النفس..

---

(١) راجع «محمد رسول الله» للشيخ عرجون جـ١/٢١٦.

(٢) عمدة القارئ - بدء الوحى.

ووصولها إلى مرفأ اليقين. . يلح عليها أن تنجو من صخب الحياة والأحياء. . ليخلو الإنسان بنفسه بعيداً.

(وما دام الأمر أمر نبوة قادمة. فلا يتفق مع جلالها أن يكون محمد منصرفاً إلى شؤون المعاش. مخالطاً للناس. ثم يطرقه الوحى بغته وسط الخلق. أو وهو خال فى بيته. مع أهله من زوج أو ولد.

إن الخطوة فى الجبل أصبحت حينئذٍ خطوة من خطوات الدخول فى النبوة.

ومن هنا فقد كان أساسياً أن تكون الخلوة لفترات طويلة. لأن محمداً ﷺ هنا يبتعد لبعض الوقت عن البشر. ليتم تحوله الروحى. ويستعد لتلقى الرسالة. ثم يعود إلى الناس نبياً مرسلاً. لكى يدعوهم إلى الدخول فيما ألقى الله فى صدره من الإيمان)[1].

محمد ﷺ بين الأنبياء:

يقول ﷺ:

«مَثَلى ومَثَل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة. وأنا خاتم النبيين»[2].

وفى الليلة التى نزل جبريل عليه السلام بالوحى أول ما نزل وضعت هذه اللبنة. . وكمل البناء. . وبزغ ضوء الصبح يشق أطباق الظلام.

وفى هذه اللحظة بدأت الرحلة المباركة. . وتمت مكارم الأخلاق التى هى ميراث النبوة الحقيقى.

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

وعندما اعترض المشركون على اختيار محمد ﷺ للرسالة فيما حكاه القرآن

---

(١) دراسات فى السيرة النبوية د. حسين مؤنس.

(٢) رواه مالك فى الموطأ وأصحاب السنن.

(٣) رواه البخارى ومسلم.

الكريم عنهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1].

كان الرد الإلهى مسفهاً لهم حيث قال:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2].

إنهم تقلبوا فى أعطاف النعيم كابراً عن كابر. فأفسد النعيم فيهم ملكة التمييز. وحرمهم من صحة الحكم.

كيف وهم أسارى قِيَم المال. والجمال. والمنصب.

وإذا قسم الحق تعالى هذه الحظوظ دون أخذ رأيهم. فكيف بالرسالة العظمى وهى أجل وأسمى؟

إنها رحمة الله تعالى يقسمها كيف يشاء. ولا صلة لهم بقسمتها إطلاقاً. ودورهم فقط: أن يتعرضوا لآثارها على يد من اختاره تعالى لتبليغها.

واصطفاء الحق تعالى من عباده من لم يكن ذا مال وبنين.. ومحمداً ﷺ بالذات. .إنما جاء طبق سُنة إلهية تبينها طبيعة الرسالة ذاتها:

أجل.. إنه ﷺ لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً يستلفت الأنظار.

ولكنه كان يملك من عظيم الأخلاق ما استحق به الاصطفاء للرسالة.... إن العظائم كفؤها العظماء.

وإذن فهو بأخلاقه يعكس طبيعة الرسالة التى قدر لها أن تشق طريقها بين الصخور بقواها الذاتية. على لسان رسول يملك من قوة الشخصية ما يغنيه عن كل طلاء كاذب.

(لقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل...ولم يشأ الحق سبحانه أن يجعل

(١، ٢) سورة الزخرف: آية ٣١، ٣٢.

لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها. ولا قوة خارج حقيقتها. فاختار رجلاً ميزته الكبرى: الخلق.. وهو من طبيعة هذه الدعوة. وسمته البارزة: التجرد.. وهو من حقيقة هذه الدعوة.

ولم يختره زعيم قبيلة. ولا رئيس عشيرة. ولا صاحب جاه. ولا صاحب ثراء.. كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء.

ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليس من حقيقتها فى شيء... ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها. خارج عن ذاتها المجردة. ولكي لا يدخلها طامع. ولا يتنزه عنها متعفف)[1].

وإذن فقد كان ﷺ بأخلاقه العظيمة. على موعد مع الرسالة العظيمة. ليثمر هذا اللقاء المبارك من كل الثمرات.

وحتى هؤلاء الحنفاء الذين عبدوا الله تعالى على ملة إبراهيم عليه السلام على ما كان لديهم من صدق النوايا. وسلامة الوجهة. لكنهم لم يكونوا على مستوى هذه المسؤولية العظمى.

فلم تكن القضية قضية نوايا طيبة بقدر ما كان الأمر «خلوص المحل الذى يملؤه هذا الأمر الخطير» كما قيل بحق. خلوصاً يمحض وجود الرسول للرسالة وتبعاتها.

ومن وراء ذلك كله: إرادة قوية ماضية بالناس إلى مرضاة الله.

يقول الشيخ محمد الغزالى فى هذا المعنى:

(إنَّ زيد بن عمرو بن نفيل واحد من المفكرين القلائل. الذين سخطوا ما عليه الجاهلية من فكر.

إنه ليشكر على تحريه الحق. ولا يغمط هو ولا غيره أقدارهم بين قومهم. لكن القدر كان يتخير رجلاً يبصر الحق. ويملك من الطاقة ما يدفعه به إلى آفاق العالمين. وفى وجه مقاومة تسترخص النفس والنفيس للإبقاء على الضلال. والإمساك بليله البارد الثقيل.... كان القدر يعد لهذه الرسالة العظيمة رجلها

---

(١) فى ظلال القرآن.

العظيم)[1].

ونزل الوحى على محمد ﷺ . . فكان نزوله رد اعتبار لكرامة الإنسان التى ضيعت على موائد المتعة الرخيصة. . وفى ميادين القتال الهمجى. ورداً لاعتبار العقل الذى شغل نفسه بأساطير الأولين زمناً طويلاً. . ثم رفع جبهة الإنسان المعفرة بتراب السجود لغير الله تعالى لتشمخ وتطاول السماء.

[براعة الاستهلال فى الرسالة الخاتمة]:

روى البخارى فى الجامع الصحيح باب: كيف بدأ الوحى:

عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى: الرؤيا الصالحة ـ أو الصادقة ـ فى النوم. فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح.

ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ والتحنث: التعبد ـ الليالى ذوات العدد. قبل أن ينزع إلى أهله. ويتزود لذلك.

ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.

حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء. فجاءه الملك فقال: **اقرأ. قال** ﷺ: **«ما أنا بقارئ»**.

قال: **«فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ»**.

«فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد. ثم أرسلنى فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ».

فأخذنى فغطنى الثالثة. ثم أرسلنى فقال:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

---

(١) فقه السيرة ٨٨.

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها. فقال: **«زملونى. زملونى»**. فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر: **«لقد خشيت على نفسى»**.

فقالت خديجة: كلا. والله لا يخزيك الله أبداً... إنك لتصل الرحم. وتصدق الحديث. وتحمل الكل. وتكسب المعدوم. وتقرى الضيف. وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل.. ابن عم خديجة... وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية.. وكان يكتب الكتاب العبرانى. فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب.. وكان شيخاً كبيراً قد عمى.

فقالت له خديجة: يا ابن عم. اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة يا ابن أخى: ماذا ترى؟.. فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى...

فقال له ورقة: هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى. يا ليتنى فيها جذعا[1]. ليتنى أكون حياً إذ يخرجج قومك.

فقال رسول الله ﷺ : **«أو مخرجىَّ هم؟»** قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى... وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى).

وقفه تأمل:

عندما أراد سبحانه أنزل وحيه على رسوله ﷺ اختار اللحظة المناسبة.. فى ظروف مواتيه تشير بكل حركة فيها إلى أسس الدعوة الجديدة: لقد قعدت من القواعد وأصلت من الأصول ما كان منطلقاً للدعوة.. فكانت بحق براعة استهلال لرحلة الدعوة الطويلة.

الرؤيا الصادقة:

---

(١) أى شاباً قوياً.

قال ﷺ : «**الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان**».

يقسم الحديث الرؤيا المنامية إلى رؤيا صالحة ويبين أن مصدرها الله، وإلى نوع آخر يسميه «حلماً»، ويبين أن مصدره تصويرات الشيطان للنفس.

والحديث يقرر بذلك نظرية الإسلام عن الأحلام، فهناك الرؤيا الصادقة التى قد تكشف عن المستقبل لأنها نوع من الوحى، وحقيقتها انطلاق الروح فى حال خمود نوازع الجسم الشاغلة لها حال اليقظة إلى عالم الملكوت الذى نقش فيه كل ما هو كائن، وما سيكون من أحوال المخلوقات ـ وهو عالمها الأصلى ـ فتلقف من هناك بعض العلم وتعود به لصاحبها بصورة صريحة أو بصورة رمزية. فتلك هى «الرؤيا».

وأما الحلم فهو من تخيلات الشيطان للنفس، وقد يكون الشيطان رمزاً لما يسميه علماء النفس المحدثون بكبت الرغبات فإن ـ الشيطان ـ وهو روح خبيث هو الذى يذكى رغبات الإنسان المادية.

ويرى «فرويد» وجميع مقلديه، أن الأحلام منحصرة فى الصنف الثانى المعلل بـ «كبت الرغبات» وينكرون الصنف الإلهى إنكاراً باتاً وليس فى الجهل ما هو أشد من هذا الإنكار الذى ترده التجربة المستمرة وخبر المعصوم)[1].

أما الرؤيا الصالحة: فقد كان محمد ﷺ يصحو منها منشرح الصدر. متفتحا لكل ما فى الحياة من جمال.

كانت مرحلة إشراق روحى دخل فيها محمد ﷺ ليبتعد عن الحياة ويرتفع عن صغائرها دون أن ينفصل عن الناس... وهى تمهيد طبيعى للانتقال إلى مرحلة أخرى من مراحل النبوة.

وتعبير «فلق الصبح» هنا يعيننا على تصورها:

فإن الإنسان منا إذا قضى ليلة هادئة نام فيها نوماً هنيئاً. وأصبح فنظر إلى حديقة ذات أشجار وخضرة وزهور.. أحس فعلا كأن نفسه تمتلئ بنور صاف.

---

(١) من كلمة للدكتور محمد سعاد جلال.

يشبه الفلق وهو ضياء الصبح إذا انبلج.

ويفسر المفسرون الفلق فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١].

بأن الله سبحانه وتعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيمان.

وهذا النور هو الذى كان يملأ نفس محمد عندما يصحو بعد رؤية من هذه الرؤى الصالحة[١].

إنَّ من شأن المفاجأة أن تربك الإنسان. وتشل قدرته على التمييز والاختيار.. فلا يستطيع اتخاذ القرار المناسب.

وقد شاءت حكمته تعالى ـ وهو أعلم بمراده سبحانه ـ أن تكون الرؤيا الصادقة أول ما يلاقى من بوادر الوحى.. حتى إذا دقت ساعة الجهاد. كانت النفس مستعدة للتلقى يقظة.

وقد ذكرت بعض الروايات أن مجىء جبريل يقظة سبقه[٢] مجيئه مناماً وبنفس الصورة. تهيئة للرسول ﷺ.. على نحو يعايش فيه الظروف الجديدة حتى لا تثقل عليه لو جاءته دون سابق إنذار.

وأمر آخر:

فقد كانت الرؤيا أيضاً إعداداً للأمة التى تعيش معه.. حتى تزامله فى رحلة الكمال.

إنه يذكر لهم ما يشاهد فى منامه. وتصدق نبوءته، ويفسر الواقع ما رآه فى منامه.

وإنهم ليستشرفون معه أفقاً أعلى من واقع يتحكم فيهم بتقاليده.. حتى إذا عاد يوماً من فوق الجبل يخبرهم بالوحى كانوا مستعدين للتجاوب معه.

وهنا نذكر منهج الإسلام فى البدء بالتشديد أحياناً توطيئاً للنفس على الامتثال.

(١) د. حسين مؤنس: دراسات فى السيرة النبوية: ٧٨، ٧٩.

(١) راجع: «محمد رسول الله» جـ١/ ٢٧ وما بعدها.

ثم التخفيف أحياناً تلطفاً بالنفس ابتداء حتى لا تنفر من التكليف جملة. . ولعل فى بدء الوحى وما كان فيه من التيسير بالرؤيا الصادقة أولاً. . ثم التشديد بالأمر بالقراءة مع أميته ﷺ . . ثم بغطه على النحو الذى تم به ما يشير إلى درس فى إعداد النفوس للتلقى. حين يبدأ التعليم النظرى باليسير من القضايا. . جذباً للنفس إلى مجالس العلم.

ثم بالتشديد عند التكليف لتنطلق النفس بعد تخطى العقبة مستسهلة كل صعب. جاء فى بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية[1].

[تأمل الحكمة فى التشديد أول التكليف. ثم التيسير فى آخره بعد توطيد النفس على العزم والامتثال فيحصل للعبد الأمران:

الأجر على عزمه. . وتوطين نفسه على الأمتثال والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه:

فمن ذلك أمر الله تعالى رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء ثم خففها وتصدق فجعلها خمساً.

ومن ذلك: أنه أمر أولاً بصبر الواحد إلى العشرة. ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنين.

ومن ذلك: أنه حرم عليهم فى الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك. أو يجامع. ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر.

ومن ذلك: أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدى مناجاة رسول الله ﷺ . فلما وطنوا أنفسهم على ذلك خففه عنهم.

ومن ذلك: تخفيف الاعتداد بالحول. . بأربعة أشهر وعشراً وهذا كما يقع فى الابتلاء بالأوامر فقد يقع فى الابتلاء بالقضاء والقدر:

يشدد على البعد أولاً. ثم يخفف عنه.

وحكمته تسهيل الثانى بالأول وتلقى الثانى بالرضا. وشهود المنة والرحمة وقد

---

(١) جـ ٣/ ١٨٣، ١٨٤.

يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريباً من هذا:

يطلبون منهم الكثير جداً. الذى ربما عجزوا عنه ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم نفوسهم بذله. ويسهل عليهم.

وقد يفعل بعض الحمالين قريباً من هذا فيزيدرن على الحمل شيئاً لا يحتاجونه ثم يحط تلك الأشياء. فيسهل حمل الباقى عليهم.

ويقع الأمر فى القضاء والقدر أيضاً ضد هذا: فيثقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه لئلا يفجأ بهذا التشديد بغتة فلا تحمله النفس ولا تنقاد له. وهذا كتدريجهم فى الشرائع شيئاً بعد شىء. دون أن يؤمروا بها كلها. وهلة واحدة. وكذلك المحرمات.

ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولاً ركعتين ركعتين. فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين فى الحضر. ومن هذا أنهم أمروا أولاً بالصيام وخيروا فيه بين الصوم عيناً وبين التخيير بينه وبين الفدية... فلما ألفوه أمروا بالصوم عيناً.

ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولاً من غير أن يوجبه عليهم. فلما توطنت عليه نفوسهم. وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به وفرض عليهم فرض كفاية وحكمة هذا التدرج: التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئاً فشيئاً].

ميلاد الإنسان:

عندما جاءه الوحى - ﷺ - وهو فى غار حراء. ولد الإنسان فى هذه اللحظة. وثبتت صلاحيته ليكون رسولاً نبياً بعد أن ظن الجاهلون استحالة ذلك حين جردوا الإنسان من صلاحية التلقى عن الله سبحانه وجعلوا ذلك للملك.. دون الإنسان!

أجل: ولد الإنسان من جديد: فهو مأمور بأن يقرأ. ليدخل بالقراءة عالماً جديداً. فوق ما تعارف عليه المترفون... ولتكون القراءة مفتاح نهضة شاملة كاملة فى كل فن من فنون الدنيا... وأن يرتبط ذلك كله بالحق. ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**﴾

[العلق: ١]. . . إنَّه بعث جديد فى دوافعه. وفى أهدافه. . . ولا يفرض الأمر هنا قسراً. . . وإنما هو معلل بالدليل: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

أى أن العقل الذى تجمد على يد الطغاة فى فارس والروم ومن احتطب فى حبلهم يستيقظ اليوم على ضوء رسالة عظمى. . تحترم آدمية الإنسان. . وتعترف به ناطقاً مفكراً. . فتقدم له الدعوى. . مصحوبة بدليلها!. . ومصحوبة أيضاً بأدق مناهج التربية. فالطالب عند التلقى لابد أن يكون فارغ البال. كامل الانتباه. ولا يتم ذلك إلا بفتح كل منافذ حسه بمختلف الوسائل الممكنة. . وليكن ذلك ثلاث مرات لا تزيد!

وهكذا فعل جبريل عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام:

لقد غطه وبقوة ليستجمع انتباهه. . ولينقله إلى قمة الكمال البشرى ليكون على مشارف الملكية حتى يتحقق نوع من التقارب يتم به التجانس. ويمكن من التلقى بوعى كامل!

لقد كانت المفاجأة مذهلة:

أولاً: حين دخل عليه جبريل الغار بلا استئذان.

وثانياً: حين أمره بالقراءة بمجرد الدخول كما يفيد التعبير «بالفاء» فقال: ومِنْ ثم كان الفزع شديداً. . وكانت العودة إلى خديجة وهو مضطرب الفؤاد.

وعندما خاف أن يكون قد ألم به شىء بادرته خديجة رضى الله عنها بما ينفى ذلك تماماً. . . وإنها لتقول له: أبشرْ. . بينما الأفق كله ينذر بالغيوم. . . ولكنها المرأة العظيمة: إنها ترى الفجر القادم من خلال الغيوم الداكنة ولا تقول ذلك دعوى بلا دليل لكنها تعزز منطقها بماضيه المشرف فى خدمة الخلق. فالحكم بعد الدراسة فكيف يخزيه الخالق؟!

لقد وصفته بأصول مكارم الأخلاق كلها. . . لأن الإحسان (إما إلى الأقارب: أو إلى الأجانب. وإما بالبدن. أو بالمال. وإما على من يستقل بأمره. أو من لا

يستقل. وذلك كله مجموع فيما وصفته به)[١].

وهذا ما لمسته على الطبيعة من أخلاق محمد ولم تقرأه بين دفتى كتاب. إن الرحمة فى طبعه عاطفة سائدة وإنه يتجه بالرحمة إلى الخلق الجديرين بها.

ومن ثم فالذين يشفقون على الخلق دائماً فى عين الحق.

وكان من الممكن أن تستبد العاطفة بالمرأة هنا - وعاطفتها غلابة - فترتبك من هول المفاجأة.

لكن العقل هنا كان صاحياً فقاد خديجة مع رسول الله ﷺ إلى حيث الخبرة.. والتجربة لدى ابن عمها ورقة بن نوفل.

لقد كانت مكة حافلة بالخبرات والقيادات والأقارب... ولكنها قررت أن تأخذ العلم من مظانه.. لأن التجارب الفطيرة لا تخدم الحق... ولماذا ابن عمها؟ ولماذا ورقة بالذات؟ إنه ابن عمها.. فهو أخلص لها... ثم هو: شيخ.. وقور كبير.. له رصيد من التجارب.. ومن أهل الكتاب.. فهو أقرب إلى الحق رحماً... ويجيد العبرية.. فهو واسع الثقافة.. على صلة بالكتب.. فلها عنده ذكر.. وإذن فحكمه أصدق.. وكلامه أهدى.

خديجة تدير الحوار:

لقد تكفلت بتقديم الرسول إلى ورقة.. واضعة بالتقديم[٢] قاعدة مهمة فى السلوك الاجتماعى:

فقد قدمت الرسول إلى ورقة.. وفيه إرشاد أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرف بقدره. ممن يكون أقرب منه للمسؤول[٣].

إن المرأة التى كانت بالأمس موءودة تدفن حية فى التراب.. تقف اليوم إلى جانب الرجل تمهد للرسالة تمهيداً يؤكد قدرتها فى ضوء الإيمان على أن تكون شيئاً مذكوراً.

وإذا كان الشاعر يقول:

---

(١) فتح البارى.

(٢) راجع فى هذا المعنى كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٣) فتح البارى.

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يسليك أو ينجيك أو يتوجع

فإن خديجة رضى الله عنها لم تقف عند حد التسلية أو التوجع. لكنها ارتقت إلى درجة أعلى فى مشاركة إيجابية فاعلة.

وكان ورقة عند حسن الظن به وفاء وإخلاصاً: فقد واجه محمداً ﷺ بالخطر الذى ينتظره وعليه منذ الآن أن يستعد له... ليستعد للغد المرتقب. وللمعركة الفاصلة الخطيرة التى تمنى ورقة أن يكون حياً. حينئذ.. وأن يكون شاباً قوياً ليقف إلى جانبه فى معركة لا يثبت فيها إلا الأقوياء.. وهنا تتم النصيحة كمالاً.. ويستعد الرسول الكريم ﷺ للمستقبل فى صحبة إحساس بالمعركة الكبرى التى لن تكون مفاجأة له:

عرفنا الليالى قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علماً

خديجة والبحث عن الحقيقة:

ولقد كانت لخديجة محاولة ذاتية تبينت فيها أن ما يجيئه ﷺ ملك.. فبعد أن تعددت رؤية الملك.. أرادت أن تتبين هل هو ملك أم شيطان:

قالت لرسول الله ﷺ: أى ابن عم: أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك الذى يأتيك إذا جاءك؟ قال: «نعم»... فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع... قال لخديجة: **«هذا جبريل قد جاءنى»**.

قالت: قم ابن عمى. فاجلس على فخذى اليسرى. ففعل... قالت: هل تراه؟ قال: **«نعم»**. قالت: فتحول فاجلس على فخذى اليمنى. ففعل. قالت: هل تراه؟ قال: **«نعم»**.

قالت: فتحول. فاجلس على حجرى. ففعل.

قالت: هل تراه؟ قال: **«نعم»**.

فكشفت رأسها. وألقت خمارها. ورسول الله ﷺ فى حجرها... ثم قالت له: هل تراه؟ قال: **«لا»**... قالت: يا ابن عم: اثبت وأبشر. فوالله إنَّه لملك. وما هذا الشيطان[1].

(١) أيد ابن إسحاق هذه الرواية بأنه حدث بها عبد الله بن حسن (حفيد الحسن بن على) فأيده وقال سمعت أمى فاطمة بنت الحسن تحدث بهذا الحديث عن خديجة ـ انظر ابن هشام جـ١/٢٣٨.

إذا كان صدق الرسول وأمانته حقيقة مقررة فى ضمائر العرب حينئذ.. فقد كان فى تقدير خديجة معلوماً بالضرورة.. لما شاهدته وسمعته عنه ﷺ.. ثم لما تزوجته علمت من صدقه ووفائه للحقيقة أنه كان يتغاضى عن الهفوات إلا إذا رأى على أحد كذبة فلا يزال معرضاً عنه حتى يحدث توبة.

وإذن فلم تكن لديها ذرة من شك فى صدق محمد ﷺ فيما يقوله عن هذا الذى يأتيه.. وإنما هى فقط تريد أن تتأكد من طبيعته ليطمئن قلبها.. منطلقة فى ذلك من وفائها لزوجها العظيم.. الذى يعيش منها فى بؤرة الشعور.. لا يغيب.. فلم تكن هى تلك الزوجة المعاصرة التى تغط فى نوم عميق بينما فى قلب زوجها ما يشبه الحريق.. تاركة شريك حياتها يغالب الأمواج وحده.

ومنطلقة ـ كذلك ـ من الدم المشترك والمصير المشترك من حيث كانا فى زورق واحد تتقاذفه هوج الرياح.. ولابد من أن يتحمل كل راكب مسؤوليته..

ومن هنا تناديه.. لا كزوج فقط وإنما تقول له: أى: ابن عم.. مسجلة بهذا النداء طبيعة دورها لا كرفيقة عمر.. وإنما بالإضافة إلى ذلك.. فهى أخته.. ومن دمه ولحمه. أى أن اهتمامها به مردود إلى الرابطة الأبدية التى لا تنفصم عراها.

ويعنى ذلك: أن الحق تعالى.. والذى يعد محمداً ﷺ ليكون رسولاً.. يهيئ له فى نفس الوقت الزوجة الوفية التى ترتفع معه إلى مستوى مسؤوليته.. والتى تعينه على أمر الله.

وإلى جانب الوفاء.. فقد كان هناك أيضاً قبس من الذكاء.. الذكاء الذى هداها إلى أنَّ هناك فرقاً هائلاً بين الملك وبين الشيطان... فالملك طاهر.. والشيطان نجس.. فلما كشفت رأسها.. فغاب استحياء علمت أنه ملك.. وإلا فلو كان شيطاناً لبقى.. وعندئذ نصحت الرسول ﷺ بالثبات على الأمر.. ثم بشرته بأنه ملك..

أجل بشرته بينما كان الجو كله غائماً.. مكفهراً.. ولكن خديجة المؤمنة كانت ترى الخطر بعينها.. إلا أن قلبها يخترق هذه الحجب ليرى من وراء

الخطر.. ذلك الفجر الطالع.

وبعد: ففى الوقت الذى كانت خديجة تسلك سبيلها إلى اليقين كان محمداً ﷺ على غاية ما يكون اليقين.. حين قال لها واثقاً: **«هذا جبريل قد جاءنى»**.

وعندئذ يخنس أعداء الإسلام من المستشرقين الظانين بالرسالة ظن السوء حين قالوا: إنَّ محمداً كان واهماً.. ولا يدرى أنه كذلك..

لكن هذا الموقف وأمثاله خير شاهد على كذب ما يقولون. وخبث ما يضمرون.

إسلام صادق:

مر بنا كيف حكت خديجة رضى الله عنها باستحالة أن يخزى الله محمداً ﷺ أبداً.. وعللت هذا الحكم بماضيه المشرف فى صلة الرحم.. ومساعدة الضعيف.. وقرى الضيف.. والعون على نوائب الحق..

ثم ها هى ذى اليوم تعلن إسلامها بناء على التجربة العملية التى كررتها حتى وصلت إلى مرفأ اليقين:

فالرسول يجلس على شقها الأيمن.. ثم يتحول إلى حجرها. ثم تكشف رأسها.. فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. أعلنت إسلامها.. وهكذا ينبغى أن تكون قراراتنا المصيرية.. يجب أن تبنى على اليقين..

فترة الوحى:

روى ابن سعد عن ابن عباس أن مدة فترة الوحى كانت أياماً[(١)] ولم تكن سنوات كما اشتهر عند بعض الباحثين... وقد بقى ﷺ هذه الفترة محزوناً... ثم نزل عليه جبريل بعد ذلك.

وقد ذكر ابن حجر أن انقطاع الوحى كان لحكمة إلهية تعده ﷺ لمرحلة تالية يكون فيها أمضى عزماً.

ومن أسباب ذلك:

---

(١) فتح البارى: ١/ ٢٧.

أ ـ أن تأخر الوحى مدة يذهب عنه ما لاقاه من روع.

ب ـ تشوقه وتطلعه إليه. فلما عاد صادف قلباً مشوقاً فتمكن.

جـ ـ أن يعينه ذلك التطلع على الثبات إذا جاء بعد ذلك.

الدعوة السرية، دعوة العشيرة:

لما كانت مكة مركز دين العرب. وكان بها الأصنام والقائمون عليها. المدافعون عنها.

فقد كانت الدعوة إلى التوحيد شاقة تخوض طريقاً محفوفاً بالمخاطر.

لذلك.. كان لابد من سرية الدعوة فى مراحلها الأولى حتى لا يفاجأ أهل مكة بما يصدم مشاعرهم فيئدوها فى مهدها..

ومن صور الحكمة دعوة الأقربين أولاً قبل الأبعدين.

ذلك بأن الأقربين:

أ ـ هم آله وذووه ومن ثم أعرف الناس بصدقه فيما يقول... وأهل البيت أدرى بما فيه.

ب ـ إذا رآهم الأجانب مسلمين كان ذلك دليلاً قوياً على صدقه. حيث آمن به من هو واثق بهذا الصدق.

يقول صاحب فقه السيرة د. «البوطى»:

ولا ريب أن تكتم النبى ﷺ فى دعوته إلى الإسلام، خلال هذه السنوات الأولى، لم يكن بسبب الخوف على نفسه، فهو حينما كلف بالدعوة ونزل عليه قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1].

علم أنه رسول الله إلى الناس، وهو لذلك كان يوقن بأن الإله الذى ابتعثه وكلفه بهذه الدعوة قادر على أن يحميه ويعصمه من الناس، على أن الله عز وجل

(١) سورة المدثر: ١، ٢.

لو أمره من أول يوم أن يصدع بالدعوة بين الناس علناً، لما توانى عن ذلك ساعة ولو كان يتراءى له فى ذلك مصرعه.

ولكن الله عز وجل ألهمه ـ والإلهام للرسول نوع من الوحى إليه ـ أن يبدأ الدعوة، فى فترتها الأولى، بسرية وتكتم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أن سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليماً للدعاة من بعده، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التى ينبغى أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان فى التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية فى تصوره وتفكيره. يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته عليه الصلاة والسلام، فى هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبياً.

وبناء على ذلك فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، فى كل عصر أن يستعملوا المرونة فى كيفية الدعوة ـ من حيث التكتم والجهر، أو اللين والقوة ـ حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذى يعيشون فيه. وهى مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، اعتماداً على واقع سيرته ﷺ، ضمن الأشكال أو المراحل الأربع التى سبق ذكرها، على أن يكون النظر فى ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية.

ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العُدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيُقتَلون من غير أى نكاية فى أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس، لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع.

ويقر العز بن عبد السلام حرمة الخوض فى مثل هذا الجهاد قائلاً: «فإذا لم

تحصل النكاية وجب الانهزام، لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس فى طيها مصلحة».

قلت: وتقديم مصلحة النفس هنا، من حيث الظاهر فقط.

أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها فى الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضى ـ فى مثل هذا الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى. وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين نفسه وفسحاً للمجال أمام الكافرين ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.

والخلاصة، أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها، ولا يجوز الإسرار فى الدعوة إذا أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً، ولا يجوز المسالمة مع الظالمين والمتربصين بها إذا توفرت أسباب القوة والدفاع عنها.

{أول الغيث}:

آمنت خديجة أولاً.. ثم آمن على رضى الله عنه وهو ابن عشر سنين.

ثم أسلم مولاه وخادمه زيد بن حارثة والذى فضل البقاء مع رسول الله ﷺ على العودة مع أبيه.

ثم أسلم أبو بكر الذى كان إسلامه فتحاً مبيناً.. حيث أقنع بعض أشراف قريش بالدخول فى الإسلام فاستجابوا.

وكان ذلك دعماً لمسيرة الدعوة التى يجىء غدها باستمرار أفضل من أمسها بما يضيفه القدر إليها من أشراف تزداد بهم قوة.

شهادة صدق:

ولقد كان من تدبير الله تعالى أن يسبق هؤلاء إلى الإسلام.. ليكونوا بإسلامهم شهداء صدق على أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً.

إن أعظم الناس وأجلهم إذا انقلب إلى بيته. كان فيه رجلاً من الرجال..

وواحداً كآحاد الناس. ولقد صدق «فولتير» فى كلمته المشهورة: «إنَّ الرجل لا يكون عظيماً داخل بيته. ولا بطلاً فى أسرته».

يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من أقرب الناس إليه لاطلاعهم على دخيلته فى مباذله. وهذا الحكم يشذ عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه. فيقول «باروت سميث»: (إن ما قيل عن العظماء فى مباذلهم لا يصح ـ على الأقل ـ فى محمد رسول الله ﷺ الإسلام).

واستشهد بقول: «كبن» (لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه).

إنَّه قبل أن يتقدم الناس جميعاً، تقدَّم إلى الذين عرفوه من قبلُ معرفة كاملة. فطلب من زوجه وغلامه وأخيه وأقرب أصدقائه إليه وأحب خلانه، أن يؤمنوا به نبياً مرسلاً. فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته. وإنَّ حليلة المرء أكثر الناس علماً بباطن أمره، ودخيلة نفسه، وألصقهم به. فلا يوجد من أعرف منها بهناته ونقائصه. أليس أول من آمن بمحمد رسول الله زوجه الكريمة التى عاشرته خمسة عشر عاماً، واطلعت على دخائله فى جميع أموره، وأحاطت به علماً، فلما ادعى النبوة كانت أول من صدقه[1].

[بعض ما لقيه المسلمون من أذى قريش]:

اتفقت كلمة المشركين على صرف المسلمين عن دينهم بكل ما ملكوا من وسائل التعذيب... وكانت مقاومتهم تتم طبق خطة ماكرة تستهدف التعامل مع كل مسلم بما يناسبه من تهديد أو وعيد:

(قال محمد بن إسحاق[2]:

وكان أبو جهل الفاسق الذى يغرى بهم فى رجال من قريش:

إن سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وخزاه وقال: تركت دين أبيك. وهو خير منك. لنسفهن حلمك. ولنفلين[3] رأيك... ولنضعن شرفك.

(١) البعث الإسلامى جمادى الأولى ١٤٠٥هـ.

(٢) البداية والنهاية ج٣/ ٥٧.

(٣) فلى من باب رمى وقتل: أى نظر فيه. وفى عاقبته ومصيره.

وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك. ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربه. وأغرى به. لعنه الله وقبحه).

عدوانهم على رسول الله:

وقد كان التركيز أولاً على رسول الله ﷺ. لأنه إمام المسلمين.. فإذا أفلحوا فى صده عن الدعوة. فقد سهل عليهم بعد تلك إغراء آحاد المسلمين الذين يصبحون بلا قيادة تحميهم. ويجدون فيها أملهم مجسداً، وقد اتخذ إيذاؤهم لرسول الله ﷺ مسالك شتى منها:

١ ـ الإغراء.

٢ ـ الأسئلة المتعنتة.

٣ ـ التهديد.

٤ ـ السخرية..

٥ ـ الاعتداء.

الإغراء:

أرسل إليه إليه أشراف قومه يوماً. فجاءهم راغباً فى إسلامهم فقالوا[١].

يا محمد: إنَّا قد بعثنا إليك لنعذر فيك. وإنَّا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك:

لقد شتمت الآباء. وعبت الدين. وسفهت الأحلام. وشتمت الآلهة. وفرقت الجماعة... وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً. جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً... وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا[٢]... وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا... وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً[٣] تراه

---

(١) راجع البداية والنهاية جـ٣/٤٨.

(٢) جعلناك سيدنا.

(٣) الرئى: بفتح الراء وكسرها وتشديد الياء: الجنى.

قد غلب عليك. فربما كان كذلك.. بذلنا أموالنا فى طلب الطب. حتى نبرئك منه. أو نعذر فيك)[1].

وبالتأمل فى هذا العرض نطالع ما يلى:

بمجرد أن بعث الملأ من قريش إليه ﷺ نراه وقد سارع بالإجابة أملاً فى أن يسلموا... لكنه فُوجئ بهم يستميلونه بصور من الإغراء لعل واحداً منها يثنيه عن المضى فى طريق الدعوة.

ولقد كان الإغراء قوياً جذاباً. ولكنه ﷺ لا يعمل لنفسه وإنما عمله كله للدعوة. وهو مستعد أن يحرم من كل متاع لا يحقق أمله فى انتشارها وهيمنتها.

وربما توقع الملأ المفتونون بالدنيا أن الرسول وشيك الوقوع فى شباكهم.. لكنه ﷺ خيب آمالهم.. وقطع أطماعهم فى استمالته بقوله جواباً عن إغرائهم:

«ما بى ما تقولون. ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم. ولا الشرف فيكم. ولا الملك عليكم.. ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً. وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم... فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة... وإن تردوه. علىَّ أن أصبر لأمر الله. حتى يحكم الله بينى وبينكم».

الباطل يمضى فى تعنته:

كان المتوقع أن يسكت القوم بعد أن قطع الرسول ﷺ أطماعهم.. لكنهم انتقلوا من الإغراء إلى العناد عن طريق طلب الآيات. والمعجزات. ومعنى ذلك أن الباطل لا يهادن الحق أبداً. وديدنه أن يستمر فى الشغب. والتعنت. فإن أصابوا ما أملوا فبها.. وإلا فقد حققوا بالعبث ما يشتهون من إثارة الغبار حتى لا تخلو الساحة للحق وحده.

من أجل ذلك قالوا له ـ تعقيباً على جوابه الآنف ـ يا محمد:

(فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك. فقد علمت أنه ليس أحد من الناس

---

(١) أى إذا لم تكف عما تفعله. فنحن معذرون فيما نفعله بك.

أضيق بلاداً. ولا أقل مالاً. ولا أشد عيشاً منا. . . فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا. وليبسط لنا بلادنا. وليجر فيها أنهاراً كأنها الشام والعراق. وليبعث لنا ما مضى من آبائنا. .).

فلما أجابهم ﷺ أن ما يقترحونه خارج عن وظيفته كرسول يبلغ ما أوحى إليه. . لجوا فى عتوهم فقالوا عابثين:

(سل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول. ويرجعنا عنك. وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً. وقصوراً. من ذهب وفضة).

إغلاق باب النقاش:

وعند وصول النقاش إلى هذا الحد. . حكم الحق تعالى بإغلاق بابه. . . لأنهم طلبوا على وجه العناد. لا على وجه الهدى والاسترشاد.

فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا. ولا ما إليه رغبوا. لعلم الحق سبحانه أنهم لو عاينوا وشاهدوا ما أرادوا. لاستمروا فى طغيانهم يعمهون. ولظلوا فى غيهم وضلالهم يترددون. وذلك ما يشير إليه قوله تعالى فى كثير من الآيات الكريمة يقول سبحانه:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[1].

وقال تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً

(١) سورة الإسراء: الآيات من ٩٠ ـ ٩٤.

فظلموا بها وما نُرسلُ بالآيات إلاَّ تخويفاً ﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وأقْسَمُوا بالله جهْدَ أيمانهم لئن جاءتْهُم آيةٌ ليُؤْمنُنَّ بها قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله وما يُشْعِرُكُمْ أنَّها إذا جاءتْ لا يُؤْمنُونَ . ونُقَلِّبُ أفْئدتَهُمْ وأبْصارَهُمْ كما لمْ يُؤْمنوا به أوَّلَ مرَّة ونَذَرُهُمْ في طُغْيانهمْ يَعْمَهُونَ . ولَوْ أنَّنا نزَّلْنا إليْهِمُ الْملائكة وكلَّمَهُمُ الْموْتىٰ وحشَرْنا عليْهمْ كُلَّ شيْءٍ قُبُلاً مَّا كانُوا ليُؤْمنُوا إلاَّ أن يشاءَ اللَّهُ ولَكنَّ أكْثرَهُمْ يجْهلُونَ ﴾[2].

وقال سبحانه:

﴿ إنَّ الَّذينَ حقَّتْ عليْهمْ كلمتُ ربِّكَ لا يُؤْمنُونَ . ولَوْ جاءتْهُمْ كُلُّ آيةٍ حتَّىٰ يرَوُا الْعذابَ الأليمَ ﴾[3].

وتبدو الرحمة الإلهية فى عدم إجابتهم إلى ما طلبوا. . لأن الله تعالى علم أنهم. لن يؤمنوا بالآيات المقترحة. فيهلكهم.

وإذا عاد محمد ﷺ حزيناً أسفاً حيث لم يتحقق أمله فى هدايتهم. . إلا أن الموقف لم يخل من بارقة أمل أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى.

التهديد:

كان ثبات الرسول ﷺ على ما هو عليه مما أثار حفيظة القوم. فحض بعضهم بعضاً عليه. . . ثم إنهم مشوا إلى أبى طالب فقالوا[4]:

يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد نسب آلهتنا. وعاب ديننا. وسفه أحلامنا. وضلل آبائنا. . . فإما أن تكفه عنا. وإما أن تخلى بيننا وبينه. فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. فنكفيكه.

فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً. وردهم رداً جميلاً. فانصرفوا عنه. ومضى

(١) سورة الإسراء: آية ٥٩.

(٢) سورة الأنعام، الآيات من ١٠٩ ـ ١١١.

(٣) سورة يونس، الآيات ٩٦، ٩٧.

(٤) راجع البداية والنهاية: جـ٣/ ٤٥ وما بعدها.

رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله. ويدعو إليه).

ونلاحظ هنا محاولة الملأ رفع الحصانة عن رسول الله ﷺ. حتى يتمكنوا منه. ذاكرين لأبى طالب بأنه ـ أبا طالب ـ على دينهم. فهو منهم. وإذا عقد الإحراج لسانه. وإذا منعته الشفقة من مصارحة محمد بالكف عن دعوته.. فإنهم مؤدون عنه هذه المهمة الصعبة!

وإلا.. فلم يعودوا يطيقون هجوم الرسول ﷺ عليهم وعلى آبائهم. ودينهم. ويبدو أن الحملة لم تكن ضارية بدليل أنهم اكتفوا منه بالرد الجميل. والكلمة الرقيقة.

فلما رأوا إصرار الرسول ﷺ على دعوته.. ولما تأكد لهم ما يحققه من نجاح.. صعدوا الحملة. وبلغ التهديد مداه. حين لم يكتفوا باستهداف محمد وحده.. وإنما ضموا إليه عمه أبا طالب نفسه.. والذى صار مع ابن أخيه جبهة معادية لهم. وهم مستعدون للتصدى.

وذلك قولهم: (يا أبا طالب: إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك. فلم تنهه عنا... وإنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا. وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا. أو ننازله وإياك فى ذلك. حتى يهلك أحد الفريقين).

أبو طالب حائر بين عقله وقلبه:

واحتار أبو طالب بين عقله وقلبه:

فهو باسم العقل لا يطيق عداوة قومه. ولا يقدر على فراقهم. وهو خيط فى نسيج حياتهم.

وفى نفس الوقت لا يطاوعه قلبه المتعلق بمحمد أن يسلمه إليهم هكذا لينفردوا به على مرأى ومسمع منه.

وقرر أبو طالب أن يخرج من هذا التمزق بقوله للرسول:

(يا ابن أخى: إن قومك قد جاءونى فقالوا كذا وكذا.. فابق على وعلى

نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق). عندئذ ظن الرسول ﷺ أن عمه قد خذله.. وأنه قد استسلم لتهديد قومه.. فقرر معتمداً على ربه سبحانه أن يحسم هو الموقف الذى لم يستطع عمه أن يحسمه فقال ﷺ : **«يا عم: والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»**.

ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى. ثم قام. وعندئذ ناداه عمه فقال له:

(اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت. فوالله لا أسلمنك لشىء أبداً).

مقارنة بين موقفين:

عندما دعت قريش محمداً أن يجلس إليها ـ وهو ما أشرنا إليه من قبل ـ كان رده عليه الصلاة والسلام رفيقاً حيث كان يطمع فى إسلامهم. فلم يشأ هناك أن يقطع خيط الرجاء. أما هنا فقد اختلف الموقف:

فالملأ من قريش يهددون ويتوعدون.. معرضين بما يملكون من عدد وعدة.. فكان الرد الطبيعى هنا أن ينتفض محمد بكل ما منحه الإيمان من اعتزاز وثبات ليجرد هذا التهديد من فعاليته.. إلى درجة أنهم لو غيروا نظام الكون.. وألبوا عليه الدنيا كلها. فلن يترك هذا الأمر. ولو أدى ذلك إلى هلاكه.

الباطل يستسلم:

أراد الملأ من قريش أن ينسحبوا من الميدان مهزومين.. لكنهم أرادوا أن يستروا حمرة الخجل البادية على وجوههم إزاء هذا الصمود من رجل يقف وحده.. ثم يتحداهم جميعاً.. فقرروا أن يقدموا إلى أبى طالب اقتراحاً مستحيلاً من الناحية العملية.. ولكنهم جربوه مع علمهم سلفاً برفضه ليستروا فى ظله حمرة الخجل:

فقد عرضوا على أبى طالب أن يعطوه أعز فتى فى قريش وهو «عمارة بن الوليد» بدل محمد. ليتخذه ولداً له.. ثم ليسلم إليهم محمداً نظيره ليقتلوه!

ورفض أبو طالب بطبيعة الحال فى منطق أخاذ مقنع قائلاً:

(والله لبئس ما تسوموننى: أتعطونى ابنكم أغذوه لكم. وأعطيكم ابنى

فتقتلونه؟. . . هذا والله ما لا يكون أبداً).

ولم يكن القوم فى حاجة إلى من يقنعهم بتفاهة العرض ولكنها بداية النهاية. . الناطقة بعجزهم أمام إصرار محمد ﷺ . . ومن ثم راحوا يحاولون المحاولة الأخيرة:

[عندما يغيب العقل]:

عندما يفقد الإنسان عقله فإن يلجأ إلى أساليب الصبيان. . وأساليب الحيوان.

يلجأ الصبيان إلى السخرية من العقلاء. . ولا يسع الحيوان إلا التحرش بالآخرين.

وهذا ما فعله الكافرون فى تعاملهم مع رسول الله ﷺ بعد أن أعيتهم الحيل.

(قال عروة بن الزبير: سألت ابن العاص فقلت: أخبرنى بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله؟ قال:

بينما النبى ﷺ يصلى فى حجر الكعبة إذا أقبل عليه عقبة بن أبى معيط. فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)(١).

وقال عروة أيضاً: (اجتمع أشرافهم فى الحجر يوماً. فذكروا رسول الله ﷺ وما فعل بهم. . . . . فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول. فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ﷺ . فمضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها. فعرفتها فى وجهه. فمضى فمر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فقال:

«أتسمعون يا معشر قريش؟. . «**أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح!!**»

فأخذت القوم كلمته. حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع

(١) البداية والنهاية.

حتى إنَّ أشدهم عليه ليقول: انصرف أبا القاسم راشداً فما كنت بجهول)[1].

ثم إنهم رأوه فى اليوم التالى فوثبوا إليه وثبة رجل واحد فأحاطوا به يقولون:

أنت الذى تقول كذا وكذا؟

فيقول رسول الله ﷺ: «نعم. أنا الذى أقول ذلك».

وهكذا.. فى الوقت الذى يدعوهم ﷺ لما يحييهم إذا هم يتحرشون به فى شخص ممثلهم «ابن أبى معيط» الذى خنقه يريد قتله، لولا نجدة أبى بكر الذى واجه القوم بالآية الكريمة. مشيراً إلى أنهم عكسوا الآية فحاولوا قتل رجل بلا مسوغ للقتل.

بل إذا كان ولابد من قتل فالأجدر به أولئك الآثمون. المعتدون.. لا هذا الرسول الذى جاءهم بما يحييهم.

ولا ننسى الإحساس بالضعف فى قلب ابن أبى معيط ومن ورائه الملأ من قريش.

هذا الإحساس الذى شل يده فلم يجهز عليه.. لا سيما وعصبة الشر تشكل من ورائه خط دفاع منيع.. ولولا قوة الإيمان التى شدت من أزر أبى بكر لما استطاع أن ينجيه من عصابة الشر.

ولكن الباطل لا ييأس أبدا من مناوشة الحق.. وها هم أولاء يتحينون الفرصة ليميل بعضهم على بعض هامساً. فى حركة مسرحية يظن معها أنهم يأتمرون به.. وقد ترتسم على الوجوه ابتسامة صفراء خبيثة. فى محاولات للسخرية منه ﷺ. فلعل هذه الحركة مانعة له من الاستمرار فى البلاغ.

ونلاحظ إصرار القوم على حركتهم تلك الخبيثة فيما يشبه الحصار المضروب فلا فكاك.

ويفاجئهم ﷺ بما لم يخطر لهم على بال قائلا: **«لقد جئتكم بالذبح!!»**.

---

(١) راجع البداية والنهاية.

لقد تعودوا منه الكلمة الهادئة الرقيقة.. فما هو الجديد الذى طرأ عليه فخرج به عن طبعه هذه المرة؟

لقد ظنوا أن سكوته ﷺ استسلام لهم.. وفرحوا بجمعهم القادر على السخرية بل وعلى الإيذاء دون مقاومة ـ فأراد ﷺ أن يفاجئهم بما يشبه الصدمة الكهربية.. بهذا المنطق الخشن.. حتى يفيقوا من غفلتهم ليروا أن الرجل المسالم قادر على أن ينتقم منهم. وما كان سكوته هذه المرة عن عجز. ولكنه الأمل الذى يمتد فى قلبه أن يهديهم أو يخرج من أصلابهم من يعبد الله تعالى.

ولقد نزلت الآيات تترى مندده بمسلك القوم.. مهددة بالمصير الرهيب الذى ينتظرهم جزاء ما قدمت أيديهم. وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ . وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ . فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ .هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[1].

التنكيل بالمستضعفين:

لو أن أهل مكة ترددوا فى تصديق محمد ﷺ حتى يبحثوا أمره. ويمحصوا رسالته. ويزنوا ـ على مهل ـ ما لديهم وما جاء به. لما عابهم على ذلك عاقل.

ولكنهم نفروا من الإسلام نفور المذنب من ساحة القضاء بعد ما انكشفت جريمته. وثبتت إدانته.

وقد حزن رسول الله ﷺ لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدى. ومن حق كل رجل صدوق نبيل أن يأسف ويألم إذا وجد نفسه مكذباً مهجوراً. إلا أن الله واساه. فأبان له بواطن هؤلاء المكذبين المتألبين.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2].

---

(١) سورة المطففين، الآيات من ٢٩ ـ ٣٦.

(٢) فقه السيرة للغزالى ١٠٥ والآية من سورة الأنعام: ٣٣.

ولقد كان المقصود بالتحرش برسول الله تخذيل المسلمين من ورائه حتى يفقدوا ثقتهم به. وبالتالى تهتز الدعوة الجديدة فى أنفسهم فلا تنال حظها من العناية.

فلما ثبت ﷺ. وكابر تحرشات المعتدين وانتصر عليهم. قرر المشركون تحويل الوجهة إلى المستضعفين. لعلهم أن يزحزحوهم بالاضطهاد. حتى لا يستمروا فى طاعتهم لرسول الله ﷺ: قامت كل قبيلة بتعذيب من اعتنق الإسلام من أبنائها.

إلى جانب ما كان هناك من اعتداءات فردية بلغت النهاية فى الغلظة والقسوة وفى ذلك ما يروى أنه كان لعثمان بن عفان عم ظالم غشوم.. فلما علم بإسلام عثمان قرر اضطهاده ليكسر إرادته المصممة على المضى مع الحق.. فكان يلفه فى حصير من أوراق النخيل. يدخنه من تحته.

وكان مصعب بن عمير ممن نشأوا فى النعيم.. ولما أعلن إسلامه أجاعته أمه.. ثم طردته من البيت.. فذاق وبال الجوع والتشرد. فى سبيل عقيدته التى يجب أن تحيا وإن مات هو فى سبيلها. ألا إنَّ رضا مصعب بهذا بهذا التقشف الضنك من بعد النعيم.. لدليل يفند المزاعم القائلة بأن المنفعة كانت من وراء إسلامه.. وإلا فما هى المنفعة التى حققها مصعب؟

ولم يكن بلال بأسعد حظاً من أخويه: عثمان ومصعب فإلى جانب تعذيبه بالجلوس فى حر الشمس. ثم بطرحه على ظهره لتوضع الصخرة الكبيرة على صدره.. كان سيده يسلمه إلى الصبيان ليطوفوا به فى شعاب مكة.. يجرونه بحبل وضع فى عنقه!!

ويلاحظ أن المشركين تنادوا بالتفنن فى تعذيب هذا الرعيل الأول: فإذا كان بلال قد سحب بالحبل من عنقه.. فقد شد «أبو فكيهة» برجله يسحبون به الأرض.

وعندما وفد «أبو ذر» على رسول الله ﷺ. وأسلم. قال ﷺ: «**ارجع إلى قومك فأخبرهم. حتى يأتيك أمرى**».

قال: والذى نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم. فخرج حتى أتى المسجد

فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه. وأتى «العباس» فأكب عليه قال: ويلكم. ألستم تعلموا أنه من «غفار» وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم فأنقذه منهم... ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه. وثاروا إليه. فأكب العباس عليه[1].

ومما يلفت النظر هنا أن الرسول ﷺ لم يأمره بإعلان إسلامه... ولكن شدة إيمان الرجل.. وامتلاء قلبه بحقية الدين الجديد لم يتركا له خياراً فيما يفعل.

فما هي إلا أن فاضت نفسه اعترافاً واقتناعاً بالدعوة الجديدة.. بل وصراخاً بها على مرأى ومسمع من قريش. ولقد كان يعلم سلفاً وهو غريب وحيد ذلك الثمن الذى سوف يدفعه!

إلا أنه من تدبير الله تعالى أن يصرخ فيهم أبو ذر مؤكداً للقوم أن العذاب والنكال لن يوقف المد الزاحف.. وأنه ليزيد الحقيقة اشتعالاً فى نفوس المؤمنين.

ولقد أحس المعتدون بالصغار إزاء هذه الصور الفريدة من الاحتمال.

ولا شك أن رؤيتهم لهذا الصمود رغم فداحة الثمن الذى يدفعه المؤمنون أقنعهم من الداخل أنهم جميعاً أضعف من أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

وقد كان الظن أن تستحى النَخوة العربية من التعرض لامرأة بالأذى.. ولكن الوحش المجروح راح يتخبط على غير هدى.. فجعل للمرأة المسلمة كفلا من هذا التنكيل:

كانت هناك إماء: النهدية وابنتها وأم عبيس.. فلما أسلمن وتفرغ عمر - قبل أن يسلم - لضرب إحداهن حتى إذا كلت يداه من الضرب بلا جدوى.. توقف قائلاً: إنى لم أترك إلا ملالة[2]!

آل ياسر:

وكان لآل ياسر النصيب الأوفى من التعذيب:

(١) البخارى: باب إسلام أبى ذر.

(٢) راجع الرحيق المختوم ١٠٣ وما بعدها.

كان المشركون يخرجونهم إلى الأبطح. إذا حميت الرمضاء. فيعذبونهم بحرها. وكان رسول الله ﷺ يمر بهم فيقول: «**صبراً آل ياسر. فإن موعدكم الجنة**»[1].

فأما أمه فقتلوها. وهى تأبى إلا الإسلام.

ولعلنا ندرك عمق المأساة فى عين «عمار بن ياسر» رضى الله عنه يرى أمه تقتل. وهو لا يملك لها من الأمر شيئاً.. حتى الرسول ﷺ نفسه لا يملك لها شيئاً إلا الوصية بالصبر. والوعد بالجنة.

ولئن مات أبوه «ياسر» تحت وطأة العذاب.. فقد كان مصير أمه جارحاً كعربى وكمسلم.. لكنها المبادئ العليا تكلف أربابها أن يعيشوا لها ويموتوا فى سبيلها.

ولك أن تتصور عمق البلاء هنا:

إن إنساناً يسمع اليوم كلمة تخدش حياءه. ليهب دفاعاً عن كرامته. ومن ورائه رأى عام يسانده... فإن لم يكن فالقانون ينتقم له.

أما «عمار» فإنه يرى بعينه يد الغدر تطعنها.. ويسمع بأذنيه أنينها.. ثم لا يملك لها شيئا.

بل ولا يملك الرسول ﷺ إلا الدعاء.. إن البلاء حينئذ أكبر من أن يتحمله إنسان.. ولكن «عمارا» يغالب المحنة.. ويخرج منها بعقيدته.. ولئن ودع أباه.. وودع أمه.. فإن فى بقاء عقيدته عزاء وسلوى.

إسلام حمزة:

عندما ينتفش الباطل مزهوا بما يملك من قوة وحيلة.. فإن الضربة تأتيه من حيث لا يحتسب.. فإذا هو زاهق ممرغ فى التراب.

وهذا ما حدث عندما مر أبو جهل برسول الله ﷺ ذات يوم عند «الصفا» فشتمه. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ. فانصرف عنه.

---

(١) رواه ابن إسحاق فى السيرة (١/ ٢٠٣).

وقد كان «حمزة بن عبد المطلب» على موعد مع الإسلام.. وذلك أنه سمع بما فعل أبو جهل برسول الله ﷺ. فدخل المسجد. فلما رأى أبا جهل ضربه بالقوس ضربة شجت رأسه.. وسال الدم من طاغية قريش.. معلناً هزيمته.. وليس هذا فقط.. بل كان هناك ما هو أشد على أبى جهل من هذه الضربة التى شرخت كرامته قبل أن تشق رأسه. وهو إعلان حمزة فى نفس الموقف: أتشتمه وأنا على دينه. أقول ما يقول:

أجل سكت أبو جهل. وحق له أن يسكت (لأن الصدمة فى حال النشوة تذهب بالرأى. وتوجب الدهشة والسبات. بحكم الطبيعة)[1].

وأسلم حمزة.. وكان إسلامه فاتحة خير وبركة.. وبارقة أمل عريض فى نصر الله والفتح. ومن تدبير القدر الأعلى أن يسلم حمزة.. ليكون بعد قليل فى دار الأرقم.. وليكون فى استقبال عمر حين توجه إليها وهو يريد النيل من رسول الله ﷺ.. ولعل وجود حمزة بالدار حينئذ كان قوة تصدت لعمر.. ولعلها أزاحت من نفسه آخر حجاب مانع من الهدى.. فى لحظة مخاض جاء من بعدها الفرج.. فأسلم عمر بن الخطاب.

أسماء الصحابة الذين أسلموا فى العهد السرى:

رغم ما كان من إرهاب قريش. وتنكيلهم بالمستضعفين.. إلا أن مجموعة من الشباب أعلنوا إسلامهم مع ما ينتظرهم من ضنك العيش.. والموت أحياناً:

١ ـ على بن أبى طالب: أول الفتيان إسلاماً: أسلم وهو ابن ثمان سنوات.

٢ ـ الزبير بن العوام: أسلم وهو ابن ثمان من السنين. استشهد فى واقعة الجمل سنة ٣٦ وله ٦٤ سنة.

٣ ـ طلحة بن عبيد الله: أسلم وهو ابن اثنتى عشر سنة، استشهد سنة ٣٦ وله ٦٧ سنة.

٤ ـ الأرقم بن أبى الأرقم: أسلم وهو ابن اثنتى عشر، ومات سنة ٥٥ من

---

(١) محمد عبده ـ المسلمون والإسلام.

الهجرة.

٥ - عبد الله بن مسعود: أسلم وقد قارب البلوغ، ومات سنة اثنى وثلاثين من الهجرة.

٦ - سعيد بن زيد: أسلم وهو دون العشرين، ومات سنة اثنتين وخمسين من الهجرة.

٧ - سعد بن أبى وقاص: أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة أربع وخمسين من الهجرة.

٨ - مسعود بن ربيعة: أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من الهجرة.

٩ - جعفر بن أبى طالب: أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة، استشهد بمؤته.

١٠ - صهيب الرومى: أسلم وهو دون العشرين، ومات سنة ثمان وثلاثين من الهجرة.

١١ - زيد بن حارثة: أسلم فى حدود العشرين ومات وهو ابن ٥٥ سنة فى غزوة مؤتة.

١٢ - عثمان بن عفان: أسلم فى حدود العشرين، استشهد سنة ٣٥هـ وسنه ٨٢ سنة.

١٣ - طليب بن عمير: أسلم فى حدود العشرين، استشهد فى واقعة أجنادين.

١٤ - خباب بن الأرت: أسلم فى حدود العشرين ومات وعمره ثلاث وستون سنة (مات سنة سبعة وثلاثين).

١٥ - عامر بن فهيرة: أسلم ابن ثلاث وعشرين سنة.

١٦ - مصعب بن عمير: أسلم وهو ابن أربع وعشرين سنة. استشهد فى أحد.

١٧ ـ المقداد بن الأسود: أسلم وهو ابن أربع وعشرين سنة. ومات سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة.

١٨ ـ عبد الله بن جحش: أسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة، ومات وهو ابن نيف وأربعين سنة.

١٩ ـ عمر بن الخطاب: أسلم وهو ابن ست وعشرون سنة.

٢٠ ـ أبو عبيدة بن الجراح: أسلم وهو ابن سبع وعشرين سنة، ومات وكانت سنة عند موته ثمان وخمسين سنة.

٢١ ـ عتبة بن غزوان: أسلم وهو ابن سبع وعشرين سنة ومات سنه سبع وخمسون سنة.

٢٢ ـ أبو حذيفة بن عتبة: أسلم فى حدود الثلاثين، استشهد فى وقعة اليمامة، وسنه ست وخمسون سنة.

٢٣ ـ بلال بن رباح: أسلم فى حدود الثلاثين، ومات سنة عشرين من الهجرة.

٢٤ ـ خالد بن سعيد: أسلم فى حدود الثلاثين، واستشهد يوم مرج الصفر.

٢٥ ـ عمرو بن سعيد: أسلم فى حدود الثلاثين واستشهد يوم مرح الصفر.

٢٦ ـ عياش بن أبى ربيعة: أسلم فى حدود الثلاثين ومات شهيداً سنة عشرة من الهجرة.

٢٧ ـ عامر بن ربيعة: أسلم فى حدود الثلاثين ومات سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة.

٢٨ ـ نعيم بن عبد الله: أسلم فى حدود الثلاثين ومات بمؤتة.

٢٩ ـ عثمان بن مظعون: أسلم فى حدود الثلاثين ومات فى السنة الثانية من الهجرة.

٣٠ ـ عبد الله بن مظعون: أسلم ابن سبع عشرة سنة ومات سنة ثلاثين من

الهجرة.

٣١ - قدامة بن مظعون: أسلم ابن سبع عشرة سنة، ومات سنة ستة وثلاثين من الهجرة.

٣٢ - السائب بن مظعون: أسلم فى حدود الثلاثين ومات فى السنة الرابعة من الهجرة.

٣٤ - عبد الرحمن بن عوف: أسلم فى حدود الثلاثين ومات فى سنة إحدى وثلاثين من الهجرة.

٣٥ - عمار بن ياسر: أسلم بين الثلاثين والأربعين واستشهد فى واقعة صفين سنة ٣٧ من الهجرة.

٣٦ - أبو بكر الصديق: أسلم وهو (٣٧ سنة) ومات سنة ثلاثة عشرة من الهجرة.

٣٧ - حمزة بن عبد المطلب: أسلم وهو ابن (٤٢ سنة) واستشهد فى غزوة أحد.

٣٨ - عبيده بن الحارث: أسلم وهو ابن خمسين سنة ومات بعد عودته من بدر.

٣٩ - عامر بن أبى وقاص: مات بالشام فى خلافة عمر وأسلم بعد عشرة رجال.

٤٠ - السائل بن عثمان بن مظعون: استشهد باليمامة وسنه بضع وثلاثون سنة.

---

(١) عن «مجلة الوعى الإسلامى العدد ٧٧».

الستون الأوائل الذين أعلنوا الإسلام.. كانوا من كل قطاعات مكة المكرمة.

بنو هاشم: منهم عليّ رضى الله عنه.

بنو أمية: منهم عثمان رضى الله عنه.

بنو مخزوم: منهم الأرقم وأبو سلمة رضى الله عنه.

بنو تميم: منهم أبو بكر رضى الله عنه.

بنو عدى: منهم سعيد بن زيد رضى الله عنه وفاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها.

بنو زهرة: سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

بنو سهم: خنيس بن حذافة رضى الله عنه.

بنو جمح: حاطب بن الحارث رضى الله عنه.

بنو أسد: الزبير بن العوام رضى الله عنه.

بنو عامر: أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه.

قبائل متفرقه: ومنهم صهيب الرومى رضى الله عنه.

وكان منهم ـ إلا عمر رضى الله عنه ـ العشرة المبشرون بالجنة.

وكانوا القاعدة الصلبة.. ولم يرتدّ منهم أحد.. حيث رباهم ﷺ تربية أبيّة.. عصية على الكسر!!

من عبر الإسراء

ماذا أنت صانع لو بدت أمامك الحياة كالحة الوجه عبوسا.. ثم كدرت بهمومها الملحة جدول قلبك الصافى؟

وما هو موقفك.. عندما يغدر بك صديق.. أو يزور عنك قريب.. أو توارى فى الثرى حبيباً عزيزاً لديك.. كان بالأمس أنس حياتك.. ونور عينيك؟

قد تلجأ إلى البكاء.. لكن الدموع الغزار فوق الجثمان المسجى.. لن تكون بحراً يحمله إلى شاطئ الحياة مرة أخرى..

وقد تطرق باب صديق تبثه شكواك.. لكنه مثلك.. مشغول بهموم ثقال.. ويبحث - مثلك - عن قرار!

وعندما تمضى بك آمالك فى طريق مسدود.. فإن هناك الطريق الواصل بك حتماً إلى الأمن.. والسكينة.. والقرار.. إنه الطريق إلى الله سبحانه.. الذى تشكو إليه بثك.. وحزنك.. فإذا همومك الثقال.. تساقط عن كاهلك.. كما تتساقط أوراق الأشجار أمام ريح عاصف..

وعندئذ فقط تحس بمعانى الاستعلاء.. والاعتزاز.. تصعد بك إلى أعلى.. وإذا بك فى مواجهة الأحداث خلق آخر.. مزود بطاقة جديدة تجعلك أقدر على التحكم فى مقاليد الأمور.. حين تحس بهذا التوازن فى شخصيتك فلا تذهب بها المفاجآت بدداً.. ولا تتعامل مع الناس بمزاج حاد يحاول تصفية حسابه مع الذين غدروا به.. أو عذبوه... وإنما تستقبل الغادرين بقلب مفتوح.. تهرع إليه آلام البشر فإذا به وقد وسعها حلماً وعفواً..

وفى حادث الإسراء والمعراج مصداق ما نقول:

لقد بلغ الطغيان بالكفار حده قبيل الإسراء.. واصطلحت أمور كثيرة عليه ﷺ.. لتصل به إلى أقصى ما يتصور إنسان:

١ - مات أبو طالب وهو السند الخارجى فى صراعه مع الجبارين من قريش.

٢ ـ وماتت خديجة ـ سنده الداخلى ـ وكانت نعم المواسى فى البأساء. . والمعين على أمر الله.

٣ ـ وعندما ضاق القوم به. . توجه فى صحبة أمل كبير إلى الطائف. . وقد استرضع قريباً منها. . فى بنى سعد. . لكن الأمل لم يعش طويلاً:

أ ـ أغروا به الصبيان.

ب ـ تحرش به العبيد والسفهاء. . يسخرون منه ويرمونه بالحجارة. . ولو ذات سوار لطمتنى. . لهان الأمر. . ولكن تحرش العبيد والصبيان بالغ بالحر إلى قمة الأسى على قوم لا يحترمون أبسط قواعد الذوق. . ولله تعالى حكمة هو بالغها:

ففى الوقت الذى تتخلى عنه قوى الأرض. . ويكاد ينقطع حبل الأمل فى الاستجابة لأمر الله. . حين يبلغ عذاب النفس مداه. . يكون الوقت قد حان لنقلة أخرى يرفع الله فيها عبده إلى قمة ليس وراءها وراء. . قمة يتحول فيها العذاب إلى عذوبة يرى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت. . ولا خطر على قلب بشر!

قمة تتحرر فيها الدعوة ـ فى شخصه ﷺ ـ فلا تحمل منه من أحد. . ليكون ولاؤها للحق وحده. .

وليبدأ موجهاً العالى من فوق. . من سدرة المنتهى. . رحمة مهداة. . تأخذ سبيلها إلى قلوب الناس بعون الله وحده!

ويتجه ﷺ إلى ربه داعياً: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى حق ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله**».

ورغم فداحة العذاب. . ومرارة السخرية إلا أن ذلك كله ليهون. . بل ماذا يكون. . إلى جانب رضاء الحق سبحانه؟ وأرسل الله تعالى إليه ملك الجبال

يستأذنه فى أن يطبق الله عليهم الجبلين، فقال ﷺ:

«بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»[1].

وهل هناك عقاب أشد لمن عصى الله فيك.. إلا أن تطيع الله فيه؟!

ومن ناحية أخرى فإن محمداً ﷺ لا يعمل لحساب مجد يرتقبه.. ومن ثم فلا يريد أن يصفى حسابه مع قوم سوف يخرج الله من أصلابهم.. من يتولون تأديبهم بالإسلام.. وقد حدث بالفعل: فجاء عكرمة من ظهر أبى جهل مثلاً.. وكان له دور بطولى كفر به عن سابق عدوانه على الإسلام.. وأكد الحكمة النبوية التى أمسكت على هذه النفوس الباغية.. والذين كانوا يمثلون آلام المخاض.. لميلاد جيل جديد.

نقطة تحول:

* ونستطيع بعد ذلك أن نقول إن الإسراء بهذا الإعداد الربانى كان نقطة تحول فى تاريخ الرسول ﷺ صار به خلقاً آخر.. قادراً على امتلاك المجداف.. وقيادة السفين.. إلى بر اليقين. لقد تحققت عبوديته الكاملة لربه.. وبهذه العبودية العازفة عن الانتقام.. الصارفة همة العبد عن كل ما سوى الله اقتعد الرسول قمة الحرية..

ومن هنا جاء ذكر إسرائه بوصف العبودية **﴿سبحانه الذى أسرى بعبده﴾** تسجيلاً لهذا المستوى الذى وصل إليه.

لقد كان الإسراء خطاً فاصلاً بين الشخصية المؤقتة، وبين الشخصية النبوية الخالدة العالمية، فلو كان الرسول ﷺ زعيم أمة أو قائد إقليم أو منقذ عصر، أو مؤسس مجد، لم يكن فى حاجة إلى الإسراء والمعراج.

ولم يكن فى حاجة إلى سياحة فى عالم الملكوت، ولم يكن فى حاجة إلى أن تتصل بسببه الأرض بالسماء اتصالاً جديداً.

---

(١) رواه مسلم ـ كتاب الجهاد والسير.

لقد كان له فى أرضه التى يعيش فيها، وفى محيطه الذى يكافح فيه وفى مجتمعه الذى يسعى لإسعاده غنى وسعة، لا يفكر فى غيره، ولا يتجاوز إلى رقعة أخرى من الأرض، فضلاً عن السموات العلى. . وسدرة المنتهى، وفضلا عن المسجد الأقصى الذى يبعد عن بلده بعداً كبيراً، والذى كان فى ولاية الديانة المسيحية، وحكومة الأمة الرومية القوية.

* وجاء الإسراء وأعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة والزعماء الذين لا تتجاوز مواهبهم ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التى يولدون فيها، والبيئات التى ينبعون منها.

إنما هو من جماعة الأنبياء والرسل الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق، وتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها وعهودها وأجيالها[1].

(١) أبو الحسن الندوى: السيرة النبوية: ١٦٩، ١٧٠.

الإسـراء..
وسـقوط الفـكـر المادى

تمهيد

من سمات الفكر المادى: أنه يعيش فى حدود الزمان والمكان، لا يرى أبعد من اللحظة الحاضرة ولا يؤمن بالغيب، ولا بحساب أو جزاء. وقد ترتب على هذا الانحراف رذائل نفسية، كانت حصاد هذا الفكر الخبيث: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**﴾ [الأعراف: ٥٨].

ومن هذا النكد:

١ - إن الذى لا يؤمن بغيب ولا جزاء، يبطش بمخالفيه: ﴿**وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ**﴾ [الشعراء: ١٣٠].

إن الكريـم إذا تمـكن من أذى ... جاءته أخلاق الكرام فأقعـــا

وترى اللئيم إذا تمكن من أذى ... يطغى فلا يُبقى لصلح موضعا

٢ - ثم هو والغ فى لذائذ الدنيا إلى أذنيه سادر مع بهيمية المتعة الحرام؛ من حيث كانت الدنيا همه. فليحصِّل منها ما يقدر عليه، وبأية وسيلة، قبل أن يقصف الموت عمره.. من حيث كانت الدنيا جنته ولا يريد لها انتهاء.

٣ - لا يستجيب لنداء الإنسانية الداعى إلى الوقوف مع الضعاف: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [يس: ٤٧].

٤ - والسخرية من الدعاة إلى الله تعالى وما يدعون إليه من الخير من خصائص هؤلاء الطغاة.

٥ - يواجهون الواقع بقوى جسدية محدودة، فيغلبهم الواقع فييأسون، ثم

ينتحرون.

٦ - ومن هنا كان الكفر بالغيب وبالآخرة جرثومة الخراب النفسى والاجتماعى. على ما يقول سبحانه تعقيباً على موقف هؤلاء الماديين من الدعوة: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا** ﴾ [الفرقان: ١].

أما المؤمنون فهم على ما وصفهم ربهم سبحانه:

﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [البقرة: ٣].

يؤمنو بالغيب كل الوقت... ويقيمون الصلاة أكثر الوقت... وينفقون بعض الوقت.

مما سبق يتضح الفارق البعيد بين الكفران والإيمان.. والواصل إلى درجة التناقض.. وحتمية الصدام على مختلف الجبهات: عقدية وعسكرية، واقتصادية، وثقافية.

ولقد كان الإسراء والمعراج واحداً من مواقف المواجهة بين الذين يؤمنون بالغيب، والذين ينكرونه.

كان الإسراء بمحمد ﷺ تشريفاً له، على ما يفيده التعبير بوصف العبودية لله والتى هى قمة الحرية: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ ثم هو تكليف بخوض معركة ساخنة رسم له تعالى ساحاتها.. وطبيعة العدو الذى سوف يلاقيه: أما الساحة الكبرى فهى: ﴿**لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾. [الإسراء :١] وأما العدو فهو بنو إسرائيل: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: ٤].

العدو الحقيقى لحركات الإصلاح هم بنو إسرائيل الذين نصت عليهم الآية الكريمة دون غيرهم من الأجناس. ولهذا نظير فى سورة المائدة: فبعد أن تكلمت الآيات عن نبأ ابنى آدم بالحق، وما آل إليه الأمر من فساد نشأ عن قتل الأخ أخاه. قال الحق سبحانه بعد القصة مباشرة: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن**

﴿قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فقد ذكر بنى إسرائيل دون النصارى. إشارة إلى كمون بذرة الشر فى أنفسهم بما يفوق غيرهم.

ولو أنك تأملت آيات القرآن التى تحكى المواقف المشتركة لليهود والنصارى من الدعوة الإسلامية لراعك تقدم اليهود فى الذكر. وما يشير إليه من عراقتهم فى باب الإفساد: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] وفى تحذيرنا من أهل الكتاب يبدأ باليهود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. ثم إنهم أدخل فى باب العداوة حتى من المشركين وقد كان الظن أن يكون اليهود معنا عليهم. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] يقول الحق سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ولقد كان الإسراء صعوداً به ﷺ ورفعه، بما نطق به من قول طيب، وما قام به من عمل صالح: وذلك ما يتكفل ببيانه آخر آيات سورة النحل السابقة على سورة الإسراء.

«الفكر المادى يسقط أمام اليقين الذى لا يضطرب».

أما القول الطيب، فهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] ومن حكمته ﷺ قوله: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» «اللهم اهدهم دوما» وذلك فى مقابل ما تبجحوا به مما حكاه القرآن الكريم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وأما العمل الصالح فمنه ما إشار إليه تعالى آخر سورة النحل أيضاً: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨] ولقد كان حمزة فى حياته ﷺ شيئاً بالغ الأهمية.. فلما مُثِّلَ به فى أُحد، وثارت فى قلبه الشريف انفعالات الغضب وإرادة العقاب حفظ الله تعالى قلبه بهذا التوجيه الذى وقف به على سواء الصراط: ومن أجل استجماعه ﷺ لعنصرى الرفعة والصعود، كان الإسراء تتويجاً لقوله الطيب. وعمله الصالح ومن ثم كانت الإسراء بعد ذلك مباشرة. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

والعجب أن سورة النحل مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية وهى قوله تعالى: ﴿وإن عاقبتم﴾ ومعنى ذلك أن موضع هذه الآيات الثلاث ظل خالياً إلى أن هاجر ﷺ إلى المدينة المنورة، فلما نزلت وضعت فى مكانها..

ثم تقرأ أنت السورة إلى آخرها فلا تحس بفجوة، ولا نَبْوة، وإنما هو التلاحم العضوى بين الآيات الكريمة، والتى تنتقل بها من حسن اللفظ فى الآية ١٢٥ المكية.. إلى حسن العمل ابتداء من الآية ١٢٦ المدنية. وسبحان من هذا كلامه. وعندما أخبرهم الرسول ﷺ بأمر الرحلة حسبوها فرصة مواتية لضرب الدعوة فى صميمها. ومن ثم اتجهوا إلى ساعده الأيمن، أبى بكر رضى الله عنه فأخبروه بما يقوله محمد ﷺ وكانت المفاجأة أن قال لهم الصديق: إن كان قال: فقد صدق! يكفى أن يقول. أما قضية تصديقه فى كل ما يقول فهى محسومة سلفاً!

وإذا كان أبو بكر رضى الله عنه يصدقه فيما هو أبعد من ذلك، فى خبر السماء. أفلا يصدقه فى خبر الأرض.

وسقط الفكر المادى أمام اليقين الذى تضطرب الجبال ولا يضطرب.. وتميد الأرض.. ويبقى هو ثابتاً لا يحول:

بالاهتداء بما شرع القرآن الكريم من قول طيب وعمل صالح.. ثم الاقتداء برسول الله ﷺ وما تحلى به من خلال واجه بها اليهود فانتصر عليهم: وقد اتفق علماء الاجتماع: أن أسس الأخلاق أربعة هى: الحكمة - والعفة. والشجاعة. والعدالة. ويقابلها رذائل أربعة هى: الجهل. والشره. والجبن.

والجور. ويتفرع عن كل فضيلة فروعها. عن الحكمة: الذكاء. وسهولة الفهم. وسعة العلم. وعن العفة: القناعة. والورع. والحياء. والسخاء. والدعة والصبر والحرية. وعن الشجاعة: النجدة. وعظم الهمة. أما العدالة وهى أم الفضائل الأخلاقية فيتفرع عنها: الصداقة. والألفة. وصلة الرحم. وترك الحقد. ومكافأة الشر بالخير. واستعمال اللطف. فهذه أصول الأخلاق وفروعها. فلم تبق خصلة منها إلا وهى مكتملة فيه ﷺ فعلاً وعقلاً.

ولنواجه اليهود بهذه العدة كما فعل ﷺ . . ونحن على يقين من النصر. . إلى جانب ما تشير إليه طبيعة اليهودى وهو الجبن.

أ ـ فهو أحرص الناس على حياة، أية حياة. ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (البقرة: ٩٦).

ب ـ وهم لا ينتصرون إلا ﴿ **بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١١٢).

ج ـ ولا يتحقق لهم النصر أحياناً لشجاعة فيهم بل بما كسبت أيدينا نحن: جاء فى سفر التثنية إصحاح ٩: [ويقول الله: لأجل إثم هذه الشعوب يطردهم الرب لأجل إثم هؤلاء يا إسرائيل ليس لأجل برك. وعدالة قلبك تدخل تتملك أرضهم. بل لأجل إثم هؤلاء الشعوب يطردهم الرب! إلهك من أمامك].

أهمية الاستعداد:

أراد عربى أن يستضيف «موشى ديان» ورفض الابن الشاب هذه الفكرة بإباء. ولكن الأب انتصر على ولده. وقد نفس الابن المكروب عن حزنه فقال لديان: إننا سنقاتلكم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودى من خلفى. . فاقتله. . كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ . موشى ديان: مستحيل هذا. . ما دمنا نحن نحن. . وأنتم أنتم! ومع صحة منطق الشاب الذى ينذر «ديان» بغضبة الجمادات التى سوف تقف إلى جانبنا بأمر الله فى معركة فاصلة. فإن منطق «ديان» صحيح أيضاً. . لأنه يكشف عن العلة الدفينة التى تؤخر هذا الانتصار المحتوم. . إن حكم الشاب صحيح. . ولكن الحكمة تقضى بالإعداد للمعركة الفاصلة.

إن القرآن الكريم جعل من قصة قتل داود جالوت إجابة عن هذا السؤال الذى يحمّل الأمة اليوم مسؤولية الاستعداد للنصر بعدة هذا النصر . .

يقول سبحانه :

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (البقرة ٢٥٠ ، ٢٥١) .

(وداود كان فتى صغيراً من بنى إسرائيل . . وجالوت كان ملكاً قوياً مخوفاً . ولكن الله شاء أن يُرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجرى بظواهرها . إنما تجرى بحقائقها . . وحقائقها يعلمها هو ومقاديرها فى يده وحده . فليس عليهم إلا أن ينهضوا بواجبهم . ويفوا الله بعهدهم ثم يكون ما يريده الله تعالى . . بالشكل الذى يريده)[1] .

ولقد شاءت إرادة الله تعالى أن يجدد الأمل فى نصر قريب ، على يد أبطال الانتفاضة فى الأرض المحتلة ، والتى كان من ثمارها آلاف الشهداء معظمهم بين سن الخامسة والخامسة عشر . . وهى الانتفاضة المعبرة عن عزة المسلم القائل :

شخوص الفتى عن منزل الضيم واجب ... وإن كان فيــه أهلــه والأقارب

وللحر أهـــل إن نـــأى عنه أهلـــه ... وجانب عز إن نأى عنه جانب

ومـــن يرض دار الضيـــم داراً لنفســه ... فذلك فى دعوى التوكل كاذب

---

(١) فى ظلال القرآن .

من وحى الإسراء

* إذا كان الإسراء نقطة تحول خطير.. انتقل بها الإسلام من موقف الدفاع إلى الهجوم.. فقد كان طبيعياً أن يسلح الله تعالى أمة الإسلام بعدة ذلك الهجوم.. بما كشف لنبيه ﷺ من مشاهد العصاة والطائعين.. فراراً من شؤم المعصية إلى عز الطاعة.. إعداداً لأمة لا تنتصر بعدة ولا بعدد.. بقدر ما تنتصر بطاعة ربها عز وجل.. على ما يشير إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالة بعث بها إلى واحد من قواده: «أخوف ما أخاف عليكم ذنوبكم».

نقطة الانطلاق:

* عرض جبريل عليه السلام على محمد ﷺ إناءين: من لبن وخمر.

فاختار اللبن لأنه: سهل، طيب، سائغ للشاربين، سليم العاقبة، بخلاف الخمر فإنها مفسدة للمرء أى مفسدة: إنها تفسد العقل، وتذهب بالعافية، إلى جانب إتلافها للمال، وما يترتب على ذلك كله من تفريط فى العرض، وحين يغفو الضمير، وتنام الإرادة.. فإن اللصوص يعبثون فى حقل نام صاحبه!

ومعنى هذا الاختيار: لفت نظر الأمة إلى ما به صلاحها.. وما به فسادها.. لتستصفى من الزاد ما ينمى عناصر العافية فى كيانها.. بقدر ما تنأى عن السموم المدمرة لكيانها المادى والمعنوى، ولتدرك الأمة أن المعاصى باب من أبواب الفتنة يمكن أن يفتح عليها.. وعليها أن تكون على حذر!

ولقد فهم الأعداء الدرس:

عندما وصل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس.. قُدِّم إليه خمر.. وجارية. فقال: إن الخمر تنقص عافيتى وأنا فى حاجة إلى ما يزيدها.. نحُّوها.. لا حاجة لى بها.

أما الجارية فلو شغلتنى عن الجهاد.. ضيَّعت دينى.. ولو شغلنى الجهاد عنها أضعت حقّها!.. لا حاجة لى بها.

وإذا كنا نعتز بهذا المثل الذى يضربه قائدٌ حريص على الاحتفاظ بلياقته العسكرية والدينية. . فإننا لا ننسى تحية الضيف هذا. . والتى دبرتها عقول تريد هزيمة الأمة من داخلها. . وفى شخص قائدها. . عن طريق: الخمر. . والجنس.

لقد رأوا فى الجندى المسلم صقراً خفاق الجناح. . وأسداً مقداماً لا يتراجع. . فقرروا كما يقول (إقبال).

[تربية فراخ الصقور.. تربية بغاث الطيور].

وإذا نجا عبد الرحمن الداخل. . وظل صقراً طليقاً. . لم يقيده الشرك المنصوب. . فإن الأعداء لم ييأسوا. . وما زالت الحمل مستمرة.

وهنا نتساءل عن أبعاد المؤامرة:

ما هى أسباب انهيار حضارتى اليونان والرومان؟. . ما أسباب انهيار البابليين والآشوريين فى العراق؟ وانهيار الفراعنة فى مصر؟ وما أسباب انهيار دولة العرب فى الأندلس. . والعباسيين فى مصر والعراق؟ الجواب: إنه الترف المردى!!

قدم الكوفة يوماً أحد الفرس من خراسان. . وكان قد شهد بلده يستسلم للفاتحين المسلمين. . ورأى الرجل الفارسى أبناء أولئك الفاتحين يعيشون عيشة ناعمة مترفة. . اتخذوا الدور والقصور. . والجوارى. . فقال متعجباً: «أنتم فتحتم بلدى؟!».

إن صورة الرجال الأشداء على الكفار. . الرحماء بينهم. . راحت ليحلَّ محلَّها خَلفٌ ألهاهم التكاثر والتفاخر. . ولم يصل الخلف إلى هذا الدرَّك إلا طبق الخطة التى وضعها أعداؤنا.

جاء فى (البروتوكول) الثالث عشر من (بروتوكولات حكماء صهيون): «لكى نصرف الجمهور المزعج عن مناقشة الأمور السياسية نجىء إليه بما ندعيه أنه الجديد المختار فى الصناعة. . وما إليها. . وندعه يخوض فى هذا ويسبح ما يشاء. . ولكى تبقى الجماهير فى ضلال. . سنعمل على زيادة صرف أذهانهم بإنشاء وسائل المباهج والمسليات. . والألعاب الفكهة. . وضروب وأشكال الرياضة واللهو. . وما

به الإثارة لملذاتها وشهواتها.. والإكثار من القصور والمبانى المزركشة».

وقد كان لهم تركيز خاص على القيادات الدينية والعسكرية.. بغية إسقاط هيبتهم.. وهو ما أشار إليه (البروتوكول) السابع عشر:

«لقد بذلنا جهداً كبيراً لإسقاط هيبة رجال الدين عند غير اليهود.. وقصدنا بذلك أن نفسد عليهم رسالتهم فى الأرض.. وهى الرسالة التى لا تزال بنفوذها عقبة كؤودا فى طريقنا.. وهذا النفوذ فى تناقض مستمر يوماً بعد يوم».

بَيْنَ شقى الرحى:

وفى سبيل الوصول إلى هذه الغاية.. دبرت الخطة على أساس الترويج للخمر.. والمخدرات بكل أشكالها.. ثم بإباحة وإشاعة الفاحشة.. وبذلك تكون قد وضعت الأمة بين شقى الرحى.

ونقرأ عن التجربة فى المجتمعات المادية فنرى: أنها أباحت الجنس.. وأرخصت ثمن الخمر لتكون متاحة إلى درجة الإباحة.. ورأينا المكر المبيت يلجأ إلى خداع الأسماء.. لقد سمى الربا.. فائدة.. فى دنيا البنوك.. وأطلق الفن.. وأراد به الرقص.. ثم.. سمي الخمر مشروباً روحياً.. إغراء به وحضاً عليه.. تماماً كما أطلقوا على التدين رجعية.. وسموا كل حركة تتصدى لمؤامرتهم طائفية!

وذلك فى حركة إعلامية تشكل غطاء جوياً بما يدعم تحركهم المشبوه لتدمير قوى الأمة الإسلامية.

الجنس:

وقد كان القدح المعلى للجنس الذى استغله الأعداء استغلالاً سيئاً.. قال العماد الأصفهانى فى كتابه (الفتح القدسى): «وصلت فى مركب للصليبيين ٣٠٠ امرأة للإغراء والإغواء.. ومضى العماد يذكر ماذا كان يفعل أولئك النسوة فى استغواء الأغرار.. واسترقاق الأخيار.. واستلاب الأنفس».

وعندما قدمت جيوش الغزاة لتحتل لبنان وسوريا عام ١٩٢٠م.. كانت مع الجيش باخرة مليئة بالبغايا! فقيل للقائد: واجب الجيش المقاتل مفهوم.. فما فائدة

الجيش الآخر؟ فقال: «إن أثر هذا الجيش الآخر أعظم من الجيش المقاتل»!

لقد حاول المستعمر بهذا الأسلوب الماكر أن يستنوق الجمل.. ويطفو على السطح جيل هزيل ينوب عنه فى قيادة الأمة إلى الهلاك.. فرَّق ليسود. وجزَّأ ليحكم وشجع التفسخ الخلقى وتظاهر بهذا التفسخ ليقتبس العبيد أخلاق السادة.. وأعطى المتفسخين ومنع الملتزمين.. وقدم الإمعات وأخر الثقات.. واستصفى الجبناء واستبعد الأقوياء.. وصافى الجواسيس وجافى الشرفاء.

وإذا كان عجيباً أن تتشبه النساء بالرجال.. فأعجب منه تشبه الرجال بالنساء.. على ما يقول الشاعر:

وما عجبٌ أنَّ النساء ترجَّلتْ ولكن تأنيث الرجل عُجابُ!

ويبقى بعد ذلك أن نعتبر.. وأن تتفتح منا الأعين على حقيقة ما يراد بنا.. ولتكن ذكرى الإسراء والمعراج بداية هجوم مضاد يستهدف حماية الأمة من مؤامرات أعدائها.. ورد كيدها إلى نحورها: لقد كان أسامة بن زيد تحت سن العشرين ومع ذلك فقد كان قائد جيش عظيم.. ومحمد بن القاسم الثقفى دق أبواب الصين وهو تحت العشرين أيضاً.

ونحن مطالبون بإعداد هذه النماذج الفريدة نجدد بها شباب أمتنا.. ونفرّ بها مما يراد بها..

وفى قصة الإسراء فرصة يتم فى ضوئها ذلك الإعداد.. أسوة برسول الله ﷺ.. والذى كان على ما يقول الشاعر:

يبنى الرجال وغيره يبنى القرى شتان بين قرىً وبين رِجَالِ

الإسراء، ودرس للدعاة

ربما ضقت يوماً برئيسك فى العمل.. فعدت إلى بيتك كاسف البال. قليل الرجاء، ويبدأ الخوف من المستقبل يزجى فى سماء حياتك سحباً داكنة: حقك فى الترقية. حقك فى العلاوة! نصيبك من الحوافز.. مركزك بين زملائك الذى يترنح حين يزورُّ عنك رئيسك، كل أولئك يسد عليك منافذ الأمل فى المستقبل. ويفسد

هذا القلق مذاق الحياة. فيشوش على عقلك الذى يصبح فى هذا الجو المعتم عاجزاً عن اتخاذ قرار سليم:

وقد يكون لك مع ذلك زوجة وفيّة تحاول أن تخفف عن آلامك. وربما كان لك عم، وخال، وأبناء عم وخال، وعشيرة تحوطك وتستوعب معك همومك ولكن ذلك كله لا يخفف من حدة القلق الذى يسد عليك الأفق.

وربما حاولت أن تتنازل عن شىء من كرامتك لرئيسك، ثمناً لنظرة منه تنتزعك من تمزق يوشك أن ينهى حياتك، وهكذا يفعل الرعب من شخص واحد فقط، لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!

فما بالك برجل وقفت الدنيا كلها ضده..؟ ولم يكن مهدداً فى رزقه ولا درجته، بيد أنه كان مهدداً بإنهاء حياته برمتها، ولم تكن له زوجة تؤنسه فإذا راح يلتمس النصرة لدى عمه وخاله وابن عمه ،خاله وجد الكل على ما يقول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم خده　　　وليس إلى داعى الندى بسريع

ضغوط ثقيلة:

وكذلك كان محمد ﷺ قبيل الإسراء والمعراج، بل إن المأساة ـ مأساة الإنسان حينئذ ـ لم تقف عند هذا الحد، فقد كانت لها أبعاد أخرى:

أ ـ لقد ذهب إلى الطائف سيراً على الأقدام، ذاهباً آيباً فى رحلة طولها أكثر من مائة ميل.

ب ـ وحين رجا «ثقيفاً» أن تكتم سر وصوله إلى الطائف. حذر تصعيد قريش لإيذائها. لم تفعل وأغرت به قريشاً بل أغرت به الصبيان!

ويا لها من مأساة تجل عن العزاء حين يتخذ المترفون رجال الدعوة هزواً ولعباً.

جـ ـ لما بدأ يعرض نفسه على القبائل كان معه محطة تشويش دائمة فى شخص «أبى لهب» الذى كان يتبعه فى رحلته مكذباً مؤلباً.

د ـ وحين يضرب أصحابه كأبى بكر وأبى ذر ضرباً يشارف الموت. وحين يرى الشهيدة أم عمار تسقط من وقع السياط لم يستطع أن يفعل شيئاً.

هـ ـ وما رأيك فى نفس الحر حين تحس بمشاعر الإشفاق تحرجه وتضعه فى موقف لا يحسد عليه؟ وقد أحس بها ﷺ مرتين.

الأولى: عندما رمته قريش بالأقذار وهم منه يضحكون وابن مسعود شاهد عيان ولكنه لا يملك شيئاً ويمضى رجل ليبلغ فاطمة ابنته! ماذا تفعل فاطمة.. البنت الضعيفة.. بعد ما يجمد ابن مسعود فى مكانه؟..!

وجاءت فاطمة فألقت الأقذار من فوق أبيها، وإنه لمشهد يفرض على القلوب الكبيرة أن تنزف دماً، لا سيما وهو يحدث فى بيئة عربية شيمتها النخوة.. والمفروض فيها أن تكون المرأة محمية.. لا حامية؟

لقد مضت مكة فى طريق الكفر حتى أوغلت فيه، وبلغت نهايته. فهى الآن تستمرئ تلويث الساجدين بالأقذار، وتتمايل ـ ضحكاً ـ من منظر الأنجاس وهى تسيل على كتفى المصلى، ولم يبق فى هذه القلوب مكان لذرة من الخير، والبنت ـ فى المجتمع العربى ـ تعيش فى كنف أبيها وتفخر بقوته وتأنس بحمايته ـ ولكنها اليوم.. تحميه!

فما يحز فى قلب الرجل أن يرى نفسه فى موضع تدافع عنه ابنته... وتشعر بالعجز وقلة الناصر، وقد كظم محمد ﷺ أمله وتحمل فى ذات الله ما لقى.

الثانية: لما عاد من الطائف أرسل إلى المطعم بن عدى يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه. ومع أن المطعم قام مع بنيه بما تفرضه النخوة العربية على أهلها. إلا أنه قد بقى فى الموقف بقية من الإحراج يحسها الحر وإلى جانب ذلك كله.. كانت هناك حملة دعائية مغرضة تحاول إلقاء ظلال من الشك على دعوته. وهو الدور الذى تحمل كبره أبو جهل الذى تساءل ساخراً على الملأ:

(لم لم تنزل الملائكة لحفظه؟ وكيف يحتاج نبى إلى جوار؟! وحتى اليهود. وهم أهل كتاب تنكروا لفطرتهم ووقفوا إلى جانب المشركين يؤازرونهم على من سبق أن بشروا به نبياً ورسولاً، إنهم مستعدون للتحالف حتى مع الشيطان ضد

محمد ﷺ . وهكذا أملى لهم حقدهم الدفين ووصل الأمر إلى الإغراء إغراء قريش بإحراج رسول الله ﷺ عن طريق أسئلة ربما كشفت أمره بما يحقق أمل هذا التحالف الباغى بين اليهود والوثنية)!

هذه بعض الضغوط التى أثقلت كاهل الداعية الأول ﷺ فما وهن ولا ضعف ولا استكان ومضى على ما يقول الشاعر:

ما كنتُ من نفسى على خور	أو كنت من دربى على ريبَ
مـا فـى المنايا مـا أحـاذره	الله مـلء القصـد والأرب

بل إن الأمر لم يقف عند حل التحمل كما يقول الشاعر لقد وقف فى محنته تلك بكل صحته النفسية وظل محتفظاً بملكاته فى إشرافها ونصوعها. وبينما يتنادى الآثمون من كل فج بقرب نهايته.. كانت له بصيرة كاشفة رأت على ضوء الحوادث صورة المستقبل وقد تخلص من هؤلاء الأعداء جميعاً. ليبقى هو والذين آمنوا معه فوق القمة العالية. فقد روى ابن جبير:

(... وأما أنت يا أبا جهل.. **فوالله لا يأتى عليك غير بعيد حتى تضحك** قليلاً وتبكى كثيراً.

وأما أنتم يا معشر قريش.. **فوالله لا يأتى عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما** تنكرون).

وقد صار الأمر على ما أمّله الرسول ﷺ .

وبعد أن حدد الرسول ﷺ موقفه من الحياة والأحياء عُلوًا برسالته. واستهانه بمكر الماكرين. اتجه إلى الله وحده ليأخذ بيده:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى، وهوانى على الناس أنت أرحم الراحمين. وأنت رب المستضعفين وأنت ربى. إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى، أم إلى عدو ملكته أمرى، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علىّ غضبك، أو أن ينزل بى سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

إنه يشكو إلى الله وحده ولا يشكو إلى أحد سواه. وإذا كان قانون البشر أنه: ولابد من شكوى إلى ذى مروءة؟ يسليك أو ينجيك أو يتوجع... فإن محمداً ﷺ كان يتعامل مع الناس بالقانون الإلهى الضارب عرض الحائط بكل قوى الأرض جميعاً. وإذا رأى العذاب من الناس فإنه لا يشكوهم إلا إلى الله دائماً يشكو ضعفه وهوانه عليهم. ليتجلى عليه برحمته سبحانه ليؤمنوا. وتلك قضيته.

ثم هو ﷺ لم يشكُ إلى «المطعم بن عدى» بل إن مطعماً سلاح من أسلحة القدر يعده الحق سبحانه لإعزاز دينه. وهو فرع من شجرة قريش يهز ضميرها بما صنع من جوار.

سلم.. إلى السماء:

ومعنى ذلك كله أن محمداً عليه الصلاة والسلام بلغ القمة فى عبوديته لمولاه تعالى:

أ - بالتقوى التى تعصمه من الجزع فى خضم المحنة وتسلحه بالصبر والمصابرة.. يكابر بهما الأعداء فلا تلين له أمامهم قناة.

ثم بما منحته التقوى من بصيرة كاشفة. وقفت به على مكر القوم وعلى كثرتهم فإذا هم لا شىء.. وعلى قوته وحوله. فإذا هو بالله قوى إزاءهم جميعاً.

ب - بالإحسان الذى صفى نفسه فما جاشت بخواطر الانتقام ممن نكلوا به ولم يقابل سيئة بالسيئة عدلاً. ولما جاءه ملك الجبال يستأذنه فى أن يطبق عليهم الجبلين قال له رسول الله ﷺ:

«بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[1]!

وبالتقوى.. والإحسان معاً. استجمع خصائص الداعية كما يجب أن يكون.. واستنزل بها رحمة ربه ومعيته سبحانه..

وهذا بعض ما نفهمه من مجىء قوله تعالى؛ **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾** بعد آخر سورة النحل مباشرة ليكون النسق القرآنى هكذا:

---

(١) من مقال للدكتور أحمد أبو المجد والحديث سبق تخريجه.

﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون سبحان الذي أسرى ﴾!

لقد جاء الإسراء ضيافة من الحق تعالى. تتويجاً لهذا الكفاح فى سبيل الدعوة وهو درس للدعاة حتى لا يقنطوا من رحمة الله.. وحتى يعدوا أنفسهم للنضال بسلاحيه: التقوى.. والإحسان.. ليكون لهم من الله عون يطأون به جباه الطغاة!

العبودية.. قمة الحرية:

أما لماذا اختار الحق سبحانه كلمة: (بعبده) على «رسوله» مثلاً.. فلأن أشرف ما يوصف به الإنسان أن يكون عبداً لله تعالى على هذا المثال الرائع فى حياته ﷺ.. لأنه حينئذ يكون ـ بالعبودية ـ متحرراً من كل قيد. ومن ثم.. سيداً للحياة كلها.. إن العبودية للحق سبحانه تعنى الحرية أكمل ما تكون الحرية. ومن بذرتها تنبثق أزهار.. وتسمق فروع.. تظلل المجتمع كله.

(وحين تكون الحرية هى القيمة العليا وتكون الشورى الصادقة هى النظام. وسيادة الشريعة هى مظهر الدولة. فإن شياطين الأخلاق تولى هاربة وتتسارع إلى

ساحة النفس والمجتمع أخلاق الحرية. فى موكب مهيب على رأسه: الشجاعة.. والصدق والأمانة والوفاء.

ومن حولهم جميعاً: الرحمة والعدل.. ويعود الفرد إنساناً سوياً يستمع إليه إذا قال: وتحفظ كرامته فى كل حال. ويُعطى نصيبه المفروض من المشورة والعدل حين يكون محكوماً ويُوقَّر ويهاب ويُعطى نصيبه المشروع من الوفاء والولاء والسمع والطاعة فى المعروف حين يكون حاكماً)!

وما أسعد المجتمع عندما تشيع فيه روع العبودية لله تعالى. وحين يتحرر الفرد من عبوديته لينطلق فاراً إلى الله بولائه ووفائه. فإن الرخاء يظلل الحياة وتقوى الروابط الاجتماعية لتعود فى النهاية بركة على الفرد والمجتمع.

الهجرة إلى الحبشة

تمهيد:

فى السنة الخامسة للهجرة اشتدت وطأة المشركين على المسلمين. وكأنما صار المستضعفون مسلاة فى يد الطغاة يلهون بها. وإذا وجد الرسول ﷺ من يحميه من الكيد.. فإنَّه لم يكن يملك لهؤلاء المستضعفين إلا الدعاء بالخلاص. والبشارة بالجنة جزاء صبرهم الجميل.

وتبقى الدعوة فى مكة متعثرة محاصرة لا أمل حينئذ فى إحرازها نصر يخرج بها من هذا العذاب المضروب عليها.. فكان لابد من الهجرة إلى أن يأذن الله تعالى بعودة الدعوة مرة أخرى متوجة بأكاليل النصر المبين.

الإعداد للهجرة:

وقبل الشروع فى الهجرة كان هناك إعداد إلهى للمسلمين.. ليتقبلوا فكرة الهجرة أولا.. ثم ليصبروا على مشاقها ثانياً.

فقد نزلت سورة الكهف مفصلة هجرة الفتية الذين هاجروا بعقيدتهم من الوثنية المتحكمة.. مخافة أن يفتنهم قومهم عن دينهم.

يقول سبحانه: ﴿ **وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا** ﴾[1].

ثم ما كان من قصة الخضر مع موسى عليه السلام.. وما تشير إليه من غلبة الشر أحيانا فى ظاهر الأمر.. إلا أن الأمور لا تجرى على الظاهر.. والعبرة بالخواتيم.

وإذن.. فعلى المسلمين المضطهدين فى مكة أن يعوا هذه الدروس.. موقنين بأنهم فى الهجرة.. ليسوا على الطريق وحدهم.. وإنما سبقهم إليها أصحاب الكهف.. الذين هاجروا فى سبيل الله.. فنجوا بعقيدتهم من كيد الكائدين..

---

(١) سورة الكهف، آية: ١٦.

ولكنَّ الرياح لم تكن على ما يشتهى المشركون.. بل كان النصير فى النهاية حليف المؤمنين.

وكما تشير قصة «ذى القرنين» أيضاً إلى أن الله تعالى لا يترك الظالمين يتحكمون فى مصير المؤمنين دائماً.. ولكن اقتضت رحمته أن يبعث إليهم من ينقذهم.. ثم يورث الأرض للصالحين بعد أن يدمر ما كان يصنع الظالمون.

ثم نزلت سورة الزمر وفيها:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1].

لماذا كانت الهجرة إلى الحبشة؟:

كانت الحبشة أرض صدق ووفاء.. تحسن استقبال الغرباء.. وسبب ذلك وجود ملك راشد واسع الأفق.. يصرف أمورها بالحكمة والعدل.. فلا يظلم عنده أحد.

وقبل أن نستمع إلى قصة هذه الهجرة من أم سلمة رضى الله عنها نشير إلى أنه كان من بين المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته «رقية» بنت الرسول ﷺ.. وقد قال فيهما رسول الله ﷺ:

«إنهما أول بيت هاجر فى سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام»[2].

وهذا يعنى أن أحدا من الصحابة لم يكن ينجو من الاضطهاد. حتى الرسول ﷺ وآل بيته.

وأن الهجرة كانت قدر الجميع بلا استثناء.

من مقاصد الهجرة إلى الحبشة:

وقد لخص المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون مقاصد هذه الهجرة فى أمور منها[1]:

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ النجدى: ٩ ـ ٩٣ من الرحيق المختوم.

١ ـ البعد عن مواطن الفتنة فى الدين للذين لا يستطيعون رد الاعتداء عليهم.

٢ ـ البعد عن كل ما يثير العراقيل أمام الدعوة. . وقد كان بعض الصحابة لا يطيق صبراً على ما يلاقيه من أذى مثل سعد بن أبى وقاص الذى ضرب مشركاً فشج رأسه فى ظروف لا تمكن المسلمين من حماية سعد رضى الله عنه وأمثاله. . والأوفق بالدعوة أن تهاجر إلى أن تكتمل العدة.

٣ ـ تخفيف الأزمات النفسية التى كان يحس بها رسول الله ﷺ كلما شاهد مسلماً يهان أو يعذب. وحتى يتفرغ للدعوة فى ظروف نفسية مواتية.

وإذن (فكان من أحكم التدبير. وحكمة السياسة أن يفتح ﷺ لأصحابه باب الهجرة حتى يجدوا لأنفسهم متنفسا فى حركاتهم وهم آمنون على أنفسهم. يعبدون ربهم وهم مطمئنون، لا يهيجهم أمر، ولا يفزعهم شىء.

ولا شك أن هذا لون من ألوان السياسة فى تبليغ الدعوة: بدأ هامساً. فلما حرك تحرك معبراً أصدق تعبير عن هداية الإسلام فى أعظم محفل من محافل الحوار. . الذى هيأ الله له أسبابه وعوامله ودوافعه)[٢].

قصة الهجرة إلى الحبشة

قال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن مسلم الزهرى عن أبى بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى عن أم سلمة بنت أبى أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ قال:

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار، النجاشى أمننا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشى فينا رجلين منهم جلدين وأن يهدوا النجاشى هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم يعنى الجلد فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبى

---

(١) محمد رسول الله ﷺ ١٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص١٣.

ربيعة وعمرو بن العاص وكانا لم يسلما بعد وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم ثم قدما إلى النجاشى هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت أم سلمة: فخرجا حتى قدما إلى النجاشى ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشى وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضوى جاء إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلم بهم منا يعرفون ما لا يعرفون هم وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما أى البطارقة: نعم قالت أم سلمة ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشى فقبلها منهما ثم كلماه فقالا له:

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلم بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت أم سلمة ولم يكن شىء أبغض إلى عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلام المهاجرين النجاشى.

فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت أم سلمة غضب النجاشى ثم قال لا والله إذن لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى..

قالت أم سلمة: ثم أرسل أى النجاشى إلى أصحاب رسول الله ﷺ

فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا أى الصحابة ثم قال بعضهم لبعض: «**ما تقولون للرجل إذا جئتموه**»؟

قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً فى ذلك ما هو كائن.

فلما جاءوا، وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذى قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه البلاد؟

قالت أم سلمة: فكان الذى كلمه جعفر بن أبى طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت أم سلمة: فعدد عليه ـ أى جعفر ـ أمور الإسلام وقال جعفر: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت أم سلمة: فقال له النجاشى: هل معك مما جاء به «أى النبى» عن الله من شىء؟

قالت أم سلمة: فقال له جعفر: نعم... فقال له له النجاشى: فاقرأه علىّ.

قالت أم سلمة: فقرأ عليه صدراً من سورة مريم.

قالت: فبكى والله النجاشى حتى ابتلت لحيته «أى ابتلت بدموعه» وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال له النجاشى: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ووجه النجاشى حديثه إلى رسولى قريش قائلا: انطلقا فلا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

قالت أم سلمة: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً لأحدثه عنهم بما استأصل خضراءهم يعنى شجرة أصولهم.

قالت: فقال له عبد الله بن أبى ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال عمرو: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد «يعنى عبد الله».

قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم عما يقولون فيه.

قالت أم سلمة: فأرسل إليهم ليسألهم عنه:

قالت: ولم ينزل بنا مثلهما قط. فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض:

ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه:

قالوا نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا كائناً فى ذلك ما هو كائن.

قالت أم سلمة: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون فى عيسى ابن مريم؟

فقال جعفر بن أبى طالب: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ يقول: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

قالت أم سلمة: فضرب النجاشى بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا «يعنى تجاوز» عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود.

قالت أم سلمة: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال.

فقال النجاشى: وإن نخرتم والله.. ووجه حديثه إلى المهاجرين قائلاً اذهبوا فأنتم شيوم «آمنون» بأرضى من سبكم غرم ثم قال: من سبكم غرم ثم قال: من سبكم غرم ما أحب أن لى دبراً «يعنى جبلاً» من ذهب وإنى آذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام: ويقال دبراً من ذهب ويقال: فأنتم شيوم. والدبر (بلسان الحبشة): الجبل. ردوا عليهما «أى على رسولى قريش» هداياهما فلا حاجة لى بها فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حتى رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

ومؤامرة على النجاشى:

قالت أم سلمة: فوالله إنَّا لعلى ذلك إذا نزل به «أى النجاشى» رجل من الحبشة ينازعه فى ملكه.

قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ـ أى ينتصر ـ ذلك الرجل على النجاشى، فيأتى رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشى يعرف منه.

قالت: وسار النجاشى وبينهما عرض النيل.

قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: هل من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟

قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا فقالوا: فأنت. وكان من أحدث القوم سنا.

قالت: فنفخوا له قربة فجعلها فى صدره ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التى بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشى بالظهور على عدوه والتمكين له فى بلاده.

قالت: فوالله إنَّا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع ثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشى وأهلك الله عدوه ومكن له فى بلاده.

قالت أم سلمة: فوالله ما علمنا فرحنا قط مثلها ورجع النجاشى، وقد أهلك عدوه ومكن له فى بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده فى خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة..

والقصة على هذا النحو حافلة بالدروس والعبر:

إنَّ قريشاً كانت تعلم كيف تأكل الكتف.. وتعلم من يأكل هذه الكتف!

ولذلك فقد أعدت للأمر عدته:

١ ـ اختارت أولاً داهيتين من دواهى العرب.. هما عبد الله بن ربيعة وعمرو ابن العاص والذى قال عن نفسه: (ما دخلت فى شىء قط، إلا خرجت منه).

٢ ـ حمل المبعوثان من الهدايا أصنافاً لإغراء الحاشية القريبة من الملك والمؤثرة فى اتجاهاته.

٣ ـ تكلمت الهدايا فعلاً حين أشارت الحاشية بضرورة تسليم المهاجرين إليهما.

٤ ـ ولولا يقظة الملك وحكمته لغيرت الرشوة مجرى التاريخ..

٥ ـ وحين حاول عمرو أن يطلق آخر سهم فى جعبته طاش السهم. وانكشفت اللعبة عن هزيمة ساحقة لقريش.

من بركات الهجرة إلى الحبشة:

عاد المهاجرون إلى المدينة منتصرين: لقد نضجت حقيقة الإيمان فى قلوبهم بهذه الأحداث العظام، التى مارسوها وتبين لهم أن الله تعالى هو الذى يدبر للدعوة. ويمهد لها السبيل إلى القلوب. ويسخر لهذا الدين من ينصره.

ولقد كان من بركات هذه الهجرة أن جاء مع جعفر بن أبى طالب بضعة وثلاثون رجلاً من نصارى الحبشة.. متأثرين بما رأوا وما سمعوا من مهاجرى الحبشة. جاءوا ليروا ويسمعوا على الطبيعة مصداق ما سمعوه ورأوه من المسلمين فى بلادهم. فلما جلسوا إليه ﷺ.. أعلنوا إسلامهم حين مست شغاف قلوبهم بركات النبوة.

وكان رد الفعل عنيفاً لدى المشركين الذين فوجئوا بإسلام الوفد الحبشى.. وهى نتيجة لم تخطر لهم على بال.

وها هو ذا أبو جهل يعنفهم قائلاً: ما رأينا ركباً أحمق منكم: أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل. فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم. وصدقتموه فيما قال؟. فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم. لنا ما نحن عليه. ولكم ما أنتم عليه[1].

وقد نزل فى شأنهم قوله تعالى:

﴿ الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ من قَبْله هُم به يُؤْمنُون. وَإذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا به إنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّنَا إنَّا كُنَّا من قَبْله مُسْلمينَ. أُوْلَئكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْن بمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بالْحَسَنَة السَّيِّئَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفقُونَ. وَإذَا سَمعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغي الْجَاهلينَ ﴾[2].

المفارقة العجيبة:

أطارت المفاجأة صواب أبى جهل فرمى الوفد الحبشى بدائه هو! وهو الحمق! ذلك بأن خطته مع قومه جاءت بنتائج عكسية!

لقد كانوا يتصورون أن عمرو بن العاص وزميله قادران على العودة بالغلمان الآبقين بما عرف عنهما من حنكة ودهاء.. بعد إقناع النجاشى بما يزعمونه.

وعاد المسلمون فعلاً: بعدما وقف النجاشى إلى جانبهم وتهيأت الظروف للاستمرار فى الدعوة.. عادوا منتصرين.. ومعهم من الحبشة وفد هو فى نفس الوقت برهان إلهى يؤكد انتصار الدعوة على أعدائها. وأن مكر قريش إلى زوال.

وقد كان النجاشى يدين بالنصرانية.. وقيل إنه مضى فترة شبابه باليمن منفياً. فعرف لسان العرب. ودرس أحوالهم. فلما رد الله إليه ملكه. جعل من شكره لله تعالى إكرام هؤلاء العرب المهاجرين المسلمين.

---

(١) راجع تفسير ابن كثير والقرطبى.

(٢) سورة القصص، الآيات من: ٥٢ ـ ٥٥.

إسلام عمر:

بعد هذا الانتصار الخارجى للدعوة.. بدأت تباشير النصر على الجبهة الداخلية.. بإسلام عمر رضى الله عنه. والذى كان دخوله الإسلام فتحاً مبيناً قويت به شوكة المسلمين، بقدر ما كان ضربة موجعة للكافرين..

وقد وبدا لك واضحاً ليلة الهجرة حين وقف ابن الخطاب واثقاً بنفسه مهدداً كل من يعترض طريقه.. فكان مع المسلمين على موعد مهد فيه السبيل إلى انطلاقهم بروح معنوية ارتفع بها عمر بن الخطاب.. الذى انحاز إلى الحق بنفس القوة التى كان يقف بها إلى جانب الباطل..

دروس من الهجرة:

غريزة حب الوطن واحدة من الغرائز الناشبة فى كيان الإنسان.. وعندما أراد فرعون استنفار قومه لمواجهة موسى عليه السلام.. هز فيهم غريزة حب الوطن، لتنهض بهم ضد من يريد حرمانهم من مستراد أحلامهم.. وذلك فى قوله عز وجل: ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ**﴾[1].

وإذا كان حب البقاء فطرة فى الإنسان.. فإن حب الوطن أعمق جذوراً وأوسع مدى..

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ولكن لماذا يحب الناس أوطانهم؟ يجيب الشاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهمو   مآرب قضاها الشباب هنالكا

إنه مصدر الحياة الذى يشبع الحاجات.. ويغذو الجسوم والأرواح.. والتى تصبح بعد ذلك ديناً واجب الوفاء:

وللأوطان فى دم كل حر   يد سلفت. ودين مستحق

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

ومهما يلاقى المرء من عناء وأسى على أرضه.. ومن أهله.. فإن ذلك لا يخدش الولاء له أبداً:

بلادى وإن جارت علىَّ عزيزة   وأهلى وإن ضنوا علىَّ كرام

ومن هنا يظل الحنين إلى الوطن مشتعلاً وإن تناءت الديار واشتط المزار:

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبداً لأول منزل

وطن الروح:

وإذا كان للوطن بمفهومه القومى هذه المنزلة.. فإن وطن الروح أعز وأبقى!! وإذا اصطرعت فى النفس محبة المكان.. ومسؤولية الإيمان.. فلا خيار للمسلم ولا مفر من ركوب الأهوال ومقارعة الرجال.. ولن يتردد أبداً فى هجرة وطنه انتصاراً لمبادئه التى هى حياته، ولقد كانت هذه واحدة من أينع الفضائل التى أخذ الرسول ﷺ أصحابه بها..

وأنت خبير بصحابى أعزل.. وحيد.. يخرج من بيته مهاجراً إلى الله.. وهو يعلم يقيناً أنه قد يدفع حياته ثمناً لقراره.. ومع ذلك يمضى.. لا يلوى على شىء، ويمضى سعيداً قرير العين.. وهو فى معمعان خطر لا يملك له دفعاً! بل وتصل السعادة حداً يبكى فيه المؤمن هذا من شدة الفرح!!

وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه، فعندما أخبره ﷺ ـ كما ذكر ابن إسحاق:

«إن الله أذن لى بالخروج والهجرة» قال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ **«نعم»**.قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم. أن أحداً يبكى من الفرح. حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى)!!

وعندما حكى القرآن الكريم عن الرسول قوله:

﴿ **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً** ﴾ [الفرقان: ٣٠].

كان ذلك بمعنى شكواه من هجران القرآن.. ذلك الوطن الروحى.. وخلود القوم إلى التراب.. إلى الأرض.. مستقراً ومقاماً.. وضرورة العودة إلى وطن الروح.. لتزدهر المبادئ.. وتكون الكلمة للحق.. والولاء للدين فوق كل وشيجة

أرضية.

الهجرة.. والامتحان العسير:

من أجل ذلك كانت الهجرة امتحاناً عسيراً لأقدار الرجال.. وترجماناً عملياً يثبت فيه المسلم أنه نجح فى الاختبار «العملى» بعد نجاحه فى الاختبار «النظرى» لأن حب الوطن فطرة كما رأيت فى مستهل حديثنا.. وإذن.. فالذين ينتصرون على هذه الفطرة إيثاراً لوطن الروح أن يبقى ويزدهر.. **﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾**.

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[2].

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾[3].

والذين يتقاعسون أمام الظلم.. ثم رضوا أن يكونوا مع الخوالف إنما يحكمون على وجودهم الأدبى بالإعدام..

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾[4].

وقد ارتفع الصحابة إلى قمة التضحية بهجرتهم تلك فى أحلك الظروف.. رجال أخلصوا لله طواياهم، وترفعت عن المآرب هممهم، وزهدوا عن المتاع المبذول، والأمان المتاح، واستهوتهم المثل العليا وحدها، فى عالم عج بالصم والبكم، وربطوا مستقبلهم بمستقبل الرسالة المبرأة التى اعتنقوها وتبعوا صاحبها

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٨.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٥.
(٣) سورة النحل، آية: ٤١.
(٤) سورة النساء، آية: ٦٧.

المتجرد المكافح، وهو لا ينى يقول:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُون . أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

إن المهاجرين الأولين أثبتوا أنَّ الإيمان الناضج يحيل البشر إلى خلائق تباهى الملائكة سناء ونضارة، إنَّ المسلمين ـ بإذن رسول الله ﷺ هرعوا من مكة وغيرها إلى «يثرب» يحدوهم اليقين. . وترفع رؤوسهم الثقة، فليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة، إنها إكراه رجل آمن فى سربه، ممتد الجذور فى مكانه على إهدار مصالحه، والتضحية بأمواله والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره، وإشعاره ـ وهى يصفى مركزه ـ بأنه مستباح منهوب، قد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان. .

ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش. . فكيف وهو ينطلق فى أرض الله الواسعة، يحمل أهله وولده، وهو بذلك رضى الضمير، مطمئن القلب بالإيمان][2].

وإذا يستجيب المهاجر لمغارم الإيمان إلى حد يترك امرأته وولده فى مكة. . أو يتنازل عن كل ما ملكت يداه راضياً. . فإن الأنصار كانوا أيضاً عند حسن الظن بهم إيثاراً وصل إلى حد أن يعرض أحدهم تطليق زوجته ليبنى بها أخوه المهاجر!! وذلك هو الإيثار المذكور فى قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٠٦ ـ ١٠٨. .

(٢) الشيخ محمد الغزالى.

(٣) سورة الحشر، آية ٩.

أ ـ إنهم يحبون من هاجر إليهم.

ب ـ ولا يحسون بشيء من المرارة أو الحرج من رزق ساقه الله إليهم.

جـ ـ بل ويؤثرونهم ولو اشتدت حاجتهم إليه.

وبهذه الانتصارات المتلاحقة على النفس صاروا عنوان الإيثار.. ونجوا به من الشح القاتل لمواهب الإنسان.. وتوجههم الله بتاج الفلاح.. فصاروا أبداً عنوان الخصب والنماء..

معية الله:

وعندما تصل علاقة الجند بالقائد إلى هذا الحد.. ويحدث التلاحم بين عناصر الأمة، لتكون صفاً واحداً وراء قائدها المطاع.. فإن معية الله تعالى تصحب هذا الموكب المبارك.. وهذا ما حدث بالفعل.. حين نصر الله نبيه يوم الهجرة فى وقت لم يكن للنصر ورود فى خيال أحد.

وهذا هو الدرس المستفاد.. والذى يجب أن تستوعبه أمتنا اليوم، فعندما تدفع الأمة ثمن النصر من دمائها.. فإنها بالدم المراق تستنزله من السماء.. وفى قصة إبراهيم عليه السلام شاهد على ذلك، فعندما وصل الوالد وابنه مرحلة الاستسلام لأمر الله تعالى.. جاءهم نصر الله:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

قيادة واعية:

لا ننسى جهد الرسول ﷺ هنا، وعليه المدار فى استنزال النصر المأمول:

أ ـ فقد أحسن اختيار المكان والزمان المناسبين لتنفيذ الخطة.

ب ـ وضع المسؤوليات فى أعناق القادرين على الوفاء بتبعاتها.

جـ ـ ووضع أقرباءه وخلصاءه فى مواجهة الخطر.. فقد أناب علياً رضى الله

---

(١) سورة الصافات، الآيات من ١٠٣ ـ ١٠٧.

عنه ليبيت مكانه.

د ـ ثم اختياره الموفق لصاحبه فى رحلته: أبى بكر رضى الله عنه.

.انتصار بكل المقاييس:

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

والآية الكريمة حث للمسلمين على الجهاد.. وتذكير لهم بأن تقاعسهم لن يترك الرسول ﷺ وحده فى الميدان.. وقصة الهجرة شاهد صدق على ذلك حين نصره الله تعالى.. وكان نصراً مؤزراً:

أ ـ لم يكن معه إلا رجل واحد.

ب ـ فهما معاً فى جانب.. والدنيا كلها فى جانب.

جـ ـ وقد أوشك اليأس أن يهدد إيمان أبى بكر حين وجد الكفار على باب الغار لولا إيمان الرسول ﷺ وثقته بربه.

د ـ الباطل يرصد الأموال الطائلة لمن يقبض على النبى ﷺ وصاحبه.

هـ ـ وتبدو تباشير النصر المؤزر حين أنزل الله سكينته عليه فاستقرت القلوب فى الصدور.

و ـ وتتنزل الملائكة لتحسم المعركة لصالح القلة المؤمنة واضعة فى اعتبار المؤمنين منذ اليوم ما للقوة المعنوية.. وما للمدد الإلهى من قوة تزرى بما يجمع المبطلون.. حتى لا تكون لعدة الباطل وعدده من بعد وزن عند النزال.

محاولة ماكرة لإحباط الهجرة:

بدأت خطة الإعداد لضرب الدعوة بالغيظ الذى بدت أمارته فى نظرات

---

(١) سورة التوبة، آية ٤٠.

العيون. وفلتات اللسان:

﴿وإن يكادُ الَّذينَ كفرُوا ليُزلقُونكَ بأبْصارِهمْ لمَّا سمعُوا الذكْرَ ويقولُونَ إنَّهُ لمجْنونٌ﴾[1].

ثم يعبر الغيظ عن نفسه فى التركيز على القيادة التى يراد لها أن تزول:

﴿إذْ يمكُرُ بكَ الَّذينَ كفرُوا ليُثْبتُوكَ أوْ يقتُلُوكَ أوْ يُخرجُوكَ ويمكُرُونَ ويمكُرُ اللَّهُ واللَّهُ خيْرُ الْماكرِينَ﴾[2].

ثم تتسع دائرة التآمر. حين توزع الأدوار بدقة.. فى محاولة لوقف مسار الدعوة بالتسلط على الأتباع بالكيد.. والحيلة..

وقد كانت الهجرة مسرحاً لهذا اللون من التآمر الذى يؤكد أن القوم لم يحاربوا الدعوة اعتباطاً.. وإنما هو الذكاء.. الواقف يخطط.. ويراقب.. ويتابع:

مثال:

كان «عياش بن ربيعة» أخا أبى جهل من أمه... فلما أخذ طريقه مهاجراً.. ماذا حدث؟

إن «عياش» محسوب على أخيه أبى جهل.. وإعلانه الإسلام.. ثم هجرته يشكل ضربة لمركز أخيه الأدبى؟!

وإذن.. فمنعه من الهجرة.. وإفساد عزمه عليها بقطع رحلته.. مهمة لا يقدر عليها إلا أبو جهل نفسه:

فهو صاحب المصلحة فى منعه... وهو صاحب الباع الطويل فى التنكيل بالمسلمين.

وهو أخيراً: أخوه.. ومن منطلق الأخوة يمكن أن يتسرب إلى نفسه ليقنعه بالعدول عن عزمه.

---

(١) سورة القلم، الآية: ٥١. (٢) الأنفال، الآية ٣٠.

بداية المؤامرة:

لحق به أبو جهل فى الطريق.. فقال له: (إن أمك قد حزنت لفراقك.. ونذرت ألا تغسل رأسها. ولا تمشط شعرها. ولا تستظل من شمس، حتى تعود إليها، فأنت أحب الأبناء إليها، وأبرهم بها..: فارجع إلى أمك واعبد ربك كما تحب فى مكة، لا يضيق عليك أحد).

لم يلجأ أبو جهل إلى التهديد.. فما يفيد التهديد مع إيمان ملك على النفس أقطارها.. فأخرجها من وطنها الحبيب مكة.. إيثارا للدعوة.. ورغبة فى إعلاء كلمتها.. مهما كان الثمن..

ثم لم يحاول أبو جهل أن يلجأ إلى الحوار والجدل حول قضية الإيمان والهجرة وجدوى ذلك.. بعد أن حسم أخوه المعركة فى نفسه وبدأ يمارس الإيمان عملاً..

وإنما اختار أسلوب الدهاء يهز جانب العاطفة من الأعماق هزاً عنيفاً.. حيث صور له أمه.. فى أسوأ حالاتها.. وقد أسلمت نفسها لموت بطىء.. يوشك أن يطوى عمرها.. ومن الذى يميتها؟ أعز الأبناء لديها.. وأبرهم بها..

إنه يقضى فى لحظة واحدة على كل مآثر الماضى.. وهو بذلك يثير فيه عاملين:

عاطفة البنوة..

ثم نخوة العروبة التى تخشى أن يعيرها الرفاق بالكارثة التى سوف تحدث فى البيت!

الورقة الأخيرة:

ولعب أبو جهل بالورقة الأخيرة:

إنه لا ينسى أن «عياش».. رجل متدين.. مؤمن..

وقد خبر هو بنفسه عمق هذه الغريزة عندما مارس التعذيب مع الضعفاء من المؤمنين فما وهنوا ولا استكانوا.. وبقيت العاطفة الدينية كما هى.. بل ازدادت فسوف تكون له حرية العبادة مكفولة.. بلا عوائق.

الشاب المتدين يقع فى الفخ:

عرفت قريش من يأكل الكتف.. فسلطت.. «أبا جهل» على أخيه.. وعرف أبو جهل كيف يأكل الكتف.. فجاء إلى أخيه من جانبه العاطفى.. فاستطاع أن يستميله.. ووافقه الأخ المخدوع.. تحت تأثير هذا الإيحاء..

وما أكثر الذين يسقطون فى الشراك المنصوبة تحت ضغط الإيحاء.. حين يتسرب ناس كالخفافيش فى ظلمة الليل.. فيلمسون القلب الذى يفتح أبوابه للطارق الماهر.. بلا مناقشة.. بل ربما اختلقوا المعاذير تبريراً للهجوم الغادر.. فى غيبة العقل الواعى.. والذى يتحاشى المغرضون إدخاله طرفاً فى النزاع حتى لا ينكشف المخبوء..

وقد يقرأون على الضحية قصص الظلم.. والفقر.. وما تزدحم به الحياة من كوارث.. لفتاً للقلب الذى قد يكون واقعاً تحت صورة من صور الظلم.. فيميل ويستجيب.. وتدخل الأفكار الغربية.. فتعشش فيه.. والعقل نائم.. لا يدرى ماذا فعل الغزاة!

صوت العقل:

كان عمر رضى الله عنه رفيق «عياش» فى السفر.. فلما رأى ما حدث.. كشف له عن المؤامرة قائلاً:

ما يريد والله إلا فتنتك عن دينك فاحذره. فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت. ولو اشتد عليها الحر لاستظلت.

كان عمر رضى الله عنه منطلقاً من قاعدة:

لا يكن أفضل ما نلت من دنياك: بلوغ لذة. أو شفاء غيظ... ولكن: إطفاء باطل. وإحياء حق..

ومن ثم.. فقد حذره من اللذة العاجلة التى ستذهب بمتعة الأبد.. وبصره بعمق المؤامرة المستهدفة دينه.. ثم ما يتذرع به الباطل الذي يجيش جيوشاً من الأوهام ليحاربه بها فى غير ميدان..

فما قاله عن أمه أوهام.. والمخاوف التى يرمى بها فى سماء حياته أضغاث أحلام.

عياش والإرادة المسترخية:

كان أبو جهل قد نجح فى سرقة «عياش» بهذا القول المعسول. والوعد المبذول..

وجاءت نصيحة عمر بعد فوات الأوان.. وكانت صوت العقل الذى يدوى فى فراغ..

قال له عياش معتذراً: (أعود فأبر أمى. ولى هناك أموال. وأرجع إليكم).

النصيحة من أجل الدعوة:

قال له عمر وهو يدرك أبعاد المؤامرة: (خذ نصف مالى ولا ترجع معه).

وهكذا.. لا يكتفى بالنصيحة قولاً.. وإنما يتنازل عن نصف ثروته.. فى أشق الظروف الاقتصادية.. لينقذه من موت أدبى محقق..

لكن «عياش» أصر على الرجوع.. وبدأت فعلاً رحلة العودة أو النكسة. فانظر ماذا ترى؟

الهدف البعيد:

لم يكن هدف أبى جهل مجرد كسب أخيه لإنقاذ سمعته.. وإنما كانت غايته أن يجعل منه عبرة لمن تحدثه نفسه بالتمرد على قومه من بعد.

من أجل ذلك احتال عليه حتى يقيده بالأغلال.. وليدخل به مكة هكذا مبتذلاً مهيناً.. فى محاولة لإظهار قوته.. وطول يده التى لا يفلت من قبضتها الهاربون:

قال له أبو جهل عبر الطريق:

(يا أخى: قد تعبت من ركوب بعيرى. ألا تردفنى من خلفك. فإن بعيرك أسلس. ورحلك أوطأ.

فلما أناخ له البعير فاجأه أبو جهل من خلفه.. وألقى به على الأرض.. وربطه بالحبال.. وعاد به إلى مكة مكبلاً.. وفى وضح النار.. ثم أذن الناس:

(كذا فافعلوا بسفهائكم إذا خرجوا عليكم).

الإيمان يعلن عن نفسه:

ولندع الخيانة تعيش لحظة انتصارها المزيف.. لنتأمل الإيمان هناك فى الغار.. وهو يعلن عن نفسه.. مؤكداً هزيمة الخائنين:

فالرسول ﷺ يقول لأبى بكر: **«لا تحزن إن الله معنا»**.

لقد كان اطمئنانه إلى نصر الله تعالى أقوى من اطمئنانه فى غزوة بدر..

ويلحظ العلماء هنا أنه: لم يكن فى الغار سلاح.. ولا جند.. ولا أمل فى عون خارجى..

لقد كان اعتماده على ربه تعالى وحده.. ومن ثم كان اليقين فى نصر الله والفتح..

أما فى بدر: فقد كان هناك جيش.. وعتاد.. وتخطيط.. فكان دعاؤه أعمق.. حتى لا يكله الله تعالى إلى عدته وعدده..

وكان بعض الصالحين يقول: أنا فى معصيتى أرجى منى فى طاعتى: لأننى فى الأولى أعتمد على ربى.. وفى الثانية أعتمد على نفسى!

من هنا قيل:

أطلب رضوان الله تعالى عن طريق الفضل.. لا عن طريق العدل:

ففضل الله أوسع من الدنيا.. وعدله: فى البلاء فقط.. وليس هنا من شىء إلا وفيه فضل منه سبحانه وتعالى.

الهجرة والنصر الأكبر:

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

تمهيد:

فى تاريخ الأمم مواقف تعتز بها.. وتسترجع بتذكارها أمجاداً سلفت من عمرها.. تباهى بها الأمم.. وتشحذ بها الهمم التى يجب أن تمضى على هداها من جديد. وإلى الأمام..

وللمواقف العظيمة فى تاريخ الإسلام مذاق فريد:

إنها أعياد نقدرها قدرها.. ثم هى تعيننا على شكرها كنعمة من الحق تبارك وتعالى شكراً يقيدها.. لتظل ماثلة فى وعينا.. فنحث الخطى إلى مزيد من النعم التى يصل الله سبحانه جديدها بقديمها.

وللهجرة النبوية موقعها الممتاز بين هذه الأعياد:

لقد كان لها أثرها فيما تلاها من غزوات.. أما ما كان قبلها من مشاهد وتضحيات فلم يكن ليبلغ كماله إلا بالهجرة التى كانت تتويجاً لما سبقها من هذه التضحيات..

(ومن القرى الثلاث: مكة والطائف والمدينة.. حيث بدأت الدعوة إلى القارات الثلاث:

آسيا وأفريقيا وأوروبا حيث انتهى الإسلام تنقل كتاب الله بالهدى والنور على يد الأمة الوسط، بقيادة رسولها الأعظم، وجهاد أبطالها الميامين. فطهّروا النفوس من الرجس، وحرروا العقول من الشرك، وثلوا عرش قيصر، وقوضوا إيوان كسرى، وشادوا على أنقاضهما منبر محمد، ومئذنة بلال، ثم لم يلبث نور الله أن غمر الشرق حتى بلاد الصين وطبق الغرب حتى بلاد الغال)[2].

لقد سخر الله تعالى ليلة الهجرة من كل ما اصطلح عليه البشر من فنون الحرب.. فجاء نصره سبحانه فى غيابها.. على نحو يجعل من الهجرة مجلى القوة كما يجب أن تكون..

---

(1) سورة التوبة، آية: ٤٠.

(2) أحمد الزيات. مجلة الأزهر محرم ١٣٨٧.

ففى الوقت الذى عز فيه النصير.. وقل السلاح.. يجىء النصر الذى يهز الضمائر الجامدة.. لتصحو على الحقائق الجديدة وعلى رأس هذه الحقائق ما أشارت إليه الآية الكريمة التى نزلت عليه ﷺ وهو فى الطريق:

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[1].

وهل كان فى الإمكان تصور عودته ﷺ إلى مكة منتصراً..؟

لقد كان قصاراه ـ فى مرأى العين ـ أن ينجو بنفسه من الخطر المحدق به..

أما أن يأخذ الوعد بالعود الحميد.. هو.. ومعه صاحبه.. ولا بارقة هناك من أمل.. فذلك هو التأييد الإلهى الذى يجعل من هذا التأييد الإلهى.. الذى يجعل من هذا الحدث العظيم نجم هدى فى بيداء الحياة.. ومن إشرافه يبزغ الصبح المبين.

[إنَّ اعتماد القلب على قدر الله وكرمه يستأصل جراثيم اليأس. ومنابت الكسل... ويشد ظهر الأمل الذى يلج به الساعى أغوار البحار. العميقة. ويقارع به السباع الضارية فى فلواتها][2].

بقدر ما يزيل الحجب لترى ما لا يرى بالعين المجردة..

وفى هذا الظلام الدامس رأى ﷺ «سراقة» وفى يده سوار كسرى!.. كما رأى فى شرارة الصخر، يوم الخندق قصره المنيف!

سنة الحق تعالى فى خلقه:

ومن سنن الله تعالى فى خلقه أن ينصر سبحانه من ينصره.

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[3].

والسؤال الآن: ماذا قدم الرسول ﷺ والذين آمنوا معه من تضحيات استنزلوا بها نصر الله والفتح ليلة الهجرة؟

---

(١) سورة القصص، آية ٨٥.

(٢) الحرية فى الإسلام للشيخ محمد الخضر حسين.

(٣) سورة الحج، آية: ٤٠.

الوجه)[1].

إنهما كما يقول ابن الجوزى[2]:

رجال مؤمنون. ونساء مؤمنات: يحفظ الله بهم الأرض. بواطنهم كظواهرهم.. بل أجلى.. وسرائرهم كعلانيتهم.. بل أحلى. وهمَمهم عند الثريا.. بل أعلى... إنْ عرفوا تنكروا. وإنْ رُئيتْ لهم كرامة.. أنكروا.

فالناس فى غفلاتهم. وهم فى قطع فلاتهم. تحبهم بقاع الأرض وتفرح بهم أملاك السماء[3].

*الفدائية:

العلم وحده.. غرور. والفن وحده.. لهو ومجون. والحب وحده.. هيام وخيال..

وإذن.. فلا تتم القدوة إلا بالاتباع.. وإن كان فيه الضياع!

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى هذه الفدائية رباهم ﷺ.. فصاغ الجندى المثالى المسبوك بقانون الإسلام لا ينفصل عنه.. وهو إذ يدافع عن نفسه فإنما ـ وفى نفس اللحظة ـ يدافع عنها:

و(هذا هو الرجل الإلهى الذى: لا ينثنى.. لأنه الحق... ولا ينحرف.. لأنه العدل... ولا يخاف.. لأنه البأس... ولا يضعف لأنه القوة.. ولا يحيف لأنه الإنصاف...

ولو تعلق به أهل الأرض جميعاً لمشى بهم مطمئناً... لأنه فى نفسه كقطعة من نظام السماء الذى يجذب الأرض فى فضائها.

وهذا هو الرجل الذى يتعرف به الناس معانى الاصطلاحات النفسية القوية كالشهامة والنجدة. والصدق والإخلاص والإيثارس. وما إليها من سائر المفردات

(١) من مقال للشيخ محمد الغزالى.
(٢) صيد الخاطر ٥، ٦.
(٣) فقه السيرة ١٦٥.

حتى إذا تطلعت أمتنا فى اليأس إلى بشائر النصر على أعدائها وجدت فى الهجرة دليل عملها. . السائر بها إلى مثله. . سنة منه تعالى لا تتخلف؟

إن نور الهجرة المضىء ليغنى أمتنا عن استيراد أسباب النصر والهزيمة من خارج نفوسها. .

لقد بدأ ﷺ بإعداد المجاهد المسلم. . الواقف بإيمانه فى الصف الإسلامى. . هذا الصف الفولاذى الذى لا يقبل الاختراق أبداً!

دعائم النصر:

ما هى دعائم النصر التى أرساها الرسول ﷺ ؟

تتلخص هذه الدعائم فى أربع[1].

أ ـ ينبغى أن تكون صفة المسلم. . مسلمة مثله:

بمعنى أن يتحلى المسلم بكل صفة نبيلة جاء بها دينه. . وإلا. . فلو اتصف الكافر بالفضيلة وتخلى عنها المسلم. . لانتصر الكافر. . وهزم المسلم.

وقد كان المسلم تطبيقاً عملياً لمبادئ الإسلام على صعوبة الموقف من حوله، وتربص الباطل به.

ومن هذه المبادئ

*** الإخلاص:**

لقد كانت الهجرة (إكراه رجل آمن فى سربه. . ممتد الجذور فى مكانه. على إهدار مصالحه. وتضحية أمواله. والنجاة بشخصه فحسب. وإشعاره ـ وهو يصفى مركزة ـ بأنه مستباح منهوب. وقد يهلك فى أوائل الطريق أو نهايته.

وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم. لا يدرى ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طياش. . فكيف وهو ينطلق فى طول البلاد وعرضها يحمل أهله وولده. وكيف وه بذلك رضى الضمير وضاء

(١) الفكرة هنا للشيخ بديع الزمان النورسى. . وضحناها وعليها مزيد من التطبيقات العملية.

التى يتألف منها معجم الفضيلة.

وهو فى كل ذلك كأنه قاعدة من قواعد العلوم: تعطيك المثل الذى تريده.. لأنها هى ذلك المثل.. لا لأنها تعطى وتمنع.

فلو أُرغم ذلك الرجل على الخيانة واللؤم والجبن والتعلق والمداهنة ونحوها. مما يكون فى المتشبهين به لزاد وفاءً وكرماً وإقداماً وأنفة وإباءً، كما يزيد طيب العود بإحراقه).

وقد كان على رضى الله عنه واحداً من هذه النماذج.. حين بات فى فراشه ﷺ.

* **الأمانة:**

وتجلى ذلك فى تكليف على رضى الله عنه برد الودائع إلى أصحابها من المشركين الذين لم يكونوا ليستأمنوا عليها أحداً سوى رسول الله ﷺ.

ب ـ الدعامة الثانية أن تكون الوسيلة.. مسلمة!:

بمعنى أن يتسلح الحق بما يناسبه فى الشرف من كل وسيلة تحمل سمته.. وإلا فإن تقصير الحق فى إعداد الوسائل الحقة لن يصل به إلى بر الأمان.

وقد اتخذ ﷺ كل وسيلة ممكنة...

* كتم الأمر حتى عن أقرب المقربين إليه.

* ذهب إلى أبى بكر على غير عادته فى وقدة الحر.

* أعد الراحلة.. التى بقيت زمناً طويلاً تعلف بما يمكنها من قطع الرحلة بنجاح.

* وزع الأعباء.. وحدد المواقع.. واتخذ الدليل وهيأ الزاد.

* بقى بالمدينة حتى اطمأن على خروج أتباعه.

وعندما عاد من بيت أبى بكر إلى بيته استعداداً للخروج حاصر المشركون البيت.. فأعانه القدر الأعلى على الخروج بحفنة من تراب كانت أثقل عليهم من

جبل أحد[(1)].

ولم تأت هذه النجاة عفواً أو محاباة.. ولكن الباطل كلما زاد فى وثباته هذه زاد الحق فى ثباته.. وجاء نصر الله والفتح.

جـ ـ القاعدة الثالثة: من القوة إلى الفعل:

لقد كان المسلم ليلة الهجرة على أوفى ما تكون القوة الفاعلة.

(ومن فضائل القوة التى يوجبها الإسلام أن تكون وثيق العزم. مجتمع النية على إدراك هدفك بالوسائل الصحيحة التى تقربك منه... باذلاً قصارى جهدك فى بلوغ مأربك. غير تارك للحظوظ أن تصنع لك شيئا. أو للأقدار أن تدبر لك ما قصدت فى تدبيره لنفسك! فإن هناك أقواماً يجعلون من اللجوء إلى الله ستاراً يوارى تفريطهم المعيب وتخاذلهم الذميم.

وهذا التواء كرهه الإسلام)[(2)].

ولقد خرج الإسلام بهذا المسلم الإيجابى المهاجر.. خرج من القوة إلى الفعل وإن لم ترق قطرة دماء واحدة!

إن إحراز النصر فى معركة ما.. راجع إلى الجندى الذى أدار ظهره للحياة الدنيا.. فتحرر من مطالبها.. ثم أعطى وجوده كله للمعركة.. ثم كان بذلك قرير العين راضياً!

لقد بكى أبو بكر رضى الله عنه حين علم بالصحبة من الفرح! ولم يكن يخفى عليه ما تحف بها من أخطار وقد يدفع حياته فى مرحلة من مراحلها.. وسجلت ابنته عائشة رضى الله عنها ذلك الموقف الخالد فى قولها:

(فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم. أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى)[(3)].

---

(١) من مقال للرافعى

(٢) خلق المسلم: ١٢٠.

(٣) من حديث رواه ابن إسحاق.

وعلى رضى الله عنه يرضى أن ينام فى مضجع الرسول ﷺ فى ظروف تجمع الدلائل كلها على موت محقق يلحق علياً رضى الله عنه.. ولكنه قبل راضياً.

فإذا أضيف إلى ذلك موقف صهيب الذى تنازل عن كل أمواله لينجو بعقيدته.. وأبو سلمة الذى اغترب تاركا أهله وولده للضياع.. إذا تصورنا ذلك تحقق لنا مقدار ما تحدثه هذه المواقف من آثار خطيرة وردود فعل لدى كل من يراها وخاصة من أعداء الدعوة الذين تتلألأ فى عقولهم معانى الفدائية والإخلاص.. فتفرض عليهم احترام المسلمين وإن لم تحملهم على الإسلام والدخول فيه.

إنَّ موقفاً واحداً من هذه المواقف يغنى عن جيش مدجج بالسلاح.. كما يغنى عن جيش من الدعاة خبير بصناعة الكلام.. وإنَّ أمة تملك جنداً من هذا الطراز تملك فى نفس الوقت أسلحة النصر.. وهى غير قابلة للهزيمة أبداً:

[والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم. قريبة الرؤية لأعينهم.

ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده.

وما كان يملك أن يودع القلوب من المعانى الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة.. بخطبة مثل خطبته الأخيرة التى يكتبها بدمه.. فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله على مدى أجيال[1].

لقد كانت الهجرة منعطفاً خطيراً على طريق الدعوة حدث به التغيير الكبير فى نفوس المسلمين صاروا به جنداً لحماية الإسلام وسداه.. وعندما غيروا أنفسهم هكذا.. جاءهم نصر الله:

(١) طريق الدعوة ٣٥٧ ج١ جمع أحمد فائز.

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ [سورة التوبة: آية ٤٠].

أجل.. جاءهم النصر بعد أن نضجت مواهبهم.. وأينعت نفوسهم فأثمرت ثمرتها من الصبر.. والوحدة.. والإيثار.. إيثار المهاجرين والأنصار معاً.

إن شجرة البرتقال قبل أن تثمر ـ لا تحقق هويتها.. إنما تحقق ذاتها فى اللحظة التى تسفر أكمامها عن الثمار المدلاة تطعم الجائعين. وتسر الناظرين!

أما قبل ذلك فهى عود أخضر كسائر الأعواد.. يمكن بعد قليل أن ييبس ليكون حطباً فى النار... والإثمار يساوى لحظة الميلاد فى حياة البشر.

وقد ولد المسلم بالهجرة من جديد على ما يقول ابن تيمية:

(إن فكرة الأمة لا تتحقق لمجموعة من الناس إلا إذا اشتركوا فى فعل واحد).

وها هم أولاء: المهاجرون: يشتركون فى فعل واحد.. إلى هدف واحد فلما تآلفوا مع الأنصار.. ظهرت خصائصهم الفريدة التى لم تظهر فجأة.. وإنما أبرزتها بوتقة الأحداث.

إنهم يجتمعون.. بعد شتات... ويظهرون.. بعد اختفاء.

ثم بدت الأخوة فى أجلى معانيها حين تجاوز كل أنصارى حدود مصلحة نفسه.. ليؤثر مصلحة عقيدته.

وهنا تبرز أكمل صور الانتصار على شهوات النفوس يجعل الانتصار فى الميدان العسكرى أمراً مفروضاً.

المسلمون اليوم فى ضوء الآية الكريمة:

وما زالت الآية الكريمة تتجه إلى المسلمين اليوم مذكرة لهم بما فى الهجرة من دلالة.

ما زالت تقول لهم:

إن لم تنصروا الرسول.. بتطبيق الشريعة التى جاء بها.. إذا لم تنصروه وقد

صرتم آلاف الملايين.. تملكون من الثروة ووسائل القوة ما تملكون.. إذا لم تنصروه ولديكم من وسائل الإعلام.. وطرائق المعرفة ما يمهد أمامكم السبيل.

﴿إلاَّ تنصروه فقد نصره الله﴾ يوم أن لم تكن عدة.. ولا عتاد.. ولا مال.. ولا حيلة.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

وبعد:

[فلولا الهجرة ما كانت النصرة. ولولا النصرة لما كانت بدر. ولولا بدر لما كان فتح مكة... ولولا فتح مكة لما فتحنا القادسية واليرموك.. ولولا فتح القادسية واليرموك لما ورثنا ملكي كسرى وقيصر... ولولا الفتوح التي تلت ذلك لما غير القدر مجرى التاريخ وعدل وجهة الدنيا.

وجعل البادية الجديبة. والعروبة الشتيتة عمراناً طبق الأرض بالخير. وملكاً نظم الدنيا بالعدل. وديناً ألف القلوب بالرحمة. ومكن للعرب في دورهم أن يبلغوا رسالة الله. ويؤدوا أمانة الحضارة. ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم.

إن تاريخنا الهجري الذي انبثق من الغار. واندفق من قلوب المهاجرين والأنصار. وفاض مع المجاهدين على الأمصار والأقطار. لتتألق أيامه الغر في ظلام الماضي كما تتألق الكواكب الزهر في حلك الليل:

أرشدنا الضال فاهتدى. وحمينا الذليل فاعتز. وعلمنا الجاهل فتعلم. ثم مكنا في أرضنا الفسيحة. ودنيانا العريضة لعناصر الجمال والخير والحق. فتوثبت في كل نفس. وازدهرت في كل جنس. وانتشرت في كل أفق وحققت لهذا الإنسان طريد العداوة وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه: من الأخوة التي يعم بها النعيم... والمساواة التي يقوم عليها العدل... والحرية التي تخضب بها المدارك][2].

---

(١) سورة الحج، آية: ٤٠..

(٢) من مقال للمرحوم أحمد حسن الزيات. مجلة الأزهر محرم ١٩٨٧.

ولقد أدرك الفاروق عمر بحسه البصير بعواقب الأمور هذه الحقائق فجعل من الهجرة مبدأ للتاريخ.. وكأنما عندها ولد المسلم من جديد.. وكان احتفالنا احتفالاً بيوم ولد فيه الحق والقوة معاً.

والذين جهلوا هذه المعانى التى تضمنتها الهجرة فلم يؤرخوا بها.. فاتهم ذلك الفهم العميق.. وتخبطوا فى حنايا الطريق.

مواقف من غزوات الرسول[1]:

تظل البطولة فكرة نظرية فى أذهان الناس: يصفقون لها. ويهتفون بها. لكنها ـ عند هذا الحد ـ لا تسوقهم إلى ميدان القتال كقوة دافعة.. وإنما تصبح كذلك.. يوم يتاح لها بطل جسور.. ينفعل بها. ويعيش لها. وحين يجادل المتفسلفون لتحديد معناها فى قاعات الدرس.. فإنه فى ساحات الوغى يحسم المعركة بإرادته الماضية قبل أن يحسمها بسيفه القاطع.

ذلك بأن عزة الأمة وحماية يومها وغدها تعنى حماية البطل ذاته وذريته معه وأحفاده من بعده.. فلابد من الجهاد.

إلا وأن المصلحة الحقيقية أن يبقى الحق مرفوع الراية.. وإن دفع البطل حياته ثمناً.

وهذا سر من أسرار الإعجاز الإسلامى الذى ربى الرجال على الإيمان بالمبدأ.. ثم العمل له والتفانى فيه. لتظل الحياة أبداً متجددة القوة.. لا أن تكون مدرسة تلقن الدروس ولا تصوغ النفوس.

وإذا كانت المحن تصيب أقواماً بالتمزق.. فإنها فى ضوء الإيمان تلهب المشاعر.. وتفجر الطاقة ليبدأ المجاهد الإقلاع من جديد!

ولم تكن الغزوات فى الإسلام مجرد مواجهة عسكرية تتلاقى فيها السيوف.. فتتطاير الرؤوس.

بيد أنها كانت مجالات كشفت عن المعادن النفيسة التى صنعها الإسلام على عينه وبدت فيها معادن فى:

الرغبة فى الشهادة ـ والتجرد... العزم الصادق... الثبات على المبدأ... الصبر الجميل... العدل... التسامح... الإيثار.

إلى غير ذلك من قيم الإيمان.. والتى نحاول الآن البحث عنها.. والتنويه بها. من خلال هذه التأملات فى مسير هذه الغزوات:

---

(١) كل تأملاتنا فى غزوة بدر لم يراع فيها التسلسل الزمنى. لأنها حصاد سنين عددا.

دروس من غزوة بدر:

قبل أن يلتقى الفريقان.. ظهر التمزق فى صفوف المشركين. رغم ما لوحوا به من قوة.. ومع تهديد أبى جهل بتدمير جيش المسلمين.. وأمله الوطيد فى نصر حاسم.

وعلى الجبهة الإسلامية كان السباق المشتاق إلى النصر أو الشهادة. وكان ذلك الاختلاف طبيعياً بحكم اختلاف الدوافع فى قلوب الفريقين:

فالمشركون لا يدينون بعقيدة.. ومن ثم فأفئدتهم هواء.. فمن أين يستمدون القوة؟

ومن أين يأتيهم نصر هو خليق بالمسلمين المجتمعين تحت راية الإسلام مدفرعين بعقيدة تجعل الموت أحب إليهم من الحياة؟

التمزق على الجبهة المعادية:

تقول كتب السيرة:

كان كل شىء فى غزوة بدر يؤذن بهزيمة المشركين، وهى بالنسبة لهم لم يكن لها داع أصلاً، وبدأ فى صفوفهم التردد والخور من أول الأمر بينما بدأ فى صفوف المسلمين العزم والتصميم، لذلك لم تغن عن المشركين كثرتهم.

قعد أبو لهب وأناب عنه هشام بن المغيرة لدين كان له عليه، وتردد أمية بن خلف، لأن صديقه سعد بن معاذ الأنصارى كان قد أخبره من قبل أنه سمع رسول الله ﷺ.. يقول أنه سيقتله، فخاف أمية ولما أخبر زوجته بما قال، قالت له: والله ما كذب محمد قط، احرص على ألا تقابله، فلما جاء النداء للغزوة صمم على القعود، وكان شيخاً جسيماً، فاقسم ألا يخرج من مكة، لأن زوجته قالت له أنسيت ما قال أخوك اليثربى؟

قال لا أخرج، والله ما كذب محمد قط.

وتثاقل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقال لهما خادمهما عداس: بأبى وأمى أنتما، والله ما تساقان إلا لمصارعكما، وأما أمية وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام فقد

استقسموا بالأزلام فخرج لهم القدح الناهى المكتوب عليه لا تفعل، فزادهم تراخياً ثم أجمعوا على الإقامة وعدم الخروج للحرب. ثم بدا لهم موقف آخر، وهو الثأر الذى كان بينهم وبين كنانة فخشوا أن تهجم عليهم من خلفهم، فثبطهم ذلك أكثر.

وكان أبو جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث أقوى المتحمسين، وكان كل همهم أن يقتلوا محمداً ﷺ.. وقد قتلوا هم الثلاثة وما كانوا يقدرون ذلك، أغرى أبو جهل عقبة بن معيط.. وكان عقبة وقاحاً سليط اللسان. بأمية بن خلف، فجاءه، وهو فى مجلس قومه ووضع أمامه مجمرة فيها البخور، وصاح مغلظاً: قبحك الله وقبح ما جئت به، وبذا وصل أبو جهل إلى شىء كبير مما يريد، ثم جاء هو إلى أمية، فقال له أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت. وأنت سيد أهل الوادى تخلفوا معك. فسر معنا يوماً أو يومين ثم ارجع، فتجهز مع الناس ولا تثبطهم، فقام يتجهز وهو على تردد وزوجته تذكره ما قاله له سعد بن معاذ وتنهاه عن الخروج، فخرج على أمل أن يرجع قبل المعركة.

ولم ينته هذا التردد بين القوم حتى وهم أمام الميدان يتأهبون للمعركة.

الشوق إلى الجنة:

ولنترك المشركين يتلاومون.. ويتبادلون التهم المنذرة بهزيمتهم سلفاً.. لنرى ذلك التسابق البطولى إلى ساحة الوغى على الجبهة الإسلامية:

تنافس الغلمان الصغار يحدوهم الأمل فى صحبة الجيش المؤمن لعلهم يرزقون الشهادة.. أو يسهمون فى صنع النصر المأمول:

خرج الصبى عمير بن أبى وقاص - وهو فى مثل سن طالب الإعدادية الآن - يرجو أن يقبله الرسول ﷺ جندياً... وكان أخوف ما يخافه أن يرده الرسول. لأنه صغير السن... وساعده ذكاؤه المبكر على التخفى عن الأنظار.. فكان يتوارى خلف الصفوف حتى لا يراه الرسول ﷺ فيرده.

سأله أخوه سعد بن أبى وقاص عن سر تخفيه فقال: أخاف أن يردنى رسول الله ﷺ... وأنا أحب أن أموت شهيداً.

ولقد بكى عمير كثيراً. لما أراد ﷺ رده لعدم بلوغه سن الرجال.. فرق له قلب الرسول.. فأجازه. وقتل فى غزوة بدر شهيداً.

فانظر كيف يستدبر الصبى الصغير ملاعب صباه.. وينحى عنه آمال أمثاله من الصغار فى الحصول على شهادة مدرسية.. أو سياحة فى الأرض.. أو جائزة رياضية أو اجتماعية.. ليركز همه كله فى الخروج من هذه الدنيا.. لا زاهداً فيها وإنما تدعيماً للدين الجديد. وإرساء لقواعده. ولتظل الدنيا آمنة فى حراسة الإيمان.. ولم يملك أخوه سعد بن أبى وقاص وهو القائد الكبير أن يشفع له. فمصلحة المعركة فوق كل اعتبار.. وحتى قرابته لرسول الله ﷺ ما كانت لتحمل القائد على إجازته.

وإنما الذى أجازه ما رآه الرسول ﷺ من إصراره على القتال. رغم حداثة سنه.. وما أحسه من طموح مبكر إلى معالى الأمور.. فأجازه إجازة كانت علامة على الطريق. أمام الشباب حتى يقدموا حياتهم للدعوة.. ولا تكفى الثرثرة والجدال بعيداً عن ساحات النضال!

وفى الوقت الذى يتصارع فيه أفراد الأسرة اليوم حول الميراث.. وأى الأخوة أولى بهذا السكن أو ذاك.. نرى أشبال بدر يتصارعون حتى مع آبائهم حول أيهما أولى بالاشتراك فى المعركة.. ويمتد الصراع إلى درجة اللجوء إلى الاقتراع سبيلاً إلى فض النزاع.

فإذا كانت القرعة من نصيب الصبى لم يتنازل لأبيه إذا كان المتنازل عنه الجنة.. ولو كان النزاع حول الدنيا كلها.. لتركها لأبيه تقديراً لأبوته واستهانة بالدنيا التى لم تكن شغله الشاغل!

عدل يسمو على السمو:

ويتجلى بعد آخر من أبعاد البطولة: فى مدى الصعوبة التى كان يعانيها المسلمون فى طريقهم إلى بدر إلى جانب قلة عددهم بإزاء المشركين:

فالمسافة بين بدر والمدينة تزيد على مائة وستين كيلا.

ومع طول المسافة ووحشة الطريق. فلم يكن مع رسول الله ﷺ وصحبه سوى سبعين بعيراً يعتقبونها.

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: كنا يوم بدر: كل ثلاثة على بعير - يتعاقبون - وكان «أبو لبانة» وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ. قال: فكانت عقبة - أى دور - رسول الله ﷺ فقالا له: نحن نمشى عنك - ليستمر راكباً - فقال:

«ما أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما»[1].

وهنا نقف على سر من أسرار الفدائية الإسلامية تتمثل فى الأسوة الحسنة فى رسول الله ﷺ. وكيف حرص على تحمل نصيبه من الكفاح.. مؤكداً قدرته على ذلك. كاشفاً عن شدة تواضعه ﷺ وكيف أعلن من علو مقامه أنه فى حاجة إلى الثواب وهكذا تعيش القيادة المؤمنة «بين» جنودها فتشد من أزرهم.. ومن ثم تقوى بها الأواصر ويتحقق النصر.

بينما القيادات الدنيوية تدير المعارك من خلال القصور المشيدة.. فتختفى الثقة الجامعة بين القاعدة والقمة.. فمن أين تهب عليها رياح النصر؟!

التجرد:

قد يحملك المبدأ على أن تتبرع «بمصروفك اليومى» فى مشروع خيرى.. أو التنازل عن مكانك فى الحافلة المزدحمة.. أو عن دورك فى طابور تحت أشعة الشمس.

ولكن ما أسهل المهمة حينئذ إلى جانب ما تطالعنا به غزوة بدر الكبرى من حرص على التنازل عن الحياة ذاتها.. فى سبيل المبدأ. وأقصى من ذلك أن تفرض عليك الظروف أن تواجه أباك فى معركة حياة أو موت.. وتلك قمة الإخلاص للمبدأ. وهذا ما حدث فى غزوة بدر. يقول الشيخ محمد الغزالى:

[فى هذه المعركة: التقى الآباء بالأبناء. والأخوة بالأخوة. خالفت بينهم

---

(١) فى المسند رقم ٣٩٠١ - ٣٩٦٥ وسنده حسن. ورواه الحاكم ٣/ ٢٠ وقال حديث صحيح على شرط مسلم.

المبادئ. ففصلت بينهم السيوف.

وفى عصرنا هذا قاتل الشيوعيون مواطنيهم. ومزقوا أغلى الأواصر الإنسانية فى سبيل ما يعتقدون.

فلا عجب إذا رأيت الابن المؤمن يغاضب أباه الملحد.. ويخاصمه فى ذات الله. والقتال الذى دار فى بدر سجل صوراً من هذا النوع الحاد.

كان أبو بكر مع رسول الله.

وكان ابنه عبد الرحمن يقاتله مع أبى جهل.

وكان عتبة بن ربيعة أول من بارز المسلمين.

وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبى. فلما سحبت جثة عتبة لترمى فى «القليب»[1] نظر الرسول إلى أبى حذيفة فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال له:

لا والله يا رسول الله. ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه.

ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلاً. فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت ما أصابه. وذكرت ما مات عليه من الكفر. بعد الذى كنت أرجو له. أحزننى ذلك!. فدعا له رسول الله بخير. وقال له خيراً[2].

من مفارقات القدر:

وكم للقدر الأعلى من سخريات:

لقد كان أبو جهل هو المحرض الأكبر على قتال المسلمين فى بدر.. ورفض الاستماع إلى نصح الناصحين بالرجوع بعد أن نجت العير..

إلى جانب مسؤولية إيذاء المسلمين والتنكيل بهم فى مراحل الدعوة الأولى..

ومن سخريات القدر أن يكون مصرعه عبرة لمن اعتبر.. بما حام حوله من مهانة ما كانت تخطر على رأس الفساد. المدل بقوته وجبروته.

يقول عبد الرحمن بن عوف[1]: إن لفى الصف يوم بدر. إذا التفت فإذا عن

---

(١) البئر. (٢) ابن هشام.

يمنى وعن يسارى فتيان حديثاً السن.

قال لى أحدهما سراً من صاحبه: يا عم: أرنى أبا جهل. فقلت: يا ابن أخى.. ما تصنع به؟! قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله. أو أموت دونه.

وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثل قوله:

قال: فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما. فأشرت لهما إليه... فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه. وهما ابنا عفراء.

لقد كان سن الفتى صغيراً.. لكن عقله كان كبيراً.. وكانت آماله كباراً أيضاً!

لقد بلغت شدة حرص كل منهما على قتل أبى جهل أن أسر إلى عبد الرحمن ابن عوف بعيداً عن رفيقه فى السلاح ليخلص وحده إلى أبى جهل متحملاً مسؤولية مواجه هذا الطاغية. ويشتد تعجب ابن عوف - وإعجابه أيضا - أمام إصرار كل منهما.. وأمام حكمة كل منهما أيضاً..

ويسعد «الشيخ» عبد الرحمن أبو عوف.. حين يراهما وقد انطلقا صقرين كاسرين لينقضا على الفريسة.. فقتلاه.. ولم ينفعه ابنه «عكرمة» الذى خف لنجدته دون جدوى. ولقد دس وجهه فى التراب حتى لا يراه المسلمون.

ولكن عبد الله بن مسعود اكتشفه فلما عرفه قال له: أهذا أنت يا عدو الله. لا تزال فيك بقية من حياة؟ ووضع قدمه فوق عنقه وداس عليه. فلما نظر إليه أبو جهل قال له: لقد ارتقيت مرتقى وعراً يا رويعى الغنم!

فقال ابن مسعود: انظر يا عدو الله ما يصنع بك راعى الغنم.. وشد عليه بقدمه حتى مات تحت حذائه!!

ومن تعاجيب الليالى.. أن ابن مسعود صاحب القدم الصغيرة. والتى كان الصحابة يتندرون بدقتها وصغرها تثبت اليوم أنها كما أشار الرسول ﷺ تزن جبل أحد!

ومن كان يصدق أن نهاية أبى جهل ستكون على يد ابن مسعود بالذات؟

---

(١) راجع البخارى باب المغازى.

ولكن هذا.. هو ما حدث.. وانتصر الحق بفضل الله وعلا لواؤه وخذل الباطل وطاش سهمه.

كيف عامل المسلمون أسرى بدر؟:

كان من نتائج غزوة بدر أن وقع فى قبضة المسلمين عدد من الأسرى.. ومن خلال معاملة المسلمين لهؤلاء الأسرى بدت الأهداف الحقيقية للجهاد فى الإسلام.. وهى أنه لا يستهدف إراقة الدماء. لكنه يتوخى عمارة الحياة وإرساء دعائم الأخوة الإيمانية. والعدل. والمساواة.. والإيثار.

كان من بين الأسرى «أبو عزيز عمير بن هاشم» أخو مصعب بن عمير.

وكان مصعب صاحب اللواء يوم بدر. و«أبو عزيز» صاحب لواء المشركين. ومر به أخوه مصعب وواحد من الأنصار يشد يديه. فأوصاه بأن يشد وثاقه قائلاً:

إن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك.

فقال له أبو عزيز: يا أخى.. أهذه وصاتك بى؟!

فقال له مصعب: إنه أخى دونك[1]!!

وأنت واجد فى هذا الموقف أخوين شقيقين فرقت بينهما العقيدة فكان أحدهما فى طليعة المؤمنين.. بينما الآخر فى مقدمة الكافرين.. وكان المتوقع أن يخفى مصعب مشاعره الحقيقية تجاه أخيه. مجاملة له فى أحرج لحظات حياته.

فإذا لم يسعفه بوصاة ترحمه.. فلا أقل من أن يسكت ولو على مضض!

لكن مصعباً يصرخ بمشاعره على الملأ. انتصاراً لإيمانه. ومغالاة به. ضارباً عرض الحائط بعلائق الدم.. التى كانت تجمعهما بالأمس فى معارك الجاهلية بالحق وبالباطل..

وحين يعاتبه أخوه عمير بمرارة على ما كان منه مذكراً إياه بإخوته.. يفاجئه مصعب بما يؤكد انقلاب حسابات الجاهلية رأساً على عقب.. فى ضوء الإيمان

---

(١) سيرة ابن كثير جـ٢/ ٤٧٥.

الذى صار به المسلم أخاه.. دون «عمير» الذى يقطع بكفره كل صلة للرحم!

لكن ذلك لم يمنع من حسن معاملة الأسرى بصفة عامة:

أوصى رسول الله ﷺ بهم خيراً فقال: **«استوصوا بهم خيراً»**.

ويقول «أبو عزيز» نفسه شاهداً بذلك: كنت فى رهط من الأنصار. حين أقبلوا بى من بدر... فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز... وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا. ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. فأستحى، فأردها، فيردها علىَّ ما يمسها[1].

لقد أتيحت لعمير أن يرى لوناً من التعامل ما رأى مثله قط. ولعله بدأ يتحقق من صدق أخيه «مصعب» فى دعواه أخوة المسلم دونه..

فما يراه من الإيثار شاهد بصدق ما يقول.

وكان بين الأسرى: العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. وابن عمه عقيل بن أبى طالب. وأبو العاص بن الربيع زوج بنت النبى ﷺ. وما استطاع الرسول أن يصدر بشأنهم قراراً يستثنيهم من الأسر.

وقد تحدث بعض الروايات عن ألمه ﷺ لما كان يسمعه من أنين عمه فى القيد.. فأصدر أمره بالتخفيف عن كل الأسرى تفضلاً. كشف لهؤلاء الأسرى جوهر الإسلام الأخلاقى.. والذى لفت الأنظار إليه.. وعطف القلوب عليه.. وبهذه الأخلاق دخل الناس فى دين الله أفواجاً.

وإذا اكتشف المشركون اليوم كيف يجيد المسلمون صناعة الموت بأسلحتهم. فقد اكتشف أمضى سلاح لتحقيق النصر وهو: ما يتمتع به المسلمون من أخلاق كريمة قويمة.. هى أربى من كل وزن.. وأمضى من كل سلاح.

وإذا قال «جنكيز خان» الطاغية: إننى لا أفتح البلاد ولكن أتسلمها.. يعنى أنه يخرب القلوب أولاً.. حتى إذا لم يبق إلا الحطام الهش جاءه مستسلماً..

إذا كان الطاغية يفعل ذلك فقد كان الفتح الإسلامى شيئاً غير هذا تماماً:

---

(١) المرجع والموضع السابق.

كان ﷺ يحيى القلوب ولا يحطمها.. يبعثها من رقادها لتستشعر حياة جديدة لا عهد لها بها.. فإذا هى بهذه الصحوة آتية إليه مسلمة لا مستسلمة.. مسلمة وجهها إلى الله بقلوب ذاقت طعم الحق فوضعت وجودها كله لحساب هذا الحق.. بل إنه لأقل ما تقدمه فى سبيله!

من آثار بدر:

تمهيد

اعتاد الناس أن يتحدثوا عن «غزوة بدر» وآثارها فى السابع عشر من رمضان يوم عيد الغزوة فإذا مضى هذا اليوم جمعوا أوراقهم وطووها إلى العيد القابل.... يفعلون ذلك وتفعله معهم أجهزة الإعلام، وذلك خطأ كبير فى تناول التاريخ فالتاريخ عبر وعظات، وهو فى الإسلام أكثر من ذلك لأنه سيرة العقيدة والدفاع عنها، وبعد أيام من عيد غزوة بدر نعود إليها لنذكر من آثارها ما يجب أن نذكره على الدوام، لأنه من القضايا الشاملة فى حياة الأمة الإسلامية.

السلام.. من مركز القوة:

كان انتشار المسلمين فى بدر نقطة تحول فى تاريخ الإسلام قضى الله تعالى به على أهمية العدد والعدة فى غيبة الإيمان.. وكان الظن أنهما أساس الانتصار.. فى الوقت الذى برزت أهمية العقيدة المسلحة بالقوة.. على نحو قلب حسابات العدو.. وحطم مقاييسه فى وزن أقدار الرجال.. والتنبؤ بنتائج الحروب.

ومع أن الانتصار فى معركة بدر كان حاسماً.. إلا أن الأمر بالإعداد للجهاد ما زال مستمراً.. بينما دماء المشركين لا تزال ساخنة عبر الصحراء.

جاء ذلك فى قول الحق سبحانه وتعالى بعد بيان أحداث الغزوة فى سورة الأنفال:

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ. وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا

تُظْلَمُونَ. وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمِ. وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

١ ـ قد يحرز العدو تقدماً فى مجال الدعاية.. ومن الناحية العسكرية قد يكسب نصراً خاطفاً فيحسب أنه سبق فى المضمار سبقاً يدل به عليكم ويزهو. ولكن ذلك ظن خاطئ فتجربة الأمس تفند هذا الزعم..

ذلك بأن من ورائه قوة قادرة محيطة من جند الحق سبحانه.. الذين إن فاتهم مجاراته فى حملة التضليل.. فما فاتهم أن يتركوه على الساحة أشلاء ممزقة..

٢ ـ وحتى يظل زمام المبادرة فى أيدى المؤمنين.. فلابد من الاستمرار فى إعداد القوة جهد الطاقة.. ليبقى المسلمون فى أذهان أعدائهم قوة مخيفة تشل حركتهم.. وتلزمهم التريث قبل كل خطة يديرونها.. أو شر يبيتونه.. هم.. ومن وراءهم من قوى عالمية تمدهم فى الغى وتزين لهم العدوان..

إن العدو المباشر واجهة تخفى نوايا حاقدة تتربص بالإسلام الدوائر.. ولا بد أن يكون الديدبان يقظاً.. مسلحاً بالوعى.. والقوة.

٣ ـ وهذه المسؤولية الكبرى تفرض على كل إنسان فى الدولة أن يسهم فى المعركة مهما كان وضعه المالى.. لأن العدو يستهدف الدين.. وهو حياة الجميع.. فلابد حينئذ من أن يظل شملهم جميعاً.. وعلى ارتباط وثيق بالمعركة التى لا تغيب عن بالهم.. بكل صورة من صور البذل.

﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[2].

٤ ـ إذا نبتت فكرة السلام فى أذهان الأعداء ودعوكم هم إليها فلا جناح عليكم فى قبول سلام تتحقق به إرادة الإسلام له.. لأنه حينئذ يجىء من مركز القوة. قوتكم أنتم التى ملأت أعين الأعداء فسعوا إليكم طائعين.

أما السلام المرفوض فهو ذلك الذى تدعون أنتم إليه من واقع الضعف والتخلف.. على ما يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ

(١) سورة الأنفال، الآيات من: ٥٩ ـ ٦٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

أَعْمَالَكُمْ﴾[1].

إن سلاماً من هذا النوع يصبح استسلاماً يأباه وضعكم القيادى الذى حصلتموه بمشيئة الله سبحانه.. والإيمان به.. على أن تذكروا جيداً أنَّ رغبة الأعداء فى المعايشة السلمية مشكوك فيها على ما يفيده حرف الشرط (إن.... جنحوا).

إنه «جنوح» أى ميل.. بالرأس. قد يكون خداعاً بينما أقدامهم متشبثة بعقائدهم ومكائدهم.. فكونوا منهم على حذر.. ثم إن حرف الشرط «إن» يقوم بدوره فى دعم هذا الشك فى نواياهم.

ثم كونوا أشد حذراً من الاعتماد على قوتكم المرصودة.. وتوكلوا على الله وحده.. ﴿وتوكل على الله.....﴾.

إن القوة ليست فى نوعية السلاح.. بقدر ما هى فى يد تحمله.. يحبها الله ورسوله..

من صور الإعداد للمعركة:

كل كلمة.. كل حركة.. كل جهد مبذول من أجل المعركة.. محسوب بميزان الحق الذى لا يظلم مثقال ذرة..

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

وقد تكفلت السنة النبوية بتفصيل ذلك الإجمال فى مثل قوله ﷺ:

«إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد: صانعه يحتسب فى صنعته الخير.. والرامى.. ومنبله..».

أى أن الرصاصة الواحدة.. التى تنطلق فى سبيل الله.. تفتح أبواب الرضوان أمام كل يد شاركت فيها إعداداً.. وتنفيذاً..

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠، ١٢١.

على شرط أن يتم ذلك استجابة لبواعث الخير.. واستهدافاً لإعلاء كلمة الله..

أى أن السلاح فى الإسلام للتعمير لا للتدمير.. وحين يشرعه المسلم فى وجه عدو الله وعدوه... فمن أجل إرهابه وكف يده حتى لا تمتد بأذى. حفاظاً على الدماء أنْ تراق.. مهما كانت عقيدة الإنسان.

وقد كانت استجابة المسلمين للأعداد صادقة:

كان عروة البارقى «يملك وحده سبعين فرساً معدة كلها للقتال؟!

وتصور معى هذا الجهد الموصول فى رعاية هذا الحشد من الخيل.. والذى يشغل الرجل وأهله.. وولده.. وتساءل معى: كم يبقى من عمر هذه الأسرة. تنفقه فى ملذات الحياة؟!

لا ريب أن المعركة ملأت حياتها إلى حد لم يعد فى حياتها وقت للهو أو لعب.. حتى لغلمان لا بد لهم من اللهو واللعب!

حتى الخيل نفسها تندمج فى الدور.. وتصبح ملاقاة العدو أيضاً شغلها الشاغل؟!:

فعن معاوية بن خديج: أنه مر على أبى ذر وهو قائم على فرس له.

فسأله: ماذا تعالج من فرسك هذا؟

فقال: إنى أظن أن هذا الفرس قد استجيب له!

قلت: وما دعاء بهيمة من البهائم؟!

قال: والذى نفسى بيده.. ما من فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم.. إنك خولتنى عبداً من عبادك.. وجعلت رزقى بيده.. فاجعلنى أحب إليه من أهله وماله وولده..

فانظر كيف كانت أمنية الفرس.. أن يظل فى وعى صاحبه ركوباً فى معركة الحق.. وألا يشغل عنه بما يخلد به إلى الأرض من أهل ومال وولد.

إنه التدبير الإلهى إذن.. يجعل من البيئة الإسلامية معسكراً تدريبياً يوحى كله

بالجهاد والإعداد.. إلى حد يجعل من تعلم الرمى عبادة يتقرب بها العبد إلى ربه.. بحيث لو نسى الرمى يوماً كان ذلك معصية ينبغى التوبة منها بالرجوع إلى إجادتها والتدريب عليها..

يقول ﷺ: **«من ترك الرمى بعد ما تعلمه رغبة عنه.. فإنها نعمة تركها.. أو كفر بها»** على أن يتم ذلك فى حدود الاستطاعة البشرية.. وتبقى نتيجة المعركة بعد ذلك إلى الله وحده..

دروس من غزوة بدر:

فى بدر حاول بعض الصحابة أن يستجيبوا لدوافع النفس الراغبة فى الراحة.. فراراً من تكليف الحق.. فحسم الله تعالى القضية فى قوله تعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ. وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ. لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[1].

لقد كرهوا خوض غمرات القتال إيثاراً للراحة والرخاء الحاصل بامتلاك العير.. وجادلوا الرسول فى ذلك جدال من يرى الموت بعينه فهو يتوقاه.. ولكن الله تعالى يريد إحقاق الحق والتمكين له فى الأرض. ولن يكون ذلك بالإخلاد إلى الراحة. بل بحمل السلاح دفاعاً عنه... ولو اتبع الحق أهواءهم لما ارتفعت للحق راية. ولا سمعت له كلمة. ولا انتصب ميزان.

ومن هنا كان لابد من القتال تحقيقاً لمراد الله تعالى.. وتدريباً للكتائب المؤمنة على العيش فى الظروف الصعبة تمرساً بها. حفاظاً على الأمانة التى حملوها.. ليسلموها للأجيال من بعدهم..حتى تظل كلمة التوحيد باقية..ودولة الحق قائمة.

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: ٥ ـ ٨.

بين بدر وأُحُد:

بعد انتصار المسلمين فى بدر تحقق لهم ما يلى:

١ ـ ساد الإسلام وعلت كلمته.

٢ ـ استسلم بنو قينقاع من اليهود بعد أن حاصرهم المسلمون لنقضهم العهود وإيذائهم المسلمين.

٣ ـ أسكت النصر صوتاً معادياً كان يشبب بنساء المسلمين ويؤلب عليهم قبائل العرب وهو كعب بن الأشرف.

٤ ـ حاول أبو سفيان مستميتاً أن يغزو المسلمين. وفاء بنذره ألا يمس رأسه ماء حتى يتم ذلك. وأثناء ذلك ظهر التحالف الباغى بين المشركين واليهود حين نزل أبو سفيان على سلام بن مشكم سيد بنى النضير. فأذن له. وكان فى خدمته.. ولكن الرسول ﷺ تعقبه.. فرجع إلى مكة خائباً.

[وما زال عطاء «بدر» مستمراً][1]

دروس فى القدوة:

افتتحت غزوة بدر بالقدوة الحسنة:

فالمبارزون بين يدى الغزوة.. والمعرضون حياتهم للخطر هم أقرباء القائد الأعلى: حمزة.. وعلىّ.. وعبيدة.. رضى الله عنهم.

وإذ يرى الجيش ذلك.. فلم يبق لجندى عذر فى حشد كل طاقاته لحساب المعركة التى يدفع القائد فيها رحمه ليكونوا على خط النار.

ولقد برز أبو حذيفة رضى الله عنه يريد مبارزة أبيه «عتبة» ولكنه ﷺ يمنعه.. فيعفى الولد.. والوالد معا من لحظة غاية فى الإحراج..

وهو كذلك موقف لحساب البر الذى يجب أن يصان.. حتى فى أحرج اللحظات..

---

(١) اعتمدت فى هذه الفقرة على الذاكرة وحدها.. وما اختزن فيها مما قرأته وسمعته وتأملته. وأثبته هنا فى الطبعة الثالثة.

ومن المشاهد التى لا تنسى: أن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه - وكان كافرا -. قال: من يبارز فبرز له أبو بكر رضى الله عنه.

ولكنه ﷺ يمنعه قائلا: **«أبق علينا نفسك يا أبا بكر!!»**

ومما قاله عبد الرحمن لأبيه: لقد عرضت لى - تمكنت من قتلك - ولكن لم أصبك!

فقال له أبوه: ولو عرضت لى مرة واحدة لقتلتك!!

والقدوة دائما:

ولقد ختمت الغزوة كما بدئت: بالقدوة:

فمع أن العباس رضى الله عنه كان يخبر الرسول ﷺ بتحركات قريش - وقبل أن يعلن إسلامه - إلا أنه لمّا وقع فى الأسر.. رجاه أن يعفيه من الفدية! بحجة أنه كان مسلما سرا.

فقال له ﷺ: **«أما ظاهرك.. فكان علينا. والله أعلم بإسلامك ويجازيك»**.

وتقدم الأنصار برجاء إلى الرسول ﷺ قائلين: إئذن لنا أن نترك لابن أختنا العباس فداءه..

فرفض ﷺ قائلا: **«لا والله.. لا تذرون له درهما»**.

فقال له العباس: حط عنى الفدية لأنى فقير!

فقال له ﷺ: **«فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل وقلت لها. إن أصبت فى سفرى. فهذا لبنىّ»**.

فقال العباس: هذا شىء ما يعلمه إلا أنا.. وأم الفضل... ثم أخذ الفداء من ابنى عمه: عقيل. ونوفل بن الحارث... وفى رواية أنه ترك الأمر للصحابة. فإن شاءوا اعفوه.

وعلى أى حال: فأقارب الحاكم هنا..لا يمنحون تسهيلات. وإنما هم كغيرهم.. فلا محاباة.. ولا استثناء.

وهكذا يتأكد ما للقدوة من آثار.. هذه القدوة النابعة من الخلق العظيم.. إن

الحق تعالى يقول لنبيه ﷺ : ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ . . ولم يقل له: وإنك لعلى قوة. . أو مال. . أو جاه.

وإن تعجب فعجب كيف كانت الطبيعة العربية - حتى فى غيبة الإيمان ووقت الشدة - كانت تعطى القدوة من نفسها: فقد قال المشركون لما برز على وحمزة وعبيدة: أكفاء. . كرام. . وهو غاية الإنصاف. . والذى يعززه موقف هند بنت عتبة حين عرضت خدماتها على الهاشميين بعد أن قتلوا أباها عتبة. . وأخاها الوليد!؟

وبين هذه البداية وتلك النهاية كانت هناك دروس وعبر:

فقد سول الغرور لأبى جهل أن يقول لرجاله: هاتوهم - يعنى المسلمين - هاتوهم فى السلاسل مقيدين. . ولا تقتلوهم. .

ثم كان عاقبة السوءى. . أن مات بالهوان. . قبل أن يموت بالسيف!!

ومضى على نفس الطريق زميله فى الغرور والتسلط: أمية بن خلف. . . لقد رآه بلال فأقسم قائلا: لا نجوت إن نجا. . ثم هجم عليه فقتله!؟

القيادة المؤمنة:

وبينما الغرور هناك يلعب برءوس الطغاة. . فألهاهم عن حسن الإعداد للمعركة. . كانت القيادة المؤمنة تخطط للنصر المبين توكلا على الله تعالى:

أمرهم ﷺ بما يلى:

١ - ألا يحملوا عليهم. حتى يأمرهم.

أ - ضمانا لوحدة الصف.

ب - ولتكون الضربة موجعة. . كأنهم رجل واحد.

٢ - ثم قال لهم:

«**استبقوا نبلكم - حافظوا على أسلحتكم - وإن اكتنفوكم - أى غشوكم واقتربوا منكم - فانضحوهم بالنبل..**».

وذلك - كما يقول العسكريون -: توفير للسلاح. . لأن السهم مع القرب سيصيب حتما. . أما الضرب من بعيد. . فإصابته غير محتمله. .

قيمة العلم:

وجلس أبناء المسلمين يتعلمون على يد الكفار.. هكذا.. وبلا حساسية.. والحكمة ضالة المؤمن.. والعلم ملك للجميع.. فليس هناك علم شرقى.. وعلم غربى.. والمطلوب فقط أن ينضبط العلم بقانون الأخلاق.

إن العالم اليوم.. ليس فى حاجة إلى علماء.. فما أكثر العلماء حين تعدهم.. ولكنه فى حاجة إلى رجال ذوى أخلاق.. وزعامة يلتفون حولها على أساس من هذه الأخلاق..

وهذا سر انتصار المسلمين فى بدر:

بالايمان: الذى يصنع العجائب.. والهمم: التى تزيح الجبال..

لقد قطع محمد بن القاسم.. الفتى المؤمن.. قطع خمس محيط الأرض على بعير.. أو سيرا على القدم.. حتى وصل إلى الهند..

ومن قبله لبس «النعمان» فى نهاوند.. لبس الأبيض.. لِيُرى.. ثم أخذ معه كفنه تحريضا للجنود..

لقد حرصوا على الموت فوهبت لهم الحياة.. وأين منهم قواد حرصوا على الحياة.. فماتوا..

فى واحدة من المواقع فى شمال افريقيا.. عثر جنرال إيطالى على أحد رجاله. مختبئا فى حفرة من الأرض.

فصاح به الجنرال: أخرج إلى القتال!؟

فأجابه الجندى: ولكنى أيها الجنرال.. عثرت على الحفرة قبلك!!!

قانون الحرب:

فيما كتبه أبو بكر رضى الله عنه إلى بعض قواده ما يشير إلى ضوابط الحرب التى لا ينبغى أن يقودها الانفعال وصاه أبو بكر فقال:

إذا سرت فلا تعنف أصحابك فى السير ولا تغضبهم، وشاور ذوى الآراء منهم واستعمل العدل، وباعد عنك الجور، فإنه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم وإذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ

دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تحرقوا زرعا ولا تقطعوا شجرا، ولا تذبحوا بهيمة، إلا ما يلزمكم للأكل ولا تغدروا إذا هادنتم، ولا تنقضوا إذا صالحتم وستمرون على أقوام فى الصوامع ورهبان ترهبوا لله فدعوهم، وما انفردوا إليه، وما ارتضوه لأنفسهم فلا تهدموا صوامعهم، ولا تقتلوهم - والسلام.

إنها الحرب.. بل إنه الجهاد المحكوم بقيم الإيمان..

وتذكر هنا كيف أمر ﷺ أصحابه قائلا:

«**من ظفر بهبّار أو رفيقه..**» ممن أسقط «زينب» من فوق ظهر بعيرها.. وكانت حاملا.. «**من ظفر بهما فاحرقوهما**».

ولكنه ﷺ.. وهو رحمة العالمين.. يعود عن قرار الإحراق..

ذلك بأن لحظة الانفعال الغاضبة لا تسمح بقرار سديد.

لقد كانت غزوة بدر كما قيل بحق:

كانت أصبع اتهام يشير إلى صنفين من الناس:

١ - من آمن طمعا.

٢ - ومن آمن خوفا.

وكلاهما يريد المنفعة ولا يريد الإسلام والبقاء للأصلح دائما.

{انتصاراتنا فى رمضان}

{سرية سيف البحر} رمضان سنة ١ هـ

لما كانت المواجهة بين الحق والباطل حتمية.. كان لابد من إعداد الأمة.. لها.. حتى إذا تلاقى الجيشان استطاع المسلمون بهذا الإعداد أن يحققوا النصر المبين.

ومن صور هذا الإعداد: إرسال بعض السرايا. إلى جهات مختلفة {قبيل بدر} وذلك لتحقيق ما يلى:

١ - استكشافُ الطرق المحيطةِ بالمدينة.

٢ ـ الإعلامُ بأن المسلمين صاروا أقوياء. قادرين على الإمساك بزمام المبادرة.

٣ ـ ما يترتب على ذلك من خوف الأعداء الذى يفرض عليهم مراجعة النفس قبل التَصدِّى للمسلمين.

٤ ـ وليرفع المعتدون أيديهم عن المستضعفين من المسلمين فى مكة.

ومن هذه السرايا: سريّة سيف البحر [ساحل البحر].

لقد اختار ﷺ حمزة رضى الله عنه أميرا لهذه السرية. التى بلغ عددها ثلاثين راكبا.. يُلاحَظ أنهم كانوا من المهاجرين جميعا. ولم يكن فيهم من الأنصار أحد.

وكأنما يلفتون نظر الأعداء فى مكة وما حولها إلى أن المهاجرين لا يَحْتَمُون بالأنصار.. وإنما هم بقوتهم الذاتيةِ يتحركون على الجبهة الواسعة بلا منازع. فى تحدٍّ للقوى العدوانية المتربصة.

وكان لهذه السرية هدف مباشر هو: اعتراض عير لقريش آتيةٍ من الشام. وفيها أبو جهل بنُ هشام فى ثلاثمائة راكبٍ من أهل مكة.

وكان المتوقع أن يلتحم الفريقان.. ولو حدث هذا لكان القتال عنيفا. نظرا للثَّأر القديم بين حمزة وبين أبى جهل، الذى شجّ حمزة رأسه يوم أن اعتدى على الرسول ﷺ.

ولكن.. لم يكن بينهما قتال.. من حيث تصادف وجود حليف للفريقين هو مَجْدى بنُ عمرو الجُهنى. فحجز بينهم. فانصرف القوم. ولم يكن قتال.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ لأحدٍ من المسلمين. كما قال ابن عبد البر.

وكانت الراية بيضاءَ.. ترفرف فى جو السماء.. تعبيرا عن طلاقة القوى المؤمنة التى تبدأ منذ اليوم تلعب دورها المرموقَ فى تأديب الطغاة.

وحين يعقد ﷺ اللواء لعمه حمزة رضى الله تعالى عنه.. فإنما يقدم المثل الأعلى الشاهد بصدق القائد الذى يرمى بأقربائه على خط النار دفاعا عن الحق..

ولا شك أن لذلك أثرَه فى قلوب القاعدة التى ترى ذلك.. فتُسارعُ إلى

الفداء. بعد ما أعلن القائد أنه وأهلَه أول من يَرْوِى شجرة التوحيد بدماء أهله وأعز الناس لديه.

وقد حققت السرية أهدافها.. وبدا ذلك فى تراجع أبى جهل.. مع ما كان يملكه من عتاد أقوى.. وعَدَد أكثر.. وما كان ليمنعَ أبا جهل إلا إحساسُه الحادُّ بما صار إليه المسلمون من قوة قادرة على النيل من أعدائها.

وقد رَوَوْا لحمزة هنا شعرا ينوِّه فيه بموقف المسلمين.. بقدر ما يندد بالمشركين. قال:

ألا يا لقومى لِلتَّحكُّم والجَهْلِ ... وللنَّقصِ من رأى الرجال. وللعقلِ

وللراكبينا للمظالم. لَمْ نَطَأ ... لهمْ حُرُماتٍ من سَوَامٍ ولا أهل

كأنَّا نَبَلْناهم.. ولا نَبْلَ عندنا ... لهم.. غيرُ أمر بالعفاف وبالعدل

وأمرٍ بإسلام. فلا يقبلونه ... وينزل منهم مِثْلَ منزلةِ الهَزْلِ

فما بَرِحوا حتى انتدبت لغارةٍ ... لهم حيث حَلُّوا أبْتغِى راحة الفضلِ

بأمر رسول الله أوّلَ خافق ... عليه لواء لم يكن لاَحَ مِنْ قبلى

لواءٌ لديه النّصر من ذى كرامة ... إلهٍ عزيزٍ فعلُه أفضل الفِعْلِ

فقلنا لهم: حَبْلُ الإله نصيرنا ... ومَا لكمُ إلا الضلالةُ من حبل

فثار أبو جهل هنالك باغيا ... فخابَ. وردَّ الله كيد أبى جهل

من أساليب الدعوة:

لم تكن السرايا التى انساحت فى البلاد مدفوعة بنزعة العدوان المتعطشةِ إلى مزيد من الدماء..

ولكنها كانت محكومة بمجموعة من المبادئ.. أهمها:

أن قريشا هى التى بدأت بالاعتداء على المسلمين.. حتى اضطروهم إلى أكل أوراق الشجر.. وإذن.. فقتالهم.. ومصادرةُ أموالهم هو الجزاء الأوفى.. من جنس أعمالهم..

وكل قبيلة من قبائل العرب وقفت إلى جانب قريش.. تعتبر محاربة للإسلام.. واقفةً مع قريش فى خندق واحد.. أما من أسلم.. فقد عَصم بالإسلام دمه.. وماله.. وعفا الله عما سلف.

وعلى ضوء هذه المبادئ بعث رسول الله ﷺ سرية إلى «بنى مدحج» فى رمضان من السنة العاشرة..

وكان ذلك بعد غزوة تبوك وما صاحبها من فشل خطة الجبهة المعادية التى تستَّرت وراء شعار التدين عن طريق مسجد الضرار.

ثم ما كان من إسلام ثقيف.. وهدم «اللات» صنم ثقيف: وسقوطِ الصنم البشرى رأسِ النفاق «عبد الله بن أبى»..

فى هذه الظروف جاءت سرية «بنى مدحج» قبيل حجة الوداع.. وقبل بعث معاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما إلى اليمن.

وكان من خبرها: أنه ﷺ اختار «عليا» رضى الله عنه. على رأس جمع من أصحابه إلى قبيلة «مدحج»..ولحْظةَ الرحيل: كانت للرسول الكريم لفتة كريمة حين تلطف «بعلى» رضى الله عنه. فعممه بيده الشريفة.

ولعله كان حفل توديع مبسط.. وبليغ فى نفس الوقت.. وإنه لتارك أثره على قلب قائد السرية أنْسًا.. ومودة.. فى لحظة عصيبة.. تُحْلِى ما فى الرحلة من مرارة الكفاح.. بقدر ما تزود الجنود بِمَدد يتجاوزون به مشقة الطريق.

ثم وضع ﷺ لقائد السرية خطة العمل:

قال له:

«سر حتى تنزل بساحتهم.. فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله. فإن قالوا: نعم.. فمرهم بالصلاة. ولا تبغ منهم غير ذلك ولئن يهدى الله بك خير لك مما طلعت عليه الشمس. ولا تقاتلهم.. حتى يقاتلوك».

وتأمل معنى السلام فى شريعة رسول الإسلام:

أنه لا يأمره بفتح النار عليهم.. وعلى غرّة.. مستغلا عنصر المفاجأة فى

تحقيق نصر سريع.. وإنما عليه أن يتوخى نصرا أكبر هو: عرض قضية التوحيد التى إن اقتنعوا بها.. وأعلنوها.. فإن ذلك هو النصر الذى لا نصر سواه. فإذا قالوها بمحض اختيارهم.. فليتقدم على الطريق خطوة أخرى حين يأمرهم بالصلاة.. والصلاة فقط.. مؤقتا..

فإذا سرت عقيدة التوحيد فى مائهم.. ثم إذا بَنَوْا شريعة الصلاة على هذا الأساس.. فمن شأن الفريضة أن تدعوَ أختها..

وغدا.. أو بعد غد.. سيسارعون فى الخيرات.. ويلتزمون ببقية الفضائل طواعية واختياراً.. وإلا فإن إرهاقهم بالفرائض جملة.. سوف يحملهم على الفرار منها.. وبالجملة أيضا!

ولقد نفذ «على» رضى الله عنه الخطة بدقة.. فجاءه نصر الله والفتح: فقد دعاهم إلى الإسلام. فأَبَوْا. ورمَوْه بالنَّبل.

فصف رضى الله عنه أصحابه.. فَقَاتلوهم وهزموهم. فكف عن طلبهم قليلا لعلهم يرجعون. ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه.. وأعطَوْه الصدقة ليأخذ منها حق الله. فأجابهم رضى الله عنه. ثم رجع منصورا إلى رسول الله ﷺ... ووافاه بمكة فى حجة الوداع...

ومضى الركب الميمون يقترب من النصر الحاسم فى بدر.. وبعد حين من الدهر.. بمثل هذا الإعداد.. اعداد النفوس..

{من ذكريات بدر}

وبعد هجرة المسلمين إلى المدينة.. لم ينس المسلمون ذكرياتهم المرة مع الملأ من قريش:

الأموال.. التى نَهَبوها. والأعصابَ.. التى أحرقوها. والأجسامَ التى كانت غرضا يرمونه لهوا ولعبا..

ولذلك.. كان طبعيا أن تظل فكرة الثأر واضحةً فى وعيهم.. وأن يكون الصدام المسلح قدرا مقدورا.. إن لم يكن غدا.. فبعد غد.

ولقد حانت الفرصة الذهبية حين بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبد الله. وسعيدً بن زيد ليقوما باكتشاف خَبر عير لقريش كانت قد أفلتت من قبضة المسلمين..

فلما شَاهَدَا أبا سفيان يمر بالعير. عادا مسرعين إلى المدينة فأخبرا رسول الله ﷺ الخبر.

ولم يكن الاستيلاء على العير غرضا أساسيا.. وإن كان فى ذاته ضربة اقتصادية لها أثرها فى كسر شوكة العدو..

ولكن الغاية الكبرى هى: وضع القوى الإيمانية موضع التنفيذ.. على أرض الواقع..

لقد آن الأوان ليعلن الحق عن نفسه فى شخص أبطال المسلمين الذين يتأهبون اليوم لمباشرة سلطاتهم فى تأديب العصاة.

ورغم أن المشركين قد تهيأوا للحرب. وأعدوا لها عدتها.. إلا أن نسبةً من الرهبة كانت راقدة هناك فى أعماقهم.. ولقد سولت لهم الرجوع.. إلا أن أبا جهل.. اخذته العزة بالإثم. فحرَّضهم على القتال قائلا:

[والله لا نرجعُ حتى نَردَ بدرا. فنقيمَ بها ثلاثا. فنَنْحرَ الجزور. ونُطعمَ الطعام. ونسقيَ الخمر.. وتَعزفَ لنا القيان. وتسمعَ بنا العرب. وبمسيرتنا وجمعنا. فلا يزالون يهابوننا أبدا].

ورغم نكوص بعض حلفاء قريش.. إلا أن جيش المشركين قرر أن يخوض المعركة..

أما على الجانب الإسلامى:

فقد كان الموقف بالنسبة لهم صعبا ولكن الإحساس بالصعوبة لم يدم طويلا.. فقد كان لابد من هذا اللقاء الأول.. الذى سوف يكون فرقانا بين الحق والباطل كما قال عز وجل:

﴿إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾

وبدأ العد التنازلى . .

[وكان الرسول ﷺ يتفقد الرحال. وينظم الصفوف. ويُسدى النصائح. ويذكِّرُ بالله وبالآخرة. ثم يعودُ إلى عريش هُيئَ له. فيستغرق فى الدعاء الخاشع. ويستغيث بأمدادِ الرحمن].

كما يقول أستاذنا الغزالى ـ رحمه الله تعالى.

وكان لهذه الدفعة الروحية آثارُها فى قلوب الصحابة الذين وَسوسَتْ لهم أنفُسهم لحظةً بالراحة. . لكنهم اليوم يَشمُّون رائحة الجنة. . وها هم أولاء يتنافسون. . فينتصرون قبل خوض المعركة الكبرى فى معركتهم مع النفس. . والتى لابد من حسمها قبل أن يكون لقاء ودماء.

قبل حرب ـ ١٩٦٧ ـ كان العرب على غاية ما يكون التمزق.. لكنهم وقبل حرب ١٩٧٣ بدأوا يفهمون الدرس جيدا وهو: أن الله تعالى قد يَبْتَلِى الأقوياءَ بالضعفاء يوما.. سخريةً من هؤلاء الأقوياء. لا تميت فى صدورهم نوازع النهوض.. وإنما هى السخرية الباعثة على الحركة.. وإذا كان المحار فى البحار لا يصنع اللآلئ إلا إذا صدمه جسم غريب.. فقد كانت هزيمة يونيو ١٩٦٧.. ذلك الجسم الذى اخترق جسد الأمة العربية والإسلامية. فجادت بعد ذلك بما فى قلوبها من أصداف.. بهرت العالمين..

وكما يقول البصراء بسنن الله تعالى فى الاجتماع البشرى:

ما دام هناك تنازع.. فهناك حرب.

وما دام هناك مُنازِع.. طامع.. مستغل.. فهنالك مشروعية هذه الحرب.

والأمة التى تُفرَض عليها الحرب.. ثم لا تحارب. ذلَّت.. إن الأصل هو: السلام... إلا إذا فُرِضت الحرب.

ولقد فُرضت علينا الحرب.. فكان لابد من خوضها..

ولكنها كانت قبل الاشتباك المسلح كانت امتحانا عسيرا للإرادة المسلمة: لقد ظن الجاهلون بأمتنا الظنون.. وحَسِبوا ألا تكون عزة فى صدورها تبعثها من جديد.. فأساءوا بنا الظن.

ولكن الحق تعالى أخلف ظنونهم:

فالعملاق قد ينحنى يوما.. تواضعا.. أو إشفاقا.. أو حيلة.. وقد يظن الأقزام أنهم بهذه الانحناءة صاروا يسامتونه طولا.. لكن. وعندما ينتصب العملاق واقفا.. يحس الأقزام أنهم ما زالوا أقزاما.. ثم يحاولون الرقى على أكتافه فلا يستطيعون..

ومن ثم.. يكتشفون الحقيقة المرة وهى: أنهم ما زالوا فى القاع.. بينما العملاق يلامس السماء!.. ثم ينتزع الأقزامُ الاعتراف بالحقيقة من بين ضلوعهم انتزاعا..

وهكذا كنا قبل العاشر من رمضان.. ثم صرنا إلى ما صرنا إليه من عزة وحكمة مَنَعَة فجرّها الإيمان الذى تميزت به هذه الأمة.

لقد أوصى عمر بن الخطاب يوما ألا يقود «البراء بن مالك» شقيق أنس - رضى الله عنهما.. ألا يقود جيشا.. لأنه كان جسورا يَبْحث عن الشهادة.. ويُخشى أن يَقُود جنودَه إلى الحتوف.

ولقد تعلمنا الدرس.. حين أمسكت الحكمة بزمام المبادرة.. فجاء نصر الله والفتح.

وعاد للأمة رشدها الغارب: عن طريق قيادة حكيمة مؤمنةٌ.. تمثلت روح الإيمان وقيمَهُ.. فمنحها الإيمان نورا يسعى بين يديها فرأت الحق حقا.. والباطل باطلا..

وكانت الأمة على مستوى القيادة التزاما.. وإقداما.. وتجردًا فى شخص هذا الطيار المؤمن والذى هبط وكان صائما.. لكنه بدل أن يطلب كوبا من الماء البارد.. طلب أن يتربع فى غرفة القيادة مرة أخرى.. ليستأنف القتال من جديد.

ولقد أفزعَتْ هذه الروحُ العاليةُ إسرائيل.. وتأكد لها استحالةُ قهرها بالسلاح.. والنار..

وقد لَجأَتْ إلى الجنس.. حين أرسلت مجموعة من الفتيات إغراءً.. وإغواءً.. لكن مواكب الإغواء وجدت من روح المقاومة الإيمانية ما حطم هذا المكر السيئ.. وعندئذ.. لاح الصباح مبشرا بنصر مبين.. حقَّقَتْه أمةٌ جديرة بهذا النصر فعلا: لأنها بالطبيعة صالحة له.. وأن الهزائم فى حياتها استثناء.. وابتلاء.. لكن إرادة القتال مستقرة فى ضميرها... وطبيعتها الخيِّرة المتأبية قادرة على استدراك ما فاتها..

وقد تستورد الأمة أسلحة من هنا.. وهناك.. لكنها لن تستورد الرجال الذين يخوضون لها معركتها..

وقد أثبتت أمتنا يوم العاشر من رمضان أنها بالإيمان قادرة على مواجهة العدوان ودحْرِه.. فلْنَحتَفظ بلِيَاقَتِنا الإيمانية.. قبل لياقتنا العسكرية.. لنظل بهذا

الكمال حارسا يقظا يؤدبَ القوى العدوانية فلا يكون قتال.. ولا تراق دماء إنسان. مهما كان دين ذلك الإنسان.

{سرية الميفعة}

يقولون: إن خير وسيلة لمنع الحرب: أن تستعد لها... وقد كان من أهداف السرايا الإسلامية إشعارُ المشركين بأن المسلمين قادرون على رد العدوان.. على رد الكيل كيلين.. والصاع آصُعًا.. بقدر ما كانت شفاءً لصدورِ قومٍ مؤمنين.. يرى الأعداء منهم اليوم قوة.. يمسح الله بها عن جبين المؤمنين لآلئ العرق فوق جباههم التى يجب أن تظل مرفوعة أبدا.

ومعنى ذلك: حفظُ التوازن بين القوى على أرض الجزيرة.. حتى لا يكون قتال بالمرة..

ومعنى ذلك أيضا:

أ ـ إيقافُ بأس الكافرين.

ب ـ منع الفساد من الانتشار فى الأرض.

جـ ـ إنقاذ المساجد والصوامع والبِيَع من الدمار.

د ـ معاقبة المعتدين.

وكان لسرية «المَيْفعَة» ـ وهو وادٍ قريبٌ من مكة على بعد يومين منها {فى رمضان من السنة السابعة}.. كان لهذه السرية أثرُها فى التمكين للحق. وإرهاب الأعداء حتى يفكروا ألف مرة قبل أن يتخذوا قرار الاعتداء على المسلمين.. بقدر ما كانت شهادة صدق على احترام إنسانية الإنسان.

كان قائد السرية «غالب بن عبد الله اللَّيْثى» رضى الله عنه... ومعه مائة وثلاثون رجلا.

ولما وصلوا إلى هناك. وجدوا القوم على أتم الاستعداد لمنازلة المسلمين.

وقد كان لهذه المفاجأة انعكاسُها على خُطَّة السرية التى قرر قائدها الهجومَ الفَورى.. واتخاذَ عنصر المفاجأة ذريعة إلى تشتيت القوم الذين لم يتركوا

للمسلمين فرصة يَعْرضون فيها خطة السلام.

وقد حقق الهجوم ثمرته.

أ ـ فقتلُوا بعضا.

ب ـ وأسروا آخرين.

وحدث أن «أسامة بن زيد» طارد رجلا من المشركين. وتمكن منه... ولما رأى المشرك أنه فى قبضة أسامة.. وأنه ميت لا محالة.. نطق بالشهادة.

ولم يقبل منه أسامة تشهده. وظن أنه إنما تشهد فرارا من الموت المحقق.. فما كان من أسامة إلا أن قتل الرجل.

وكانت المفاجأة المذهلة عندما رجعت السرية إلى رسول الله ﷺ. ثم أخبروه بما فعل أسامة.

وكان الإخبار بما حدث فى حد ذاته دلالة على الفطرة السليمة التى لم تقتنع بما حدث.. فأحالت القضية إلى الرائد الذى لا يكذب أهله..

وبدأت المحاكمة السريعة.. حين قال له ﷺ: **«أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله.. فكيف تصنع بلا إله إلا الله؟»**.

قال أسامة: يا رسول الله: إنما قالها متعوِّذا من القتل.

فقال ﷺ: **«هل شققت عن قلبه. فتعلمَ أن صدق أم كذَب؟»**

فقال يا رسول الله: استغفر لى... وأنزل الله قوله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء ٩٤].

ثم أمر الرسول ﷺ أسامة أن يعتق رقبة كفارة الخطأ فى القتل.

لقد أخطأ حب رسول الله ﷺ.. فلم ينج من المساءلة..

وبدت روح الإسلام الحريص على إنسانية الإنسان.. والذى يرحب بأية بادرة سلام من قِبَل أعدائه.. لتكون بذرة يستثمرها مع الأيام.. لتصبح من بعد شجرة

باسقة الأغصان..

وتأمل كيف قامت الدنيا ولم تقعد لمقتل رجل قال كلمة التوحيد فى لحظة حرجة.. ومع ذلك: تنزل الآيات الكريمة تُعاتب المتسرعين.. ثم ما كان من تحرير رقبة تأخذ مكانها تحت الشمس مكان أخت لها ماتت خطأ.. حرصا من الإسلام على الدماء أن تراق.. تحت أى ظرف من الظروف..

أجل تأمل ذلك.. لتعلم أن انتصار الاسلام من بعد ـ فى بدر لم ينشأ من فراغ.. وإنما استأهله بهذا العدل ـ بل بهذا الإحسان.

قيمة الشورى:

كانت البداية فى بدر.. تشير إلى النهاية:

١ ـ فلم يشأ ﷺ أن يأخذ قرار الحرب وحده.. وهو المؤيد بالوحى الأعلى.

وإنما استشار أصحابه قائلا: «**أشيروا علىّ أيها الناس**».

وتنافس المهاجرون والأنصار:

قال المقداد بن عمرو: يا رسول الله: امض لما أمرك الله. فنحن معك. والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون..

فقال له الرسول ﷺ خيرا. ودَعَا لَهُ.

ثم أعلن سعد بن معاذ سيدُ الأنصار: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله. فقال: «**أجل..!**»

فقال: قد آمنا بك وصدقناك. وشهدنا أن ما جئت به هو الحق. وأعطيناك على ذلك عهودنا. على السمع والطاعة لك. فامض يا رسول الله لما أردت. فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق: لو استعرضت بنا البحر.. فخضته لخضناه معك... ما تخلف منا رجل واحد.. وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا.

إنا نصبر فى الحرب صُدُقٌ عند اللقاء. لعل الله يريكَ منا ما تقربه عينك

وسُرَّ رسول الله ﷺ ثم قال: «**سيروا على بركة الله وأبشروا: فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم**».

وهكذا يضع القائد قيمة الشورى التى تتيح للآراء أن تشتجر.. فى محاولة للوصول إلى قرار يأخذ حظَّه من التمحيص.. فلا تكون خسائر.. أو تكون.. ولكن فى أدنى مستوى.

٢ ـ ثم كانت القدوة الحسنة التى أعطاها القائد من نفسه:

وقد ظهر ذلك عند المبارزة.. حيث اختار أقرباءه ليكتبوا الحروف الأولى بدمائهم.. فى قصة اللقاء الحاسم:

خرج عتبة بن ربيعة. بين أخيه شيبة وابنه الوليد.. ودعا إلى المبارزة.. فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة... فقالوا: ما لنا بكم من حاجة.. ثم نادى مناديهم: يا محمد: أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا عبيدة بن الحارث**[1] **وقم يا حمزة. وقم يا على**».

وانتهت المبارزة بقتل آل عتبة..

ولا شك أن لهذه البداية دلالتها:

فأسرة القائد الأعلى تأخذ حظها الأوفى من مغارم الكفاح.. وبذلك لا تكون الرسالة كلاما يقال.. أو يُكَال!

وإذا كان القواد من غيرنا.. يكررون.. ولا يحررون.. فإن محمدا ﷺ عندما أراد القتال.. قرر.. وحرر.. بالشورى.. وبهذه القدوة. إرادة حضٍّ الجنود الذين تبين لهم صدقُ القيادةِ التى تُعطى المعركة أثمن ما لديها.. بل كلّ ما لديها.. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

(١) ابن عم رسول الله ﷺ. وشقيق أبو سفيان بن الحارث وهو غير أبى سفيان بن حرب الذى عرضه العباس على الجيش.

الاسلام والسلام:

[كان السيف فى الإسلام محكوما بقانونه: لا يرفع إلا فى إطاره.. ولا يُخفض إلا بقانونه].

إن الجهاد فى الإسلام يتم «باسم الله». ومن ثم فهو برىء من الظلم والتسلط.. ثم هو تركيز على «مَنْ كفر بالله».. فلا يُشرع للمجاهد أن يقتل وليدا.. ولا شيخا.. ولا امرأة ولا راهبا فى صومعته. .ولا يحل له أن يقطع شجرا.. أو يجفف نهرا.. وهو برىء أيضا من الغدْر.. والتمثيل..

هذا إذا فُرض القتال كمرحلة أخيرة. وإلا فهو مسبوق بمراحل طويلة تتم على النحو الآتى[1]:

فالجيش الإسلامى مأمور بتقوى الله تعالى فى وقت لا يصلح غير التقوى ضابطا للسلوك فى معترك الانفعالات على الساحة العسكرية. وعلى القائد:

عرض الإسلام أولا.. فإذا قَبِل الكفار الإسلام.. فقد كفى الله المؤمنين القتالَ... وإلا فعليهم أن يدفعوا الجزية إسهاما منهم فى خَدَمات دولة تحميهم وتدفع عنهم وتُيَسر لهم أمور معاشهم.. ولا تفرض عليهم القتال..

بل إن المسلم يموت على أرض الجبهة دفاعا عن أخيه المسلم.. والذمى أيضا! فإن رفضوا الجزية أيضا.. فقد وجب القتال كضرورة هى آخر الدواء.. ولابد مما ليس منه بد..

ولكن الإسلام حتى آخرِ لحظة لا يأمر أتباعه ببدء القتال.. بل ليقاتل.. ولا يقتل.. فإذا قَتَل الأعداء مسلما.. لم يقتلوا نظيره أيضا.. بل عرضوا جثته.. ودماءه على الأرض.. فى محاولة أخيرة لتلافى الخطر المحدق بالفريقين معا.. وذلك قوله ﷺ لبعض قواده:

«لا تقاتلوهم.. فإن أَبَوْا.. فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإن بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أَروُهم ذلك وقولوا لهم: هل إلى خير من هذه

(١) راجع المبسوط للسرخسى.

السبيل.. فَلأَنْ يهدىَ الله بك رجلا واحدا خيرٌ مما طلعت عليه الشمس وغَرَبَت».

ومع هذا التريث المفروض.. فالقائد مأمور بأن يترك القوم ليلة يفكرون فيها تفكيرا ربما قادهم إلى وضع السلاح..

إن السلاح لا يُنشئ الإيمان.. كما أن البرهان العقلى قد لا يقود إلى الإذعان.. ولابد من تأليف القلوب.. واتخاذ أيسر السبل الموصلة إلى القلوب التى هى بطبعها أسيرة الإحسان... وطالما استعبد الإنسان إحسان.

من أسباب انتصار المسلمين فى بدر:

﴿وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾ [الأنفال: ١٠].

كان تدبير الحق تعالى واضحا فى معركة بدر.. وكان على المسلمين فقط أن يستعدوا بكل ما يملكون من طاقة.. ثم يكون النصر من عنده سبحانه وتعالى جزاء من جنس العمل..

وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه:

﴿فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلاً﴾ [النساء: ٨٤].

إن للنصر سننا لابد منها للفوز به.. وإذا بدا الأعداء مغرورين بما يملكون.. وما ينفقون.. فإن ذلك مما يضاعف جهود المؤمنين للتصدى لهم..

ونذكر هنا قول الشاعر:

أنا لا ألوم المستبد إذا تجبَّر أو تعـــدَّى

فسبيلُه أن يستبد.. وشأننا أن نستعدا

من أجل ذلك.. كان تحريض الرسول ﷺ على القتال.. عن طريقين:

١ ـ الدعاء.. الذى يرفع الروح المعنوية.. ويشعر فى نفس الوقت أن الله سبحانه معنا.. مع التركيز على ما أعد الله تعالى للمجاهدين فى الجنة.

٢ ـ التدريب العملى على فنون القتال. ومصابرة الأعداء:

عن عتبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ. وهو على المنبر يقول:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى. ألا إن القوة الرمى»[١].

ولقد تحولت هذه التوجيهات إلى واقع عملى:

قال رجل لعقبة بن عامر: تختلف بين هذين الغرضين وأنت شيخ كبير يشُقُّ عليك؟

قال عقبة: لولا كلام سمعتُه من رسول الله ﷺ. لَم أُعانِه. قال: وما ذاك؟ قال: سمعته يقول:

«من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا»[٢].

فهذا شيخ طاعن فى السن يمارس التدريب الشاق على إصابة الهدف.. وهو دور مَنوط بالشباب..

وإنه لَيَسْتَسْهِل الصعب. استجابة لرسول الله ﷺ.. والذى حَمَّل الجندى المدرب مسؤولية الغفلة عن خبرته فى القتال.. والتى يجب أن تظل قائمة على أصولها بدوام التدريب.. حتى آخرِ رَمَق من الحياة.

ولا شك أن الشباب.. عندما يرون هذه القدوة.. فسوف يسارعون فى التدريب بل والتدافع إليه بالمناكب.

ثم يتجاوزون ساحات اللعب الذى تقتل الوقت.. إلى ميادين التدريب على حمل السلاح.. وصناعة الموت فى سبيل الله.

وقد أخذ التدريب على القتال آفاقا أرحب حتى صارت كل حركة تسهم فى تحقيق النصر محسوبة فى ميزان الرجل حتى تأديبه الفرس..

وفى ظل هذه التربية الإيمانية.. نشأ الجندى المسلم: البحّار.. والفارس.. والرامى والهدّاف.

(١، ٢) مسلم: ٦/ ٥٢.

وهكذا على مختلف الأصعدة.. بل ارتفع الإحساس.. حتى بدا تعلم فنون القتال نعمة تذكر فتشكر.. ولعل هذا واحد من أسباب النصر فى غزوة بدر.

فعندما يحب المؤمن سلاحه ويقبل على دوره راضيا.. فلا شكّ أنه واصل بإذن الله إلى ما يريد.. ويريد الاسلام.

غزوة بدر والطريق إلى العزة:

إن الدين الذى يخاطب العقل. ويتجاوب مع الفطرة.. ما به من حاجة إلى فرض مبادئه بقوة السلاح.. والأمر متروك للعقل المفكر.. والنظرة المشتاقة إلى اعتناق الحق.. أما لغة السيف والدم.. فهى لغة الذين اتخذوا إلههم هواهم.

وهو ما يبرأ منه الإسلام.. إلا عندما تفرض الظروف ذلك.. وأحيانا يكون آخر الدواء: الكىّ... فإذا فرض القتال علينا.. فنحن الرجال..

وهذا ما حدث عندما استشار محمد ﷺ فى شأن إعلان الحرب ردعًا لقريش..

وقد كان المهاجرون والأنصار بخاصة عند حسن الظن بهم عندما أعلنوا وقوفهم خلفه ﷺ صفا واحدا.. فبشَّرهم بالفتح والنصر.

ولقد كانت المسارعة إلى بدر ملفتة للنظر: ساهم خيثمة ابنه فى الخروج.. فخرج سهم ابنه فى القرعة. ورُزِق الشهادة.

وهكذا تتجلى إرادة القتال فى ضمير الأمة.. وهذا واحد من دروس غزو بدر الكبرى..

وقد كان من أسباب التمكين لهذا السباق ما كان من مشورته ﷺ أصحابه بينما هو المؤيَّد بالوحى..

تلك الشورى التى تشرك الرجال فى صنع القرار لتكون المسؤولية عن تنفيذه مشتركة.. ومن ثم يكون التفانى فى سَبيله.

ولأن معركة بدر كانت طليعة المعارك.. ولأن قِلة العَدَد والعُدد ربما ثَبَّطت الهمم.. فقد كان للحق تعالى تدبيره الذى أكَّد الدور الإلهى فى إدارة المعركة:

ليعلم المؤمنون أنهم ليسوا وحدهم فى الميدان.. وأن عليهم أن يُطيعوا ويَستعدوا.. والنتيجة بعد ذلك على الله سبحانه.

ونلاحظ مع العلماء ملامح ذلك التدبير الإلهى فى مثل قوله تعالى:

﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق..﴾.. ﴿ويريد الله أن يحق الحق..﴾.. ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم..﴾.. ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى..﴾..

ومع ذلك فقد بدت روح المسارعة إلى الجهاد فيما أسلفنا من حديث خيثمة الذى رفض ابنه أن يتنازل له عن حقه فى الخروج للجهاد..

وأصاخت الدنيا إلى لون من الجدال فريد:

الوالد يرجو ولده أن يقعد فى البيت يرعاه.. لينطلق هو إلى ساحة الشرف..

لكن الولد يُعلن أنه: قد يتنازل عن حقه فى الثوب الجديد.. والجائزة المغرية.. بل قد يتنازل عن حقه فى الزواج.. أما التنازل عن الجنة.. فلا!! ولو كان الراغب أباه الذى رباه!

فانظر إلى روح الجهاد فى ضمير أمتنا.. وتعجب من معارك البيوت اليوم.. والتى صارت كطواحين الهواء لا تُشبع جائعا.

ولقد انتصر المسلمون بهذه الروح.. وحُق لهم أن ينتصروا..

وبهذه الروح الواحدة الموحدة تفردوا بالقمة دون غيرهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا. الذين حكمهم الهوى.. فسقطت الهمم. ونامت العزائم. وماتت الخواطر.. وقام الهوى حاكما.. فوصل بالملحدين إلى [عقلٍ عنصرى. وقلب حقود] فلم.. ولن.. يتحقق لهم أمل منشود!

من دروس القرآن:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ. بَلَىٰ إِن

تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[1].

يذكّر الحق تعالى أمة الإسلام بما كان منه سبحانه من نصر مبين فى بدر.. حين لم يكونوا فقط قلة بل كانوا أذلة بلا سلاح يكافئ سلاح أعدائهم.

ولقد استنزلوا بتقواهم نصر ربهم.. فليستمروا متقين.. ليظلوا أهلا لهذة المعية الإلهية.. متخذين من الشكر قيدا يستبقون به موقعهم العالى فى دنيا الناس.. ذاكرين فى نفس الوقت ذلك الموقف العصيب يوم بدر.

لقد كان نظر المجاهدين مُعلَّقا بالأسباب العادية.. فبدَوْا كاليائسين من نصر الله والفتح.. حين قارنوا بين أوضاعهم وأوضاع أعدائهم.. فعادوا بالمقارنة أكثر همّا.. ولكن الرسول ﷺ يبشرهم بمدد من الملائكة يزيد.. كلما زادت الثقة بالله تعالى.. لكن ذلك المدد النازل له ثمنه الذى يجب أن يُبْذل أولا.

إن الحق تعالى لا يمنح نصره للكُسالى العاجزين.. ولكن الجدير به هم:

الصابرون.. المتقون.. فإن تصبروا.. وتصابروا.. وإن تُضيفُوا إلى الصبر عملا إيجابيا مثمرا بالتقوى..

إن حدث ذلك.. ثم جاءكم الأعداء يزحفون من كل جانب.. فإن كيدهم عائد عليهم.. وسوف ينصركم الحق تعالى مهما كان عددكم ومهما كانت عدتكم.. ذلك بأن النصر لا يكون حاسما حتى بما استَحْدَث الناس من صواريخ.. ومدمرات.. ولكنه راجع بالدرجة الأولى.. إلى القلب.. الذى إذا صلح بالصبر والتقوى.. وقف الكون كله إلى جانب أهل الحق.. يشد من أزرهم.. لأنهم على الحق.. ويضبط حركاته على وقع أقدامهم. والكون مؤسس أيضا على الحق.. وإذن فهو معكم ضدّ الذين يمارون فى هذا الحق.. ويريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم.

---

(١) آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦.

ويجب أن يكون معلوما أن الملائكة لا تنوب عنكم فى إدارة رحى المعركة.. وإنما أنتم المسؤولون **شخصيا** عن نتائجها.. والملائكة فقط **بشرى** لكم.. **لتثبّت** قلوبكم..

فإذا اطمأنت القلوب.. وبلغ التفانى مداه.. جاءكم النصر المبين.. جاءكم فى ميقات يوم معلوم من عند واهبه سبحانه وتعالى

﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾

قيم أصيلة لتحقيق النصر:

﴿لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾.

بين يدى غزوة بدر.. جعل رسول الله ﷺ يعدِّل الصفوف وفى يده سهم يُعدِّل به القوم.

فمر بسوّاد بن غَزِيّة. وهو متقدم فى الصف على إخوانه.

فطعن فى بطنه بالقدْح - بالسهم - وقال: «**استو يا سواد**». فقال: يا رسول الله: أوْجَعْتَنِى. وقد بعثك الله بالحق والعدل. قال: «**فأَقِدْنى**» - أى اقتص لى من نفسك -. فكشف رسول الله عن بطنه وقال: «**استَقِد**»! فما كان من سواد إلا أن اعتنق الرسول ﷺ، فقبّل بطنه. فقال الرسول.

«**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله: حضر ما ترى.. فأردت أن يكون آخرُ العهد بك. أن يمس جلدى جلدك! فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ومن دروس هذا الموقف ما كان من حب أصحابه له ﷺ.. ذلك الحب الذى أغاظ أعداء الإسلام فاعترفوا.. حتى قال قائلهم:

ما رأيت أحدا يحب أحدا.. كحب أصحاب محمد محمدا.

وما أكثر الذين يحبون الرسول ﷺ اليوم.. لكنها العاطفة المشبوبة.. الحبيسة خلف الضلوع.. والتى يعبر عنها المحبون بالأناشيد.. **ولكن «سوادا»** يترجم حبه سلاحا.. يحمله إلى ساحة القتال.. حاملا روحه على كفه.. فداء للرجل الذى أخرجه من الظلمات إلى النور..

وإنه ليخرج إلى المعركة على أوفى ما يكون الولاء للقائد العادل.. الذى لم يجد حرجا فى أن يقدم نفسه لواحد من جنده.. ليقتص منه.. وعلى الملأ.

ومعنى ذلك: أن القائد.. العادل.. الودود.. يصوغ بهذا العدل.. وهذه المودة جنوده.. واضعا فى قلوبهم بذور الثقة بدولة تصون حقوقهم.. وتقف من خلفهم خط دفاع قوى.. يحمل الجندى يذهب إلى المعركة بكل كيانه.. مطمئنا إلى أهله وولده.. من ورائه.

وينطلق الجنود إلى المعركة مسلحين بالايمان.. ويعود ﷺ إلى «العريش» إلى غرفة العمليات. ومعه أبو بكر رضى الله عنه.. فيناشد ربه نصره الذى وعده قائلا:

«**اللهم إن تَهلكْ هذه العصابة اليومَ لا تُعبد**». وأبو بكر يقول: يا نبى الله: بعضَ مناشدتك ربَّك.. أى هون عليك.. فإن الله منجز لك ما وعدك.

وهكذا يستجمع النصر أسبابه:

بالتديب العنيف على فنون القتال.. ثم إحالة القضية برمتها على الباب العالى.. فالنصر من عنده سبحانه وحده.. بعد أن يستنزله الإنسان بإفراغ الجهد المتاح..

وقد لاحظ العلماء ذلك الفرق بين قول الرسول لأبى بكر فى الغار: «**لا تحزن إن الله معنا**» فلم يكن هناك ما يعتمد عليه إلا الله وحده ثم ما كان فى بدر من هذا الدعاء الحار..

وقالوا: إنه ﷺ فى بدر أعدَّ سلاحا.. وجندا.. ويُخشى أن يعتمد الجندى على سلاحه. فكان هذا الإلحاح فى الدعاء..

الشاهد بأن الأمر كلَّه لله تعالى.. وليفهم المسلمون الدرس قبل أن يَحصُد الغُرور كل ما يحصنون. ومن حيث لا يحتسبون.

المستقبل للإسلام:

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾

حين انتصر المسلمون فى بدر قال اليهود تحديا: ستعلم غدا يا محمد إذا ما تلاقينا.. أننا نحن الناس..

وتلك هى النغمة النشاز.. والتى يرددها المستشرقون اليوم حين قالوا: عندما يحتك الإسلام بالحضارة سينتهى..

ولقد وَهِم اليهود.. ومَنْ احتطب فى حبلهم: فلم تكن للقوم نظرة مستقبلية واعية.. ولم يكن لهم إدراك شامل للواقع كما هو.

والأمر كما قال الرافعى:

[نحن ـ فى التنظير بين المدنيتين: الشرقية. والغربية ـ كالتنظير بين جوادين:

أحدُهما: مَخْلِىٌّ له الطريق..

والثانى: وُضعت أمامه العقبات..

فلو خُلِّى بين جواد الإسلام والطريق.. لظهر جواد الغرب إلى جانبه.. حمارا]!!

ذلك بأن الإنسان فى غيبة الإيمان فى صراع مع المنطلق العقلى.. والوجدان الدينى الذى هو فطرة فى قرار النفوس..

بينما الإنسان فى الإسلام: ناج من هذا الصراع.. فينطلق فى السلم.. للتعمير.. فى طبيعةٍ مثلِه مخلوقةٍ لله.. مسخرةٍ له تعالى.. فهى صديق مؤنس.. لا عدو محارب..

وهكذا الجندى المسلم دائما.. ومن ثم.. كان سلاحا من أسلحة القدر يعذب الله بيديه من طغى.

واليوم.. تترامى الأنباء مؤكدةً قدرة الإسلام على تحقيق النصر.. فى عصر تشهد كل الدلائل فيه على أن المستقبل له.

ومع هذه الحقائق الناصعة.. فما زال المستشرقون الأوربيون كما يقول الغزالى: [ينظرون إلى سرايا الإسلام كأنها ضرب من قطْع الطريق... وهذه النظرة صورة للحقد الذى يُعمى عن الحقائق. ويتيح للهوى أن يتكلم. ويحكم

كيف شاء.

وقد ذكَّرنى هذا الاستشراق المغرض بما حكوه عند قمع الإنجليز لثورة الأهلين فى أفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم. ويحاولون إجلاء الأجانب عنه.

قال جندى إنجليزى لآخر وهو يصف هؤلاء الأفارقة:

إنهم وحوش: تصور أن أحدهم عضَّنى وأنا أقتله؟!!

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين}

وإذا لم تستح: فاصنع ما شئت.. وقل ما شئت!!

أجل لم يكن المسلمون قطَّاعا للطريق.. كما يزعمون.. وإنما خاضوا المعارك بالمبادئ السامية قبل أن يخوضوها بالسلاح القاطع.

سأل هرقل قومه وهو فى أنطاكية. حين جاءوه منْهزمين أمام المسلمين:

ويلكم!.. أخبرونى عن هؤلاء الذين يقاتلونكم.. أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى!

قال: أفأنتم أكثر أم هم؟ قالوا. بل نحن أكثر منهم أضعافا فى كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟

فقال له شيخ من عظمائهم: نحن ننهزم وهم ينتصرون من أجْل أنهم:

يقومون الليل.. ويصومون النهار. ويُوفون بالعهد.. ويأمرون بالمعروف.. وينهون عن المنكر. ويتناصفون بينهم.. أما نحن:

فنشرب الخمر.. ونزنى.. ونركب الحرام. وننقض العهد ونظلم}.

وبعد فهؤلاء هم صبيان الأمس: يحملون السلاح.. وقيل ذلك يحملونخلف ضلوعهم قلوبا موصولة بالحق الأعلى .

هذه القلوب التي يقف دورها في نصرة الحق عند حدِّ الولَه به .. وصياغة الأناشيد إعلانا له .. وإنما هي الأرواح تقدم قربانا له .. وفى صمت .

ولعل ذلك يكون نذيرا وتحذيرا للذين يتولّون تربية غلماننا اليوم .

إننا ـ أحيانا ـ نحبس أطفالنا في بيوت من زجاج . نرد عنهم الأخطار . . . ثم نمْطِرهم أوامر ونواهى فى محاولة لحمايتهم من الأخطاء . . والمدرسة والمجتمع تقوم بنفس الدور ويخرج الأولاد فى طراوة وترهل لا يرشحهم لعمل عظيم .

من أجل ذلك كانت دراسة الظروف مهمة لما يتَرَاءى فيها من قيم تصنع الرجال . . ولقد كان الصحابة يعلمون أولادهم المغازى كما يعلمونهم السورة من القرآن . ويا ليت قومى يعلمون .

غـزوة أحـد ودور المـرأة

وكان للمرأة دورها المرموق فى غزوة أحد، وربما فاقت الرجال حينئذ فى الشجاعة والمصابرة:

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلت على أم عمارة فقلت: حدثينى خبرك يوم أحد، فقالت نسيبة رضى الله عنها: خرجت أول النهار. ومعى سقاء فيه ماء. فانتهيت إلى رسول الله ﷺ. فجعلت أباشر القتال. وأذب[1] عن رسول الله ﷺ. وهو فى أصحابه. والريح والدولة للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ. فجعلت أباشر القتال. وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف. وأرمى بالقوس. حتى خلصت إلى الجراحة.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف.. أصابها ابن قميئة أقمأه الله. لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلونى على محمد. فلا نجوت إن نجا. قالت أم عمارة: فاعترضت له لأمنعه أنا ومصعب بن عمير. وأناس ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ، فضربنى هذه الضربة. ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات... ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وفى شرح المواهب للزرقانى عن عمر رضى الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ، آه فى حق أم عمارة ـ «وما التفت يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دونى».

لقد كان للمرأة «حضور» فى غزوة أحد.. ولم تكن فقط لتكثير السواد.. وإنما هى الفدائية فى أعلى صورها:

فهى مدربة على استعمال مختلف الأسلحة: تضرب بالسيف.. وترمى بالسهم.. فى حركة نشطة سريعة. شهد بها ﷺ حين وجدها تدور حوله مستميتة.

---

(١) أدافع.

وبلغت دقتها فى التدريب أنها كادت لتقتل ابن قميئة لولا أن كان عليه درعان.. إلا أنها مع ذلك فاقته إذ ردت ضربته بثلاث ضربات!. وبقى جرحها الغائر دليل شرفها وبطولتها.. وفوق ذلك بقيت شهادة الرسول ﷺ لها قلادة تتوج كفاحها المبارك.

هذا الكفاح الذى لم يكن صدفة. وإنما كان قاسماً مشتركاً. وظاهرة من ظواهر الحروب الإسلامية. ومنها أحد:

فهذه امرأة «من بنى دينار» فقدت زوجها. وأخاها. . وأباها فى أحد. فلما نعوا إليها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ. قالوا: خيرا يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين.

قالت: أرونيه حتى أنظر إليه. فأشير لها إليه. حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل أى هينة[1].

وأنت خبير بامرأة تفقد هؤلاء الأحبة.. لتواجه الحياة من بعدهم وحيدة.. ومع ذلك فلم يشغل بالها إلا رسول الله ﷺ. من حيث كانت الدعوة فى غيابه على خطر عظيم. فإذا مات الأحبة جميعاً. فقد بقى أحبهم جميعاً.. وظل أملها قوياً فى نصر قريب للحق الذى ملأ حياتها.. ويوم خرجت مع أعزائها.. فإنما لتدعيم هذا الحق ورفع رايته.

فليذهب الأحياء.. وليبق الحق مرفوع اللواء.

الدور الإنسانى للمرأة فى أُحُد:

وكان للمرأة «حضور» أيضاً فى أُحُد على المستوى الإنسانى:

كانت عائشة. وأم سليم رضى الله عنهما تنقلان القرب على متونهما تفرغانها فى أفواه القوم... ثم ترجعان فتملآنها. ثم تجيئان فتفرغانها فى أفواه القوم وكانت «أم سليط» تزفر لهما القرب.

وهذه فاطمة بنت رسول الله ﷺ مع زميلاتها على الجبهة العسكرية:

(١) سيرة ابن هشام ٢/٩٩ .

ولقد ساعدت زوجها علياً رضى الله عنه فى غسل دمه الجارى على وجهه.

فلما رأت فاطمة رضى الله عنها أن الماء لا يوقف الدم السائل أخذت قطعة من حصير. فأحرقتها. وألصقتها. فاستمسك الدم.. واضعة بذلك أصلا من أصول التمريض لمن شاء أن يبحث ويستفيد.

نساؤنا ونساؤهم:

وبإزاء هذا المستوى العالى للنساء المؤمنات فى الشجاعة.. والإنسانية والصبر.. كانت نساء المشركين على العكس:

جعلت هند بنت عتبة وزميلاتها المشركات يمثلن بالقتلى من المسلمين، يجدعن الآذان والأنوف.. وبلغ التشفى مداه عندما بقرت بطن حمزة الشهيد ومضغتها.. ثم لفظتها.. وإذ تعبر المؤمنات عن إنسانية الإسلام.. دين المستقبل.. فقد عبرت الكافرات عن ضيق الباطل وحمقه.. الذاهبين به غداً أو بعد غد.. ليخلو الجو للدين العالمى الآخذ بيد الإنسان إلى التى هى أقوم.

دور الغلمان:

ولم يكن الغلمان الصغار بأقل حماساً من آبائهم وأمهاتهم: وقد بلغ تنافسهم فى الجهاد مع رسول الله شأوا بعيداً .

وقد رد رسول الله ﷺ مجموعة منهم لصغر سنهم وقلة خبرتهم... وقد فرضت مصلحة الدعوة ذلك فراراً من الأضرار الناشئة عن قلة الخبرة.

ومن الذين ردهم: «سمرة بن جندب». و«رافع بن خديج» وهما ابنا خمس عشرة سنة.

ومن حسن حظ «رافع» أن كان أبوه معه لحظة التأهب للمعركة فشفع لابنه قائلاً: يا رسول الله: إن ابنى «رافع» رام. فأجازه ﷺ .

ووجد زميله «سمرة» فى قلبه من الشجاعة ما يدافع به عن نفسه فقال لرسول الله: لقد أجزت رافعاً. ورددتنى. ولو صارعته لصرعته! ولما تصارعا. غلب سمرة رافعاً.. فأجازه ﷺ .

ونحن أمام أشبال فى سن الخامسة عشرة. يتدافعون بالمناكب. وسط الرجال.. تحدوهم رغبة أن يكونوا من المجاهدين.

ولم تكن مجرد أمان تجيش بها أنفسهم. وإنما كان للأمانى سندها من هذا الطموح الجاد.

«فرافع بن خديج» ابن الخمسة عشر ربيعاً ماهر فى الرمى.. و«سمرة بن جندب» مصارع حر.. يملك جسماً رياضياً سليماً... وفوق ذلك يملك قدراً من الشجاعة الأدبية حطم به حاجز الحياء فدافع عن نفسه وكسب الرهان!

الآثار الحميدة لغزوة أُحُد:

قال ابن حجر[1]:

[قال العلماء: وكان فى قصة أُحُد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها:

تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية. وشؤم ارتكاب النهى. لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى. وتكون لها العاقبة.

والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل فى المؤمنين من ليس منهم. ولم يتميز الصادق من غيره.. ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة... فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب.

وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين. فلما جرت هذه القصة وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً. وعرف المسلمون أن لهم عدواً فى دورهم. فاستعدوا لهم. وتحرزوا منهم.

ومنها أن تأخير النصر فى بعض المواطن هضماً للنفس. وكسراً لشماختها... فلما ابتلى المؤمنون صبروا. وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته. لا تبلغها أعمالهم..

---

(١) فتح البارى ٧/٣٤٧ (براجع زاد المعاد ٢/٩٩ ـ ١٠٨).

فقيض لهم أسباب البلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.

ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه. فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك: من كفرهم. وبغيهم. وطغيانهم فى أذى أوليائه... فمحص بذلك ذنوب المؤمنين. ومحق بذلك الكافرين) .

صفحة من غزوة أحد

لم تكن الغزوات فى الإسلام مبارزات عسكرية.. يفاخر فيها الأبطال بما حققوا يوم النضال... ولكنها كانت مجالات أظهرت ما فى النفوس من قيم الخير.. التى جاء الإسلام لغرس أعوادها فى النفوس... والتى تفرض علينا أن نتذكرها.. شكراً لنعمة الإسلام الذى أكرمنا الله تعالى به وإذا رفع غيرنا السلاح.. لتنجلى المعارك عن أرض جديدة.. ونفوس شريرة.. فإن معارك الإسلام لتنجلى عن قيم الإسلام التى لابد منها لعمارة الحياة.. وإسعاد الأحياء.

عن الزبير: إنه لما كان يوم أحد، أقبلت امرأة تسعى، حتى إذا كادت تشرف على القتلى.. قال: فكره رسول الله ﷺ أن تراهم فقال: «المرأة.. المرأة».

قال الزبير: فتوسمت أنها أمى صفية.

فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهى إلى القتلى.

قال: فَلَدمت فى صدرى (أى: ضربت ودفعت).

وكانت امرأة جلدة. قلت: إليك لا أرض لك (من ألفاظ الشتيمة عند العرب مثل: لا أم لك).

قال فقلت: إن رسول الله قد عزم عليك قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما أخى حمزة، فقد بلغنى مقتله. فكفنّوه بهما.

قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل، قد فُعل به ما فُعل بحمزة.

قال: فوجدنا غضاضة، وحياء، أن نكفن حمزة فى ثوبين والأنصارى لا كفن له... فقلنا: لحمزة ثوب.. وللأنصارى ثوب... فقدرناهما.. فكان أحدهما أكبر من الآخر... فأقرعنا بينهما. فكفنا كل واحد منهما فى الثوب الذى طار له.

من دروس الموقف :

١ ـ إن المرأة المسلمة ـ فى شخص صفية رضى الله عنها ـ مشدودة إلى

المعركة.. مهتمة بها...

لم تشغلها مطالب الأنوثة عن متابعة المعركة الدائرة بين الحق والباطل.. لقد كان انتصار المسلمين همها الأكبر.. فوق ما تتنافس فيه المتنافسات من زينة ومتاع.

٢ ـ فلما وضعت الحرب أوزارها.. لم تصبر حتى هرعت إلى ساحتها تتلمس أنباءها. وفى طليعة اهتماماتها مصير أخيها حمزة رضى الله عنه.. وفى يدها ثوبان له.. وهما كل ما تستطيعه كامرأة فى هذا المجال..

٣ ـ وفى سرعتها اللاهثة عبر الساحة عبرّت عن طبيعة المرأة العاطفية.. الغلابة.. والتى حملتها حملا إلى حيث يرقد الشهداء.. دون أن تسأل عنهم عابر سبيل.. لعله أن يريحها من عناء المشهد المثير.

٤ ـ ولكن الرسول الإنسان... يعرف هذه الطبيعة.. فأراد أن يحميها من مشهد قد تنفلت عنده أعصابها.. فيحدث ما لا يليق بجلال الموت.. ورهبة الموقف.. فأعلن.. وكرر الإعلان: «المرأة.. المرأة..» حتى يسابقها أحدهم قبل أن يقع المحذور.

٥ ـ وبحسّ المؤمن البصير يلحقها ابنها الزبير.. وقد توقع أن تكون المرأة أمه.. وقد كانت..

ولقد عبّرت الطبيعة الغلابة عن نفسها بأمرين:

باللكمة الموجعة.. واللفظ العاتب الغاضب.

٦ ـ وتقبل الولد لطمة أمه بصدر رحب.. ولم يكن هناك مسوغ لعتابها أو مخاشنتها.. فهى أمه.. ولها احترامها.. لكن القضية أنه يحمل إليها أمر الرسول ﷺ.. بأن تتوقف واضعة حدا لشلال العواطف العواصف.. وتلك هى القضية.

٧ ـ واستجابت صفية رضى الله عنها.. وعلى الفور لأمره ﷺ.. فى امتحان صعب.. لا ينجح فيه إلا الذين صبروا.. مؤكدة صدق التأسى بالرسول فيما يوجّه إليه من صعب.. وسهل.. من الأمور.

٨ ـ ونستشعر هنا اعتزاز الابن بأمه التى شهد لها بأنها كانت امرأة جلدة! . .

أى أنها ضمت إلى قوة إيمانها بطاعة الرسول . . قوة جسمها بالحفاظ عليه . . وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا . .

وتذكرنا صفية رضى الله عنها بسمة بارزة من سمات البيت النبوى الشريف . . وكيف كانت القوة فى الدين والدنيا . . واحدة من أبرز علاماته . . وخصائصه . .

٩ ـ وهكذا كانت المرأة المسلمة . . زمان . . يوم أن كانت دنيا المسلمين مقبلة . . كانت المرأة صحيحة العقل . . سليمة البدن . . صائبة الرأى . . ثم خلف من بعد ذلك خلف زحمت فيه المرأة وجهها بالمساحيق . . فأفسدت الوجه . . ومعدتها بالحبوب المستوردة فأوهنت العظم . . وكانت النتيجة: أن ضمر الجسم . . فلم يبق هناك عقل . . إلا بقايا من أعصاب متوترة لا تصبر على حال من القلق . . ثم لا تحسن تربية . . ولا تحسن تبعّلا! .

١٠ ـ ولا نجاة للمرأة اليوم إلا بالعودة إلى تلك الصحراء . . التى خرّجت صفية رضى الله عنها . .

ونستعير هنا ما خطه براع أديب معاصر[١] . . يتغنى بالصحراء وقيمها قال:

لا ليل فى الجمال كليلها . . ولا صبح فى الجمال كصبحها . . ولا نهار فى الشدة . . كنهارها . . . ساكنة سكون الموت . . واسعة سعة السماء . . .

ترى فيها من جمال المخلوق . . ما يجعل قلبك خاشعا لجلال الخالق . . ثم هى مصدر من مصادر الإيمان:

تسير فيها يوما . . . ثم يكون بينك وبين الموت جوعا أو عطشا أن تحيد عن طريقك ذراعا . . أو تنحرف عن وجهتك شبرا . . ثم لا تملك إلا الإيمان حينئذ بما لا نجاة إلا منه . . ولا قوة إلا به . . وليس لك من تدعو إلا إياه . .

لقد كان العربى . . عزيزا . . ولم تزايله عزته إلا بعد أن بعد عن الصحراء . . وأخلاق الصحراء مسرة . . بلا مضرة.

---

(١) الشيخ على الطنطاوى .

الصحراء: ساحة الحب.. والحرب... الحب النبيل الشريف الجامع على الخير.. الحب الذى يفيض.. لا الحقد الذى يفيض.. والحرب.. حماية لقيم الإنسان..

الصحراء التى علمت العربى: أن يكون صريحا.. واضحا.. لا يعرف اللف ولا الدوران.. وأين منه رجل اليوم.. والذى تربى فى كنف المدينة المزورة والذى من سماته أن يعدك نصف عمره بوعود..ثم يعتذر عنها فى نصف عمره الثانى!!]

١١ ـ ولاحظ قيمة «البر» التى تفرض نفسها فى هذا الموقف:

لقد كان من الممكن أن تقوم معركة بين الولد وأمه ـ كما يحدث اليوم ـ ولاسيما والحق معه.. لأنه ينفّذ أمر الرسول ﷺ.. ولكنه الفتى المسلم الذى ينصر الحق.. بحكمه.. وبلا خسائر.. وما أكثر الذين يحاولون نصرة الحق.. ولكن بالقوة..

إنهم ليخسرون القضية فى نهاية المطاف.. لأنهم يعطون باليمين إخلاصا ثم يأخذون بالشمال بما يزهقون من أرواح.. وما يضيعون من مال.. ولن يقف الإخلاص معهم يومئذ شاهدا.. لأن من تمام الإخلاص أن تصل به إلى منتهاه.. ومنتهاه أن تكون وسيلتك إلى إقامة الحق مسلمة.. كما أن عقيدتك مسلمة. فإن فعلت.. فإنك إذن من المصلحين.

قيمة العدل :

١٢ ـ وأخيرا.. تبدو قيمة العدل.. والإنصاف:

العدل حتى ورهبة الموت تجلل الموقف: فقد تبين أن لحمزة رضى الله عنه ثوبين.. والأنصارى الشهيد.. رفيق السلاح.. رفيق الإيمان.. لا كفن له بالمرة.. وبلا تردد.. تعلن قيمة العدل عن نفسها:

فلم يكن الأمر مجرد قسمة آلية.. وينتهى التكليف.. لقد كان هناك ثوب أكبر من ثوب.. ورغم أن الثوب لحمزة ابتداء.. لكن الإحساس بالعدل كان قويا.. فلم يسع الصحابة إلا أن قرعوا بينهما!!

ولعمرى.. إنه لدرس فى العدل.. بل فى الإيثار أبلغ من كل درس... وما أحوج أمتنا إليه اليوم.. لتعود إلى مكانها اللائق بها بين الأمم...

إن الجو اليوم مزدحم بأصداء الشكوى مما تعانيه أمتنا الإسلامية من ضعف وهوان.. وعليها ألا تبحث عن العلاج خارج الذات..

عليها أن تشخص العلة فى نفسها.. لتعلم من أى باب جاءها الريح.. لتريح.. وتستريح... إنها الأنانية التى كان من ورائها ما نعانى منه ونشكو..

وهى المعنى الذى أشار إليه الأديب الحكيم فى قوله: لماذا خبا المصباح؟

لقد أحطته بردائى.. لأقيه من الريح.. ولهذا خبا..

لماذا ذبلت الزهرة؟ لقد ضممتها إلى قلبى بقلق.. وحب.. ولهذا ذبلت!!

لماذا جف الغدير؟ لقد اعترضت مجراه السدود.. ليكون لى وحدى.. ولهذا جف الغدير!!..

لماذا انقطع وتر القيثارة؟ لقد حاولت أن أوقع عليه لحنا يفوق طاقته... ولهذا انقطع!!

ونعوذ بالله من الخذلان.. بعد الإيمان.

خواطر حول فتح مكة

قصة حاطب بن أبى بلتعة ونفى تهمة التجسس عنه :

تحت عنوان «موقف الإسلام من التجسس» تحدث الأستاذ/ محمد بيومى عن الجاسوسية وخطر الجاسوسية الناشئ عن دوافعه المدمرة من الحقد والخيانة. والتى تسول له التورط فى عمل قد يكلفه حياته. . راجعاً بذلك كله إلى سوء تربيته. وسوء طويته معاً.

ثم انتقل مباشرة إلى الحديث عن أول واقعة تجسس فى الإسلام متمثلة فيما كان من الصحابى الجليل «حاطب بن أبى بلتعة» فى فتح مكة. والذى أثبتت عليه تهمة التجسس.

والحديث على هذا النحو يزج بهذا الصحابى إلى ساحة التجسس. وما تثيره من روائح الغدر والعمالة والنفاق. كما وضح الكاتب فى مقدمته. . مع أن الرسول ﷺ طوى هذه الصفحة من تاريخ «حاطب» بعد ما تبين الحق. . ووضح السبيل. عائداً به رضى الله عنه إلى الصف الإسلامى كما كان. . بل لعله بالتوبة عاد أحسن مما كان.

ولو أن الكاتب الفاضل تجاوز عن مقدمته فلم يذكرها قاصراً حديثه على تبيان الحكم الشرعى فى الموضوع. . لكان الأمر مقبولاً.

أما أن يتحدث عن الغدر. . والدناءة. . ثم يضرب الصحابى مثلاً. . فهذا ما يفتح النار على قمم فى الإيمان قل أن يجود بمثلها الزمان. . وهو ما يفرض علينا فى نفس الوقت تجلية القضية بما يحق الحق. ويقف بهذا الصحابى الجليل حيث وضعه الرسول ﷺ نجماً. . يهدى الحائرين.

فمن هو حاطب بن أبى بلتعة؟ وما هى مظاهر الحكمة فى حياته؟

وما الذى فعله يوم الفتح؟ وآثار الزوبعة حوله؟ وهل ينطبق عليه تعريف التجسس؟ ثم كيف برئت ساحته. . وبقى على قمته؟ وما هو الدرس المستفاد؟

بطاقة تعريف:

لم يكن «حاطب بن أبى بلتعة» من أنفسهم «بضم الفاء».. كما جاء فى الحديث الشريف. أى لم يكن ينتسب إلى قريش نسباً وولادة. وإنما انتسب إليهم حلفاً وولاء. وإذن.. فقد كان ـ من الناحية الاجتماعية ـ خفيف الوزن!

وبالتالى.. فإن إعلانه الإسلام شهادة له بالفضل.

وكيف؟ إن رجلاً كعمر.. أو خالد.. رضى الله عنهما.. عندما يعلن إسلامه فإن له عشيرة تحميه. كما وأنه فى ذاته قوة رادعة لمن يتصدى له.

أما حاطب بن أبى بلتعة.. فإن إعلانه الإسلام بينما هو لا ينتمى إلى القبيلة.. انتماء عضوياً.. ومركزه الاجتماعى لا يسنده ـ شهادة على صدقه وأصالته. وإنه بتكوينه غير قابل للنفاق!

وإلا.. فلو كان قابلاً له.. لمارسه يوم أن كان بين قريش.. القوية ولم يكن من ورائه خط دفاع يحميه.. بيد أنه لم يفعل.

شهادة دولية:

بعث رسول الله ﷺ «حاطباً» إلى «المقوقس»عظيم القبط فى مصر. يدعوه إلى الإسلام.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يكلف لهذه العظيمة إلا كفئها العظيم.. حاطب ابن أبى بلتعة.

والذى أكد نجاحه فى مهمته توفيق الرسول فى اختياره لدوره المناسب.. سفيراً لوطنه إلى ملك طبقت شهرته الآفاق.. فكان عند حسن الظن به فى عرضه قضيته ثم فى حواره الحكيم مع المقوقس.

قال حاطب للمقوقس: «إن هذا النبى. دعا الناس. فكان أشدهم عليه قريش. وأعداهم له اليهود. وأقربهم منه النصارى... ولعمرى. ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد... وما دعاؤنا إياك إلى القرآن.. إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. وكل نبى أدرك قوماً فهم أمته. فحق عليهم أن

يطيعوه. . . وأنت ممن أدرك هذا النبى. ولسنا ننهاك عن دين المسيح. ولكننا نأمرك به[1].

ولم يكن حاطب مجرد رسول يحمل رسالة خطية أو شفهية. . ولكنه مستعد لكل ما تثيره الرسالة من تساؤلات يجيب عنها. . مؤكداً بحكمته صحة اختياره: لما قال المقوقس لحاطب: «ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟

فقال حاطب: ما منع عيسى ـ وقد أخذه قومه ليقتلوه ـ أن يدعو عليهم فيهلكهم.

فقال المقوقس: أحسنت. . أنت حكيم. جاء من عند حكيم».

ثم حمله بألوان من الهدايا الرامزة إلى تقدير الرسالة والرسول.

وهكذا نجحت «الدبلوماسية» العربية الإسلامية فى كسب ثقة المقوقس بثقله الدولى. . والتى انتزعت شهادته بالحكمة انتزاعاً.

وكان نجاح المهمة مردوداً إلى السفير الباقعة[2]. . حاطب بن أبى بلتعة!

وتقديراً من أبى بكر رضى الله عنه لحاطب نراه يبعثه أيضاً إلى المقوقس. فصالحهم. ولم يزالوا كذلك حتى دخلها عمرو بن العاص[3].

ماذا فعل حاطب؟

ولنقرأ كتاب حاطب رضى الله عنه إلى قريش. . لنرى على مرآته نوايا الرجل:

[أما بعد: فيا معشر قريش: إن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل. يسير كالسيل.

فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله. وأنجز له وعده.

فانظروا لأنفسكم. والسلام]. «سحكاه السهيلى»[4].

---

(١) زاد المعاد جـ٣/ ٦١.

(٢) الباقعة: الداهية.

(٣) راجع فتح البارى: ٩/ ٢٧٥.

(٤) فتح البارى: ٧/ ٥٢١.

تحليل الخطاب:

إنه بسطوره القليلة نذير مدمدم يستجيش فى قلوب قريش مشاعر الخوف لتراجع نفسها.

وإن لم تفعل.. فماذا هى فاعلة أمام جيش يحجب الأفق؟

وقائد لو جاءهم وحده لهزمهم.. لأن معه القوة التى لا تغلب.. والنصر مضمون له سلفاً.

والنتيجة .. أن يتفكروا.. ويتشاوروا.. ثم يرفعوا الراية البيضاء.. مستسلمين.. ثم يأتوه مسلمين!

فأين هى رائحة الغدر هنا؟ وأين معنى الجاسوسية فى خطابه؟

إن خطابه لشاهد بإيمانه بالله وبرسوله.. وسنته فى نصرة المؤمنين.. ثم هو شاهد أيضاً ببراءته فى ضوء اللغة التى تعرف الجاسوس فتقول:

(جسه بيده جساً. من باب قتل. واجتسه. ليتعرفه. وجس الأخبار. وتجسسها: تتبعها.

ومنه الجاسوس. لأنه يتبع الأخبار. ويفحص عن بواطن الأمور)[1] .

وقد فرق العلماء بين صنفين:

الجاسوس وهو (صاحب سر الشر)... والناموس وهو (صاحب سر الخير).

ولقد كان رضى الله عنه «ناموساً» ولم يكن جاسوساً!! وسطور كتابه كما هى ناطقة بإيمانه.. فإنها ناطقة بثمرة هذا الإيمان وهى: النصيحة لله.. ولا ظل هناك لنفاق.. ولا تتبع.. وتسقط للأخبار.. فما هكذا يفعل الأخبار!

استفسار وليست محاكمة:

بعد أن كشف الوحى الأعلى أمر حاطب.. لم تكن محاكمة بقدر ما كانت استفساراً يوضح ما حدث.. وإن شئت قلت بلغة العصر: «طلب إحاطة»..

---

(١) المصباح المنير.

وليس «استجواباً»؟!.. فما شك الرسول ﷺ لحظة فى إيمان رجل شهد بدرا !

حاطب يشرح أبعاد الموقف:

بدأ رضى الله عنه أولاً يطمئن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه على أنه ما زال على العهد مؤمناً:

(من حديث جابر رضى الله عنه: قال: أما أنى. لم أفعله غشاً لرسول الله ﷺ . ولا نفاقاً. قد علمت أن الله مظهر رسوله. ومتم له أمره)[1] (لم أفعله ارتداداً عن دينى. ولا رضا بالكفر بعد الإسلام)[2].

لكن ما الذى حمله على أن يفعل ما فعل.. مع منافاته لعقيدته التى ما زالت كما هى؟

يجيب رضى الله عنه فيقول: (يا رسول الله: لا تعجل على.

إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش - يقول كنت حليفاً - ولم أكن من أنفسها - بضم الفاء... وكان من معك من المهاجرين له بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم. فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم أن آخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى[3].

ولك الله يا حاطب!.. ما كان أغناك عن هذا التمزق.. وهذا العذاب.. وهذا الحرج.. لو كنت تبحث عن الدنيا!

وما كان أسهل عليه لو أنه فضل البقاء مع أهله وماله فى مكة. لكن العقيدة التى آثرها.. تحمله اليوم فوق ما يحمل البشر. وحتى فى أحلك ظروفه لا يتهاون فيها.. إنه فقط يقدم لقريش جميلاً «صورياً» لا ثمرة له ولا جدوى منه بعد أن تأكد من نصر رسول الله ﷺ .. والذى لن تقدمه الرسالة ولن تؤخره.

إنه واقع تحت ضغوط خطيرة من غرائز تشده إلى أهله.. بما فيهم والدته العجوز.. ولا بأس أن يقدم إلى قريش «شيكاً بلا رصيد» يحمى به آله.. وماله!

---

(١) حياة الصحابة ج٢/ ٤١٠.
(٢) راجع فتح البارى آخر مجلد ٧.
(٣) المرجع السابق.

اقتناع النبى ﷺ :

وقد اقتنع رسول الله ﷺ بما قاله. وخاطب أصحابه قائلاً: «**أما أنه قد صدقكم**».

وتحت وطأة الإحساس بما كان يترتب على خطاب حاطب.. تستمر الحملة الضارية عليه بقيادة عمر الذى يطالب الرسول برأسه؟!

فلما ذكره ﷺ بأنه «بدرى».. داخل فى رحمة الله تعالى منذ شكل بالنصر المبين حجر الزاوية فى صرح الإسلام.. لما ذكره.. بكى عمر... عمر الذى أنكر ظاهر فعل حاطب لمناقضته عقيدته.. ولمخالفة توجيه الرسول ﷺ فى التعمية على قريش.. إنه يبكي الآن.. ويغسل بدموعه ثورته على أخيه حاطب.. الذى تبدو صورته الآن أنقى.. وأصفى.

لقد جاء فى الأثر: تجاوزوا عن ذنب السخى. فإن الله آخذ بيده كلما عثر. وفاتح عليه كلما افتقر.

ونحن مطالبون بأن نسقط من ذاكرتنا كبوة الجواد. الذى شهد بدراً.. وكان بشهوده على قمة السخاء بالنفس.. والجود بالنفس أقصى غاية الجود.

معنى شهادة الرسول ﷺ :

ولهذا التسامح النبوى مغزاه: لقد حكم ﷺ فى الإطار القرآنى.. وفى ضوء الآيات القرآنية الحاكمة بإذهاب الحسنات للسيئات إذهاباً لا يُبقى للخطيئة أثراً.

قال ابن قيم الجوزية فى زاد المعاد [1] فى معرض بيان الأحكام المأخوذة من فتح مكة:

وفيها أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية كما وقع الجس من حاطب مكفراً بشهوده بدراً.

فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظمية من المصلحة. وتضمنه من: محبة

---

(١) جـ ٢/ ١٧٠ / ١٧١ .

الله لها ورضاه بها وفرحه بها ومباهاته للملائكة بفاعلها أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة. وتضمنته من بغض الله لها. فقلب الأقوى على الأضعف فأزاله وأبطل مقتضاه.

وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات.. الموجبين لصحة القلب ومرضه. وهو نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن.

فإن الأقوى منهماً يقهر المغلوب ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف.

فهذه حكمته فى خلقه وقضائه. وتلك حكمته فى شرعه وأمره.

وهذا كما أنه ثابت فى محو السيئات بالحسنات لقوله تعالى:

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[2].

وقوله ﷺ «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

فهو ثابت فى عكسه لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾[3].

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[4].

براءة:

وبهذا البيان تثبت براءة حاطب رضى الله عنه.. هذا البيان المشتق من بيان القرآن النازل فى هذه الواقعة.. وفى صدر سورة الممتحنة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤. (٢) سورة النساء، الآية: ٣١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤. (٤) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٥) سورة الممتحنة، الآية: ١.

فلم يزل يحتفظ لحاطب بوصف الإيمان.. مع ما فعله من إفشاء السر.. ثم لا يتجه إليه الخطاب منفرداً وإنما تصبح القضية عامة تهم المسلمين جميعاً ليكونوا على حذر من التورط فى أمر كهذا ما دامت الطبيعة البشرية واحدة ومعرضة للخطأ.

وبعد فإن مقام الصحابة فوق الشك والتهم. ومنزلتهم الكبرى لا تطاولها منزلة. ولو أنفق غنى ما يساوى ميزانية دولة كبرى ما بلغ بالانفاق مواطئ أقدامهم.

قال ﷺ: **«لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»**[1].

ولا يشفع لنا أنهم بشر يخطئون.. فما زال حقهم فى التقدير والإجلال محفوظاً.

(عن ابن عباس قال:

لا تسبوا أصحاب محمد. فإن الله عز وجل قد أمر بالاستغفار لهم. وهو يعلم أنهم سيقتلون ويحدثون) [2].

وإذا كانت قوانين الأمم اليوم تسقط السابقة من سجل المخطئ بعد سنوات.. أفلا يجمل بنا أن نسقط خطأ حدث منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟!!

لقد حمل حاطب بن أبى بلتعة مع إخوانه المجاهدين أرواحهم على أكفهم.

وبهذه العزمة الرشيدة.. وضع صرح الإسلام حجر الزاوية الذى سمق به البناء وارتفع. وإذ ترصد الأمم بلايين الجنيهات تغنياً برصيدها من الرجال. فحق هؤلاء علينا أن نقيم لهم فى قلوبنا ذكراً. نستبقيهم به فى وعينا منارات.. تهدينا سواء السبيل.. والله المستعان.

الدعوة بين الملحمة.. والمرحمة:

عندما دخل ﷺ مكة فاتحاً.. ودانت له الرقاب التى طالما عادته، بدأت

---

(١) فضائل الصحابة ج٢/٩٠٩.　　(٢) فضائل الصحابة ٢/ ٩١٠.

مهمته الحقيقية بفتح القلوب لترى النور. . فتصحو: وذلك عن طريق الرحمة فى أعلى مراتبها: العفو عند المقدرة.

دخل عليه رجل يرجف فؤاده. فقال له:

«هون على نفسك. إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد» (اللحم المجفف)

فانظر ماذا ترى: قائد الجيش المظفر يمسك بزمام الموقف. ومن ورائه عشرة آلاف مقاتل. والإحساس بالسرور يتنامى بالعودة إلى أحب بلاد الله. . إلى الله.

وكل الدلائل تشير إلى أن تصفية الحساب القديم توشك أن تبدأ. . جزاء عادلاً. . . وأفضل درجات التفاؤل لا تتوقع أبداً إلا. . القصاص.

ولكنه ﷺ يرتفع فوق مستوى هذه الاعتبارات كلها. . . وينسى حظ نفسه. ليتصرف فى حدود مصلحة الدعوة. . فلا غرابة أن يتخذ العفو القادر ركوباً إلى فتح قلب الرجل. . ليختار فى ظل هذا العفو ما يحلو له. . والموقف مع ذلك درس من دروس التربية النبوية:

فالرسول القائد يخفف من هلع الرجل أولاً. . وفى هذا الجو الذى تبرز فيه المباهاة لتقول كلمتها فى غيبة الإيمان. . يؤثر الله ذكر أمه: **«أنا ابن امرأة»**.

ومع أن العرب تتأبى على ذكر الأم فى المخاطبات أنفة. . فإنه عليه الصلاة والسلام يؤكد للرجل: أن الذى يكلمك ابن امرأة. . مجرد امرأة. . كسائر الأمهات. . وكأمك أنت بالذات. . فهو شريكك فى المنشأ ولا يملك إلا أن يعاملك على هذا الأساس.

ثم هى امرأة: لم تتلفع بفضل مئزرها. . ولم تسق فى العلب. . كما تفعل النساء المترفات. . ولكن كان غذاؤها اللحم المجفف فى الشمس. . هذا الطعام الشعبى المتداول لقد كانت بسيطة ببساطة هذه الصحراء. . نقية نقاء هذه السماء. وأنت خبير بأن لحظة الانتصار وفى حياة القواد تنسيهم ذلك الماضى المتقشف. . وإنهم ليتحدثون وكأنهم ولدوا وفى أفواههم ملاعق الذهب.

وقد يتصورون أن الحديث عن قسوة الماضى مما يخدش بطولتهم. . ويهون من شأنهم.

ولكنه ﷺ يذكر الحقيقة بكل تفاصيلها. يذكرها بكل صدق دون خوف على شخصيته أن تمس لأنه ابن امرأة.. فقيرة.. لأنه كان يرتكز فى وجوده على ما هو أسمى من ذلك كله.. إنه الإيمان بالله عز وجل.. ومتى توهجت حقيقة الإيمان بالله تعالى فى قلب المؤمن.. فلا يضيره ما عداها مما يتنافس فيه المتنافسون.

وإذا خاف أصحاب الشخصيات الزجاجية على أنفسهم من حصاة يرميها غلام.. فينكسرون.. فإن المؤمن صخرة صلبة.. أو بحر عريض.. عريض.

لا يضر البحر أمسى زاخراً   إن رمى فيه غلام بحجر

إنه الفرق الهائل كما قيل بحق بين الزعامة النبوية التى تهب نفسها للمثل الأعلى. والزعامة الدنيوية التى تخضع الحياة لحاجات نفسها.

الملحمة.. والمرحمة:

وفى لحظة النتصار أشرف القائد الأعلى بنفسه ليطمئن على سلامة الوجهة.. وليضمن بقاء العفو والرحمة شعاراً عملياً.. وفى موقفه من سعد بن عبادة ـ فى فتح مكة ـ شاهد على ما نقول:

مر سعد بن عبادة بأبى سفيان. فقال له: اليوم يوم الملحمة. اليوم تستحل الحرمة. اليوم أذل الله قريشاً.

ولقد خاف بعض الصحابة من رد الفعل الناشئ عن هذا الشعار العصبى لاسيما ولأبى سفيان كلمة فى قومه يمكن أن تعرقل المسير. ولو قليلا.

ولقد كفاهم أبو سفيان المهمة حين اشتكى لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله. ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «وما قال؟» قال: كذا وكذا.

فاستنكر ﷺ مقالة سعد وقال: «بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً، ويعظم الله الكعبة».

تحليل الموقف:

لقد جاءت دولة الإسلام اليوم.. بل عادت إلى مكة أم القرى.. ولكن على

أى ركوب تجىء دولة الإسلام؟

لقد أرادها سعد بن عبادة نهراً من الدم تفجره سيوف المسلمين تفجيراً.. ويترك الموقف لمشاعر الانتقام تقول كلمتها فى أناس يجب أن يذلوا جزاء ما قدمت أيديهم.. وهكذا تقول شريعة العدل.

وفى معمعة النضال.. يشكو أبو سفيان.. وتصل شكواه إلى القائد الأعلى الذى أصدر قراره بعزل سعد بن عبادة فوراً!

وكان القرار فى حد ذاته نصراً أعظم مما أراده سعد بن عبادة.

إن قتل الرجال لا يساوى شيئاً إزاء اكتساب قلب رجل.. يفىء بالعفو إلى الإسلام.. ويخرج الله من صلبه من يحب الله ورسوله.

ثم: هل مهمة الجندى المسلم مجرد هزيمة العدو.. أم هى بالدرجة الأولى هدايته ليزداد الصف الإسلامى به قوة؟

حكمة الرسول ﷺ:

لكن قراره ﷺ بأخذ الراية من سعد فيه من حكمته عليه السلام نفائس[1]:

لقد كان هناك اعتباران لابد من أخذ القرار على أساسهما:

١ ـ أبو سفيان.. يعيش أسوأ لحظات حياته.. فقلبه مجروح.. ولابد من جبر خاطره.

٢ ـ فى نفس الوقت.. فإن لسعد بن عبادة ماضياً جليلاً فى خدمة الدعوة ينبغى ألا يمس!

وإذن.. فليجبر خاطر أبى سفيان.. سياسة.. ولكن لا على حساب سعد ابن عبادة.

وهنا أمر الرسول أن تعطى الراية التى كان يحملها سعد إلى ابنه «قيس». أى أنها لم تخرج من بيت سعد.. بل إنها فى يد أحب الناس إليه.

---

(١) الفكرة للشيخ على الطنطاوي .

وفى نفس الوقت.. فقد هدأت نفس أبى سفيان لما أخذت الراية من سعد هذا الذى تجهم له.. وتوعده.

ولم يكتف ﷺ بهذا لكنه أراد «تقنين» هذا الموقف بشعار جديد ينبغى رفعه على أنقاض الشعار الذى رفعه سعد بن عبادة.. تبصرة وذكرى:

إن دولة الإسلام تعود.. بالمرحمة.. لا بالملحمة!

والطريق مفتوح أمام قريش لتأخذ سبيلها إلى عزها.. بالإسلام.. وهكذا كل المعاندين إلى الأبد.

وسوف تظل الدعوة ماضية فى سبيلها.. ناشرة ظلها.. على جناحين من الرحمة.. والعفو.

وفى غيبة مشاعر الانتقام.. لتحل مُحلها نوايا السلام... هذا السلام الذى أتاح للدعوة أن تخط مجراها فى دنيا الناس فى صلح الحديبية فحققت ما لم تحققه المعاوك الساخنة.

إنَّ جزءاً من حماسنا ـ المتحدر إلينا من حماس «سعد» رضى الله عنه ـ ينبغى أن يتجه طوفانه إلى: الضعيف ليقوى.. والمريض ليشفى.. والمظلوم لينهض.. وآلات المصانع لتدور.. والأرض البكر لتزهر وتثمر.. وعلى أكتاف هؤلاء الأقوياء.. حتى تنهض أمة الإسلام.. التى قد تتأخر عودتها كثيراً أو قليلاً.. لكنها آتية على أى حال رحمة مهداة ونعمة مسداة.

شباب على طريق الإسلام: يحصدهم الموت ولكنهم يزرعون الحياة

من حق الشباب اليوم أن يمدوا أيديهم إلى ما فى الحياة من صور المتاع الحسن.. ولا تثريب عليهم إذا هم تقلبوا فى البلاد سياحة تجدد نشاطهم.. تجديداً يعينهم على أداء دورهم فى دنياهم.

فالطبيعة من حولنا مأدبة حافلة بأطايب الطعام.. ولا بأس على العين أن ترى.. ولا على القلب أن يخفق.. ولا على الأعصاب أن تحس.. فى غير معصية الله تعالى.. ذلك شىء مهم فى حياة الشباب.. وأهم منه أن تعود بهم ذاكرتهم إلى تاريخهم المجيد عودة يعمق بها اعتزازهم بأنفسهم.. وتفتح أبصارهم على ما فى تراثهم من مواقف مشرفة.. قام بها شباب أمثالهم.. فكانوا شاهد صدق على ما فى شبابنا من طاقة.. تمكنه من الصعود إلى أعلى.. فلا تقف به همته عند الخضرة.. والماء. لكنها تجعل منه سلاحاً من أسلحة القدر.. يعلم الناس فن الحياة.

وفيما رواه الإمام أحمد رضى الله عنه واحد من هذه المواقف:

كان شباب من الأنصار سبعين رجلاً.. يقال لهم القراء. قال: كانوا يكونون فى المسجد فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة.. فيتدارسون ويصلون. يحسب أهلوهم أنهم فى المسجد.. ويحسب أهل المسجد أنهم فى أهليهم.. حتى إذا كانوا فى وجه الصبح.. استعذبوا من الماء.. واحتطبوا من الحطب.. فجاءوا به فأسندوه إلى حجرة رسول الله ﷺ.. فبعثهم النبى ﷺ جميعاً فأصيبوا يوم بئر معونة.. فدعا النبى ﷺ على قتلتهم خمسة عشر يوماً فى صلاة الغداة.

فانظر.. ماذا ترى؟

إنهم نموذج من شباب هذه الأمة.. قد استعلى بإيمانه فوق لهو الحياة ولعبها.. فكان سهر الليالى فى مدارسة العلم.. والتعلق بالمسجد ذكراً وصلاة متعته وزاده.. ولئن كانت الخضرة والماء بعض مآربه.. فإنه ولكى تبقى الحياة

مخضرة.. لابد من تضحية ودماء تجرى.. لتظل الأرض مخضرة.. تنبت من كل زوج بهيج.

لابد من معانى الكفاح.. والإيثار.. والجد والوحدة.. حتى إذا دعا إلى البذل داع.. كان هناك من هذه المعانى رصيد تنطلق به القافلة إلى أمام.. وإلا.. فلو جلس كل إنسان مستغرقاً فى متعته.. لما وجدت الدنيا يداً تستنبت الخضرة.. ولا آلة تجرى الماء.. فماذا فى المشهد من معان تستلفت النظر؟

كانوا سبعين شاباً.. أعنى فى مرحلة الاعتزاز بالرأى.. وتحكيم المزاج.. لكنهم كانوا (رجالاً).. توحدت كلمتهم.. حول منهج معين.. وطريق مرسوم.. بلا خوف.. إن مبادئ الإسلام واضحة فى أذهانهم وضوحاً يؤدى بهم إلى الالتفاف حولها.. والعمل من أجلها.. نظرية سليمة.. قابلة للتطبيق فى دنيا الواقع.. على نحو تتحول به الفكرة إلى حياة نابضة بالحركة.. فعلام الاختلاف إذن.. وقد ذهبت دواعيه؟

ليس هنا مزاج شخصى يتحكم.. بل الكل جماعة واحدة.. إلى هدف واحد.. ولعل وحدة الكلمة.. أقرب إلى تحرير النفس مما لو كان هناك فكر سديد لا يجد الجماعة التى تتحمل مسؤوليته.. أسوة بهؤلاء السبعين من الرجال.. لقد انتصرت إسرائيل علينا.. وربما خذل المسلمون أنفسهم حين لم يرتفعوا إلى مستوى إيمانهم بالله عز وجل.

أما هؤلاء الشباب.. فكانوا بمسلكهم الرائع صورة عملية تتجسد بها المفاهيم.. وتستقر بها المبادىء.

فكانوا فى السلم طلاب علم يقترب به الإنسان من خالقه سبحانه.

وفى الحرب.. صاروا جنداً يدوخ الله بهم الباطل.. وعلى أساس من العلم والعمل قامت حياتهم:

علم يتدارسونه فيربطهم بالحياة.. وتصح به صلتهم بالله تعالى.. وبالمجتمع الذى يعيشون فيه.. فيردون إليه الجميل فى صور ذلك الماء العذب.. وهذا الحطب الجزل.. يقدمونه إلى رسول الله ﷺ.. أى أن تحصيل العلم لم يلههم

عن أداء واجبهم . . هكذا تطوعاً . . ولو كان ذلك الواجب قربة ماء يحملونها . . أو حزمة حطب يجلبونها .

ولم تكن منهم أنفة من عمل كهذا . . وربما تعافه بعض النفوس المترفة .

وإنها لزكاة[1] ترمز إلى شرف العمل مهما كان نوعه . . وهو نموذج مفقود فى صفوف شبابنا الذين يجيدون فقط فن النقد والتجريح . . بينما هم يأكلون مما عملت أيدى غيرهم .

إنهم فقط . . ينقدون . . وما أسهل النقد ثم هم لا يعملون . . فما أصعب العمل .

إن العلم فى الإسلام ـ كما يفهم من موقف هؤلاء الشباب ـ يمهد السبيل إلى تربية النفس . . التى تنشط به إلى عمل الخير . . ويتم ذلك كله فى سرية تامة . . فلا يعلم أهلوهم . . ولا أصحابهم فى المسجد بما يفعلون . . فليس هناك شعارات براقة تزحم الأفق . . بلا عمل . . بيد أنه العمل فى صمت ابتغاء رضوان الله تعالى . . طبق خط مرسوم . . ووقت مقسوم بين العبادة والعمل .

فإذا علمنا أن هذا الشباب من(الأنصار)من أهل المدينة وممن يساكنون اليهود . . أدركنا فى نفس الوقت بعداً آخر من أبعاد هذه الوثبة المباركة . . لقد تحالف بنو قينقاع مع الأوس . وتحالف بنو قريظة وبنو النضير مع الخزرج . . فكانت الأوس تقترض من بني قينقاع . . والخزرج تقترض من حلفائها . . وكان لهذا الحصار الاقتصادى المضروب آثاره فيما زينه اليهود من رزائيل . . وما بثوه من مكر ودهاء عكروا به صفو الطبيعة العربية . فإذا نجح هذا الشباب فى مدارسة العلم . . ثم فى تتويجه بالعمل ، وإذا وصلوا بالعمل إلى كسر هذا الحصار المضروب . . ورد الكيد اليهودى إلى نحور أعدائهم . . ثم الاحتفاظ بالولاء للدين ومحبة رسول الله ﷺ . . إذا استطاع هذا الشباب أن يثبت وجوده فى دوامة المكر اليهودى . . فإن ذلك دليل على ما فى شبابنا من إمكانات ما زالت صالحة لاستئناف الدور فى عصرنا الحاضر . وعوداً على بدء . . نبنى كما كانت أوائلنا . . تبنى .

---

(١) من باب قتل . وفى لغة من باب ضرب .

لقد كانوا ـ بمسلكهم العملى ـ بنجوة من تأثير اليهود المتربصين بهم باعتبارهم قوة الغد.. وقادة المستقبل.. وكان تقلبهم بين المسجد.. والبيت.. دليلاً على روحهم الجادة.. التى لا يتسع وقتها للجلوس فى ساحات اللهو.. ومواطن العبث.. وهو نفسه المسلك الذى رشحهم للقيام بدعوة الناس إلى الإسلام: وفى لحظة غدر استشهدوا.. فحزن عليهم الرسول ﷺ.. وفاء لهم.. وتقديراً لدورهم.. ولموقفهم الصامد فى لحظة الموت.. لقد كانوا يزرعون الحياة.. بينما الموت يحصدهم حصداً[1].. يقول.. جبار بن المسلمى.. وكان واحداً ممن قتلوا هذا الشباب.

إن مما دعانى إلى الإسلام.. أننى طعنت رجلاً منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه.. فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره.. فسمعته يقول: فزت والله؟

فقلت فى نفسى: ما فاز.. لقد قتلت الرجل!!

قال: حتى سألت بعد ذلك عن قوله.. فقالوا: يعنى فاز بالشهادة.

فقلت: فاز لعمر الله.

إن معنى جديداً للنجاح يبرز الآن.. وليس هو الحصول على رتبة أو درجة علمية. ولكنه النجاح الساحق فى ساحة الاستشهاد حين ترخص الروح فى سبيل الله.

(١) لقد دعوا إلى الله بدمائهم وأرواحهم يبذلونها.. قبل أن يدعوا إليه بكلامهم وأناشيدهم.

مغزى فتح مكة

لم يكن فتح مكة غزوا مسلحا بالمعنى المعروف. بقدر ما كان حملة تأديبية للطغاة الذين خانوا العهد. ونكثوا الأيمان من بعد توكيدها.

والقصة: أن الله تعالى جعل من صلح الحديبية هدنة التقط فيها المسلمون أنفاسهم فانساحوا فى الأرض مبشرين ومنذرين. فدخل الناس فى دين الله أفواجا.. وجنى المسلمون من ثمرات السلام ما لم يحققه اللقاء المسلح.

ولكن قريشا نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ.. حين أعانت حلفاءها من «بنى بكر» بالسلاح والرجال.. على خزاعة التى كانت حليفة المسلمين..

ولقد كان من تدبير القدر الأعلى أن يتم ذلك.. لتحفر قريش قبرها بيدها.. ولتخط الحروف الأولى فى قصة النصر الأعظم.. الذى يعود به المسلمون إلى مستراد آمالهم: مكة أم القرى.. لتكون كما أرادها الحق تعالى مثابة للناس وأمنا.

ولقد كان المتوقع أن يقف أشراف قريش الموقف اللائق بهم.. فيدعوا أتباعهم إلى ضبط النفس حقنا للدماء.... لكنهم زادوا الطين بلة حين اشتركوا فى القتال بأنفسهم.. مستخفين ليلا..

وظهر الغدر المبيت.. مما حمل خزاعة على الإسراع إلى رسول الله ﷺ تطلب النجدة بمقتضى نصوص العهد المبرم بينهم وبينه.

وقد كان طبيعيا أن يخف ﷺ لنجدتهم:

أولا: وفاء للعهد.. إن العهد كان مسئولا.

وثانيا: تأديبا لقريش التى لم تصبر طويلا على السلام الذى نشر الأمن فى ربوع الجزيرة زمنا.. راجعة بالأيام سيرتها الأولى إلى حيث كان السلاح هو لغة التخاطب..

وثالثا: لقد كانت النجدة الإسلامية تعبيرا عن معنى السلام المستقر فى ضمير الأمة العربية.. والتى حملها على تكوين حلف الفضول نصرة للمظلوم.

ولكن الرسول ﷺ لم يشأ أن يقابل النار بالنار.. وإلا زادت اشتعالا.. لأنه مع خراعة لا يشكلون حزبا عدوانيا.. من ذلك النوع الذى عرفته الجاهلية.. وإنما هو الاجتماع على معانى العدل والتناصر.. لتظل الحياة ماضية فى طريقها المرسوم على تقوى من الله ورضوان.

من أجل ذلك.. ووفاء للسلام الذى هو شعار الإسلام: أراد ﷺ أن يضع قريشاً أمام مسؤولياتها. وأن يواجهها باختبار نواياها.. فأرسل إليها يخيرها:

١ ـ إما أن تدفع دية القتلى من خزاعة.

٢ ـ أو تبرأ من حلف من أشعلوا هذه الفتنة.

٣ ـ وإلا.. فلا مفرّ من القتال..

وقد تسرع سفهاء القوم.. فتنادوا بالقتال.. وهكذا.. إذا أمسك الصغار بزمام المبادرة.. فإن الكبار يدفعون الثمن..

ولقد أحس القرشيون بمدى ما ارتكبوا من خطأ.. وما أقدموا عليه من جرم.. واجتمعوا فى مؤتمر موسع.. اتخذ قراره بإرسال كبيرهم أبى سفيان بن حرب ليفاوض النبى ﷺ فيما يشبه الاعتذار عما حدث..

وفعلا قدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ مطأطئ الرأس.. يغض طرفه خجلا.. وحدثت المفاجأة.

الانتصار فى معركة النفس:

كان أبو سفيان يُمنّى نفسه بعفو رسول الله ﷺ.. من حيث كانت ابنته «أم حبيبة» زوجة له عليه الصلاة والسلام.. وسوف تقف إلى جانب أبيها تضم صوتها إلى صوته. فى محاولة لاسترضائه ﷺ.

فلما قدم المدينة ودخل على ابنته.. ثم ذهب ليجلس على فراش رسول الله. طوته عنه.. فلما تساءل متعجبا عن سر ما حدث.. أجابته: هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس.. فلم أحبَّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ!

وهكذا تتوالى اللطمات مسجلة ذلك التحول الخطير الذى يحدثه الإيمان حتى

بين الرجل وولده . .

لقد كان من الممكن أن تطوى الفراش . . ثم تعتذر فى أدب تقديرا للدم المشترك . . لكنها تطويه . . ثم تواجهه بالسبب . . وهو : أنه فى حياتها صار مجرد . . رجل . . يغيب فى زحمة الناس . . بل هو رجل مشرك . . أسقطه الشرك من حسابها . . وصيره كتلة من النجاسة ينبغى أن ينزه عنها أطهر الناس . .

وأحس الرجل بالمسافة البعيدة التى تفصله عن ابنته . .

وضاعت من يده الورقة الرابحة . .

وكان الظن أن يعود من حيث أتى . . لكن رد ابنته كان سببا فى إعادة المحاولة مع رسول الله ﷺ وأصفيائه . .

لم يرد عليه الرسول . . ثم كلم أبا بكر . . وعمر . . وعليا . . وفاطمة التى قال لها : يا ابنة محمد : هل لك أن تأمرى بُنَيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ . . . وباءت كل محاولات أبى سفيان بالفشل .

وتأمل كيف يمهد الحق سبحانه للنصر تمهيدا . . بهذه الهزيمة النفسية التى أحس بها أبو سفيان . . والتى لا بد من حسمها داخل نفوس الأعداء أولا . . حتى يكون النصر من بعد ثمرة يانعه . .

لقد ظهر الباطل . . فى شخص أبى سفيان أكثر ما يكون افتضاحا . . وبدا الحق فى شخص ابنته أشد ما يكون اتضاحا . . ووصل الإحساس بالهوان إلى درجة أن يخطب ود فاطمة لتأمر صبيها الحسن رضى الله عنه ليشفع لكبير القوم !

وإذن . . فقد اقتنع المبطل من داخله . . أنه مهزوم لا محالة . .

فإذا تصورنا المحق على الجانب الآخر مقتنعا بأنه منتصر لا محالة . . تأكد لنا فى ذات الوقت أن المعركة محسومة منذ الآن . . لحساب الحق . . حين يغطى المنافس صوته للطرف الآخر . . وليبقى هو . . بلا نفس . . بلا أمل . .

وهو جانب من تدبير الحق تعالى حتى تظل مكة المكرمة مثابة للناس وأمنا . . فلا تسيل على ترابها دماء . . حين يلقى الأعداء أسلحتهم منذ الآن . . ليدخلها المؤمنون تحت راية السلام آمنين . .

وقد دخلها ﷺ فعلا.. هكذا.. والمؤمنون معه.. وظهر الدرس البليغ الكاشف عن أهم أسباب النصر وهو: تأبِّى الحق على العواطف أن تلوى زمامه عن دفع الثمن.. ثباتا ووفاء.. يتجاوزان حتى الدوافع الملحة.. فلم يترخص وهو يواجه الباطل بمثل مقدار الشعرة..

وهكذا رجال المبادئ دائما.. كما يقول الرافعى:

{إن الرجل المؤمن.. القوى الإيمان. الممتلئ ثقة ويقينا. ووفاء. وصدقا وعزما. وإصرارا على فضيلته. وثباتا على ما يلقى فى سبيلها لا يكون رجلا كالناس.

بل هو رجل الاستقلال الذى واجبه جزء من طبيعته. وغايته السامية لا تنفصل عنه.

وهو رجل صدق المبدأ. وصدق الكلمة. وصدق الأمل. وصدق النزعة وهو الرجل الذى ينفجر فى التاريخ. كلما احتاجت الحياة إلى إطلاق قنابلها}.

دروس من غزوة تبوك

تمهيد:

«تبوك» مكان معروف. فى نصف طريق المدينة إلى دمشق. وهو إلى الشام أقرب... وهى الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة المنورة على بعد ٧٠٠ ك منها.

وسميت بهذا الاسم من البَوْك وهو: الحفر.

فقد جاءها النبى ﷺ وهم يبوكون - أى يحفرون مكان مائها بقدْح - سهم - فقال لمن سبق إلى حفرها: «مازلتم تبوكانها» فسميت حينئذ «تبوك»[١].

وفى المصباح المنير:

(باكت الناقة بوكا: سمُنت[٢]. فهى بائك. بغير هاء. وبهذا المضارع سميت غزوة «تبوك» لأن النبى ﷺ غزاها فى شهر رجب سنة تسع. فصالح أهلها على الجزيه من غير قتال.

فكانت خالية عن البُؤْس. فأشبهت الناقة التى ليس بها هزال.

ثم سميت البقعة "تبوك" وهو موضع من بادية الشام. قريب من مَدْين. الذى بعث الله إليهم شعيبا).

أسباب الغزوة:

بعد فتح مكة ظهر الإسلام على الدين كله. وبدأ المسلمون يتحركون بطلاقة لنشر الدعوة الإسلامية... وعندئذ بدأت مخاوف الرومان تزداد.

فلما كانت غزوة «مؤتة» والتى تألقت فيها العبقرية العسكرية الإسلامية - فى شخص خالد رضى الله عنه.. تنامت مشاعر القلق فى صدور الرومان.. الأمر الذى حملهم على التخطيط لهدم الدعوة. قبل أن يطوقهم مدها الزاحف. ولقد سول لأعداء الإسلام غرورهم بادئ الأمر (أن الإسلام سراج يلتهب. وسَرْعَ ما ينطفئ. أو سحابة صيف عن قريب تقشع).

---

(١) فتح البارى ج٨/ ١١١.   (٢) من باب تعب وقرب.

وضاعف من هذا الغرور انتصار هرقل على إيران. . وفى نشوة هذا الانتصار اتخذ الرومان قرار الحرب.

الكنيسة تبارك الغزو:

وقف رجال الكنيسة من وراء الحملة العسكرية يشدون من أزرها. ذلك بأن الكنيسة (لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف فى الفروع التافهة فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها؟ لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط وينكر عقيدة الفداء التى ترتكز عليها. لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده.

فليس للإنسان إلا ما سعى. ولا تزر وازرة وزر أخرى.

ثم هو ينكر مبدأ الشركة فى الألوهية. فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه.

لذلك. . رأى الروم أن يعيدوا الكرّة. فيضربوا الإسلام فى شمالى الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء. وتوص عليه أبواب الحدود. فلا يستطيع التسرب منها. وتَضْمن بعدئذ الانفراد بالضمير البشرى. حتى إذا قرعت أجراسَها لم يشب رنينها صدى المؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده. ويدعو للصلاة والفلاح)[1].

هرقل يستعد:

على هذا النحو تلاقت وجهات النظر الدينيه والعسكريه. وشرع الروم فعلا يستعدون للمعركة بما يكافئها من تدبير على مستوى شأنها الخطير:

وقف هرقل يجيش الجيوش على نحو يستلفت النظر:

أعطى القياده لغظيم من عظماء الروم. وأمر الناس بالتأهب لمعركة فاصلة.

وفى سبيل التمكين لهذا الأمر فى النفوس. . أعطى الجنود رزق سنة حتى يتفرغوا من أعمالهم. ويستعدوا لحرب ينبغى أن تكون شغلهم الشاغل.

ثم جذب إليه قبائل "لخم" و"جذام" من متنصرة العرب. فى جيش بلغ أربعين ألف مقاتل.

---

(١) محمد الغزالى فقه السيره/ ٤٣٦.

الإعلام المعادى يمهد للغزو العسكرى :

تحرك الإعلام المعادى لخدمة أهداف الغزو العسكرى:

وتولى كبر هذا الإعلام قوى متعددة. تؤكد كيف كان الكفر ملة واحدة ومادام الإسلام هو المستهدف بالعدوان. فإن أعداءه مستعدون للتحالف حتى مع الشيطان لكسر شوكته.

وهذا ما حدث عندما انبعث الأعداء فى تحالف يتنادى بالويل والثبور ويضم تحت لوائه:

١ ـ نصارى الحدود.

٢ ـ واليهود.

٣ ـ والمنافقين.

أما عن نصارى الحدود:

فقد كان خروجهم لقتال المسلمين فى حد ذاته دعاية للروم. من شأنها أن تلقى الوهن فى قلوب العرب المسلمين.. أو هكذا أراد الأعداء.

وإذا كانوا يقولون: لا يَهزّ الشجرة إلا فرع منها.. فقد هز خروج نصارى الحدود الشجرة إلى حد ما. من حيث كانوا صنيعة أعدائنا، الراغبين فى هزيمتنا عن طريق عناصر منا يتكلمون لغتنا. لتكون الضربة موجعة مؤثرة.

دور اليهود:

تحَّمل اليهود مسؤولية التخطيط لهذه الحرب النفسية الغادرة:

فقد اتخذ بعض اليهود من دُورهم أوكارا لتصدير الشائعات والأخبار الكاذبة. وبلغ رسول الله ﷺ أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت "سويلم" اليهودى. يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك.

فبعث إليهم "طلحة بن عبيد الله" فى نفر من أصحابه. وأمره أن يحرق عليهم بيت "سويلم"

ففعل طلحة. لكنهم فروا هاربين. قبل أن يصل اليهم.

وإنك لتحس بعنتف الرد النبوى لردع اليهود. ولكن كان لهذا العنف ما يسوغه.

١ ـ فقد كان الموقف عصيبا. وكان للكلمة أثرها فى إنهاء الوجود الإسلامى كله.. فكان لا بد من الرد الفورى القاسى. لأن المسألة حينئذ مسألة حياة أو موت... ولو أن المؤامرة جاءت من غير اليهود.. كان لها ما يسوغها..

لكنْ مجيئها من اليهود بالذات يشكل خطرا على جبهة التوحيد. حين يتحالف أهل الكتاب مع الوثنية لضرب الإسلام. وكان الظن أن يسكتوا على الأقل وأن يختاروا موقف الحياد.. ولكنهم لم يفعلوا.. ولن يفعلوا.

٢ ـ بدأت الفلول المهزومة من المشركين ترفع رأسها من جديد. لما رأت القوى العدوانية تتنادى بالثأر.

٣ ـ كانت للمنافقين اتصالاتهم السرية بملك الروم. وعن طريق أبى عامر الفاسق. وإذن فقد كان الأمر بالإحراق هو الرد المناسب على تحالف صمم على أن يستأثر بالحياة وحده.. دون أناس هم الجديرون بالحياة!.

على أن الإحراق لم يتم فعلا.. وربما أريد به الإعلان عما يليق بهم. حتى لا يفكر غادر بعد اليوم أن يُجرى من قلبه نهرا مسموما. تجف به أعواد الحق.

المنافقون يشعلون النار :

للنفاق خطره على الحق وأهله.

وتصور كيف ذكر الحق تعالى ـ فى سورة البقرة ـ بضع آيات فى شأن المؤمنين والكافرين. وفيما يتعلق بالمنافقين.. فقد تحدث عنهم فى ثلاث عشرة آية حديثا يغوص فى أعماق نفوس معقدة. حاقدة.. كأنما قدت من ظلمة الليل البهيم.

وصدق الله تعالى حيث يقول:

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾[1].

ملامح الإعلام المنافق:

جاء الإعلام المنافق متلوناً كالحرباء.. يَعكس الطبيعة الملتوية التى صدر عنها:

حرب التخذيل:

ومن صور هذا التخذيل ما روى أنه كان رهط المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ. وهو منطلق الى "تبوك" فيقول بعضهم لبعض: أتحسبون أن جلاد بنى الاصفر ـ الروم ـ كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم مقرنين غدا بالحبال)[2].

التشكيك فى ثقة القائد بجنده:

استهدفت الحرب النفسية توهين الثقة الرابطة بين القائد وجنده المخلصين. فقد خلّف الرسول ﷺ "عليا" رضى الله عنه. على أهله. وأمره بالإقامة بينهم.

فأرجف المنافقون ـ أى أشاعوا ـ قائلين: ما خلفه إلا استثقالا له. وتَخَفُّفًا منه.

فلما قالوا ذلك. أخذ "على" سيفه. ثم خرج حتى لحق برسول الله ﷺ. فأخبره بما قالوا. فقال:

«كذبوا. ولكنى خلفتك لما تركت ورائى. فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك. أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى. إلاَّ أنه لا نبى بعدى»

فرجع «على» ومضى رسول الله فى سفره [3].

وقفة تأمل:

١ ـ وإنك لتحس مدى حرص أعدائنا على أن يكون لهم جهاز دعاية مدرب قادر على التشويش.. وطبق خطة مدروسة.. تختار من المواقف ما يصلح أساسا لهذا التشويش. أى أن الجهاز لا يطلق الشائعة عبثاً وكيفما أتفق.. لكنها تركز على نقاط تحتمل التشكيك.

فَعَلِيّ قائد عسكرى محنك.. ومع ذلك خلفه الرسول من ورائه... لابد أن

(١) المنافقون: ٢، ٣. (٢) ابن هشام ج٢/ ٥٢٤. (٣) البدايه والنهايه ج٥/ ٧.

هناك سرا . . ثم تنداح دائرة الشك . . إلا أن تداركها يقظة المسلمين.

٢ ـ قد تؤثر دعاية القوم فى لحظة ما . . حتى على خاصة الأمة . . فقد تأثر على رضى الله عنه رغم اقتناعه الجازم بسلامة قرار الرسول . . وها هو ذا ينطلق لاحقا برسول الله فى محاولة لتصحيح الموقف.

٣ ـ فنّد الرسول ﷺ مزاعمم القوم. مؤكدا ثقته بعلى رضى الله عنه فكان ردا فوريا قبل أن تعشش الأوهام فى صدور المؤمنين. ذلك بأن موقع علىّ فى الجبهة الداخلية لا يغنى فيه سواه . .

٤ ـ وإذن فلابد أن يكون للأمة الإسلامية جهازا إعلامى رسلامى قادر على التصدى لكيد الأعداء وإبطال مفعوله قبل أن يستشرى.

التشكيك فى الرسالة :

ضلت ناقة لرسول الله ﷺ . فخرج أصحابه فى طلبها. فقال أحد المنافقين أليس يزعم محمد أنه نبى يحدثكم عن خبر السماء وهو لا يدْرى أين ناقته؟!

فقال الرسول لأصحابه :

«إن رجلا فيكم يقول: إن محمداً هذا يخبركم أنه نبى وهو يزعم أنه يحدثكم بخبر السماء. ولا يدرى أين ناقته. والله انى ما أعلم إلا ما علمنى الله. وقد دلنى الله عليها. وهى فى الوادى من شعب كذا. وقد حَبَستها شجرة بزمامها. فانطلقوا حتى تأتوا بها» . فانطلقوا. فجاءوا بها .

وأنت تلاحظ ما يلى : ـ

١ ـ لا يكتفى أعداء الإسلام بالقذائف الغادرة يوجهونها للجيش الإسلامى من الخارج . . ولكنهم يدسّون بعضهم داخل الصف الإسلامى. ليضرب من الداخل . . وفى الوقت المناسب.

فها هم أولاء منافقون ينخرطون فى سلك الجيش خفية . . حتى إذا أطمأن المسلمون إليهم. نفَثوا سمومهم . .

٢ ـ كان فى استطاعته ﷺ ـ وقد تحداه المنافقون ـ أن يرد عليهم لَمّا جاءه

الوحى بمكان الناقة بحديث يُشعر أنه يعلم الغيب . . فى محاولة للظهور فى هالة من القداسة يُحرِج بها مخالفيه . . ولكنه ﷺ لم يفعل مجددا إقراره بعبوديته لله تعالى .

فهو يقسم بالله . أنّ كل ما يُخبِر به إنما هو مما علّمه الله تعالى .

وهو يعلم مكان الناقه . لكن الله سبحانه هو الذى أعلمه بمكانها ولم يحب أن يحمد بما لم يفعل . . واضعا فضيلة الصدق أساسا للرد الإسلامى . . وفى الصدق منجاة .

وكم من أناس يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . . . ومن هذا العذاب : ظهور الحقيقة مستقبلا شاهدة بكذبهم فيما زعموه من قبل .

لعبة التمويه :

كان لعبد الله بن أبَىٍّ دوره البارز فى التمويه والتشويش على رسول الله ﷺ :

فقد عسكر فى ضاحية المدينة مع مجموعة من أتباعه .

فلما سار رسول الله ﷺ . تخلف ابن أبىّ بكل من معه . كما فعل فى غزوة أحد . فهو يخرج بأتباعه . ليُثبت عمليا أنه مستعد للقتال فعلا وها هو ذا مع أتباعه جاهزون . .

ثم يقرر الرجوع . لإيهام أنه دَرَس الموقف فوجد أن المشاركة فى المعركة صفقة خاسرة . . مستدفًا كسر الروح المعنوية لدى المؤمنين . . وهيهات .

استغلال الشعارات الدينية :

رفع المنافقون شعار الدين . ثم مارسوا تحته كل ما يريدون من خطط عدوانية : بنوا "مسجد الضرار" ورغبوا رلى الرسول ﷺ أن يصلى بهم فيه . تقنينا له وتشريعا . محاولين بالشعارات الزائفة إخفاء رغبتهم الحقيقية فى الإفساد فقالوا :

(بنيناه لذى العلة . والحاجة . والليلة المطرة) .

ولكن الرسول ﷺ اعتذر . . ونزلت آى القرآن الكريم تفضح نواياهم

محذرة الأجيال المسلمة من حيل الأعداء الذين يتاجرون بآلام الشعب وآماله فيرفعون شعار الدين تمويها.. وشعار الإصلاح الاجتماعى تغريراً.. حتى يمارسوا من خلف الستار أبشع صور الكيد

أنباء الاستعداد تبلغ المؤمنين :

ذكر ابن سعد وغيره قالوا:

بلغ المسلمين من "الأنباط" الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا...وأجلبت معهم "لخم" و"جذام" وغيرهم من متنصرة العرب وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء!.. فندب النبى ﷺ الناس إلى الخزرج. وأعلمهم بجهة غزوهم.

الموقف على الجبهة الإسلامية :

كان الموقف على الجبهة الإسلامية بالغ الصعوبة. التى بسببها سميت الغزوة "غزوة العسرة".

١ ـ كان الجو شديد الحرارة.

٢ ـ امتدت الظلال. وطابت الثمار مما يحمل الإنسان على الإخلاد إلى الأرض. بين الأهل والولد.

٣ ـ كان السفر بعيدا. إلى جانب كونه شاقا. من حيث إن الجيش سيعبر مفازا.. فلا ماء. ولا ظل. ولا أماكن للإيواء عبر الطريق الطويل.

٤ ـ لم تكن وسائل النقل كافية لاستيعاب المجاهدين.

٥ ـ لم تكن أسماء الجنود مدونة حينئذ. بما يشجع على التخلف. لأن المتخلف لن ينكشف أمره. إلا أن يفضحه الوحى.

٦ ـ يضاف إلى ذلك شراسة العدو. وإصراره على استئصال شأفة المسلمين بما يملك من عدة وعدد.

٧ ـ كان انضمام بعض القبائل العربية والنصرانية إلى جيش الروم نقطة ضعف بقدر مكان فى يد الرومان ورقة رابحة يلعبون بها.

من ملامح العسرة

بأقلام الكاتبين

حين يسلمنا زمام المقال إلى غزوة «تبوك» يتطلب المجال المزيد من الإفصاح عن عظمة ونزاهة هؤلاء الرجال.

فقد وصف القرآن وقت هذه الغزوة بـ «ساعة العسرة»، والمقصود جميع أوقات هذه الغزوة، حيث اجتمع عليهم عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء!!

وكانت فى رجب من السنة التاسعة للهجرة.. حيث تحرك أكبر جيش إسلامى مقاتل مع رسول الله ﷺ، عدته ثلاثون ألف مقاتل، لم يستكملوا ما يلزمهم من الزاد والعتاد، وكان البعير الواحد يتعاقب عليه ما يقرب من ثمانية عشر رجلا، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، وربما اضطروا الى ذبح البعير ليشربوا ما فى كرشه من الماء.

وذكر القرطبى عن الحسن: (كان زادهم التمر المسوس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة «أى الشحم الردىء» وكان النفر يخرجون ما معهم من التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم. أخذ التمرات فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتى على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلا النواة!

فمضوا مع النبى ﷺ على صدقهم ويقينهم رضى الله عنهم![1].

فى هذه الظروف المناخية الصعبة، ووسط هذه الأحوال الاجتماعية المضطربة، وخلال هذه الأهوال الاقتصادية الممضة.. يتقدم إلى رسول الله ﷺ سبعة اخوة، كلهم من أصحاب النبى الاكارم، وليس فى الصحابة سبعة إخوة غيرهم.. وهم بنو مقرن: عبد الله، وعبد الرحمن، وعقيل، ومعقل، والنعمان، وسويد، وسنان» يطلبون من الرسول المصطفى أن يحملهم معه فى الغزو، وحين لم يجد ما

(١) القرطبى ـ الجامع لأحكام القرآن/٨/ ٢٧٦.

يحملهم عليهم. انخرطوا فى بكاء حار فسموا «بالبكائين». . وفى هؤلاء البكائين نزل قول الله عز وجل: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [سورة التوبة :٩١، ٩٢].

يحدث هذا من الصحابة الأبرار، وهم قد علموا أن من عجز عن مؤونة القتال فقد سقط عنه القتال، ومع ذلك يتطوعون بأنفسهم ليرفعوا لواء الإسلام عاليا.

وقد شملت هذه الحالة كبارهم وصغارهم، أقوياءهم وضعفاءهم، أصحاءهم وذوى العاهات منهم، ومع أن الآية الشريفة أسقطت التكليف عن أصحاب الأعذار، إلا أن عزائم القوم ورغبتهم الخالصة فى الجهاد جعلتهم يرون الجهاد طريقهم المرسوم إلى جنات عرضها كعرض السماء والأرض.

فها هو ذا: (ابن أم مكتوم). وهو أعمى. يخرج إلى (أحد) ويطلب أن يُعطى اللواء، ويلح فى ذلك.

وها هو ذا (عمرو بن الجموح). وهو أعرج وكان من نقباء الأنصار. يقول له الرسول الكريم (ان الله قد عذرك) فيقول: **(والله لأحفرن بعرجتى هذه فى الجنة!!)**[1].

ويقول عبد الله بن مسعود: **(ولقد كان الرجل يؤتى به، يُهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف!!)** أى يمشى بين رجلين معتمدا عليهما من شدة ضعفه وهزاله! حتى يجد مكانه فى الصفوف فيشتد عزمه على الجهاد!

إنها نماذج باهرة. . تتقطع أعناق الرجال دون بلوغ ما بلغته من كرامة الجهاد وروعة الاستشهاد، وما يدنس صحفهم البيضاء بوصمة المغنم إلا حاقد خبيث، أو شرير خسيس. . يقيس أنواع السلوك بمقياس المادة، ولا يتصور نموذجا كنماذج

---

(١) القرطبى، الجامع لاحكام القرآن (٨/ ٢٢٦).

الصحابة. . لأنها تعطيه صورا فريدة لا مثيل لها في عالم اليوم[1] .

النفير العام :

ووسط هذه الغيوم. أعلن ﷺ النفير العام أو حالة الطوارئ القصوى:

وقد أراد ﷺ أن يلقن الأعداء درسا لا ينسى. . وليعلموا أن الإسلام جاء. . ليبقى. . فكانت هذه التعبئة استجابة لقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

ونبادر فنقول: أن الغلظة هنا ليست قاعدة. . ولكنها خاصة بالأعداء المجاورين المناوئين. . والذين يشكلون عقبه في طريق الدعوة التي لابد لها من الانطلاق. . إنها إذن الضربة المؤثرة التي تقصم ظهر عدو يحاصر الدعوة. حتى يعلم أن المؤمنين بالحق أقوى. . وحتى يُرهب القبائل العربية الدائرة في فلك الروم. فلعلها تفيق من غفوتها. . وربما كانت صحوتها سبيلا إلى أن تأخذ موقعها إلى جانب المسلمين. أو على الأقل تلتزم بالحياد.

التصريح بجهة الغزو :

كان من شأنه ﷺ إذا عزم على غزوة ورى بغيرها حتى لا ينكشف سرها. ومن ثم يبقى الأعداء في غفلتهم حتى يبهتهم: فلا يستطيعون عن الهزيمة حولا إلا في تبوك فقد أعلن أنهم ذاهبون إلى تبوك حتى يشعر المسلمون بخطورة الموقف. فيضاعفوا استعدادهم. مجنِّدين كل طاقاتهم النفسيه والماديه.

وربما لو علم الأعداء بتحرك المسلمين لعلهم أن يراجعوا أنفسهم. فلا يكون قتال. . ويكفي الله المؤمنين القتال.

.الرسول يحرض المؤمنين :

قال ابن إسحاق[2] :

---

(١) مجلة أخبار العالم الإسلامي

(٣) البداية والنهاية لابن كثير .

ثم إن رسول الله ﷺ جد فى سفره. وأمر الناس بالجهاز والانكماش[1].

وكان التركيز على الأغنياء القادرين على تمويل الجيش. والنفقة عليه.. والحُملان فى سبيل الله تعالى.

تنافس الصحابة :

كانت الغزوة امتحانا عسيرا. إلا أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم نجحوا فيه نجاحا منقطع النظير. حيث تنافسوا فى البذل.. بذل النفس وبذل المال ومن صور هذا العطاء:

١ ـ حمل رجال من أهل الغنى. واحتسبوا.

٢ ـ وأنفق عثمان رضى الله عنه نفقة عظيمه. لم ينفق أحد مثلها[2].

ويَرْوى الأحنف بن قيس فى ذلك:

سمعت عثمان بن عفان يقول لسعد بن أبى وقاص. وعلىّ. والزبير. وطلحة أنشدكم الله. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال:

«من جهز جيش العسرة. غفر الله له»، قالوا: اللهم نعم [3].

وقد جهزهم رضى الله عنه. حتى ما يفقدون خطاما ولا عقالا.

إن عثمان رضى الله عنه يسأل. وبإلحاح (أنشدكم الله) عن صحة ما نسب إليه ﷺ تنويها بمن يجهز جيش العسرة.. وما كان يسمع شهادة كبار الصحابة حتى أسرع بالبذل. فزود الجيش بكل ما يحتاج إليه حتى خطام الناقة!

وكان عثمان حينئذ يُمثل فريق الأغنياء من المؤمنين الذين يرتبطون عقلا وقلبا بقضية الدعوة التى كانت حياتهم. وعليها مماتهم. وكان بها عزهم. وإذن.. فحياتهم ذاتها فداء لها.. خاصة عندما تتعرض للخطر.

وإنهم ليصرفون النظر عن كل مشروعاتهم.. والتزاماتهم تجاه أهلهم وذويهم

---

(١) فى القاموس: كمشه أعجله وتكمش أسره. كانكمش.

(٢) راجع البداية ج٥/ ٥٤.

(٣) رواه النسائى من حديث حصين (عن البداية والنهاية ج٥/ ٥.

لتكون النفس والمال مرصودة لحساب الدعوة.. وأنفسهم بين جنوبهم تحمل على هذا البذل.. بل وتسعد به.

لم يكن عثمان وحده:

جاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة. وجاء أبى بكر بماله كله. لم يترك لعياله شيئا... وجاء عمر بنصف ماله.

ويعنى ذلك كله: تغلب الأغنياء على غرائز النفس المتشبثة بالمال.. وإنه الغلب الذى به يكون الانتصار فى كل المعارك... خارج النفس..

من ثمرات هذه التضحية:

كانت مسارعة الواجدين إلى الإنفاق على هذا النحو المتميز.. دافعا قويا حمل الفقراء على الانبعاث.

أى أن حملة التبرع استنهضت همم الفاقدين الذين انطلقوا على حداء الإيمان يَعْرضون حياتهم رخيصة فى سبيل الله..

وما أكثر الفقراء - أمس واليوم وغداً - المستعدين للتضحية بحياتهم..

لا برغيف العيش.. لَوْ أن الطليعة القادرة كانوا روّادهم إلى العطاء.

فإذا بذل الواجدون.. انقدحت الشرارة وسارع المؤمنون إلى البذل. وعندئذ يبرز واحد من أهم أسباب انتصار المسلمين. فإن تحقق.. جاء نصر الله والفتح وإن غاب.. غاب معه النصر المأمول:

إن الذى يضن بماله عن الإنفاق. يخيل إليه أن ذلك داع إلى نمائه. والواقع أنه داع إلى نفاده:

فإن الذين يضنون بأموالهم عن بذلها فى المنافع العامة. تضعف جماعتهم وتذل. حيال الجماعات المزاحمة لها.

فيقتضى نظام الوجود أن يستولى الأقوى على الأضعف. ويمتص عصارته فلا يبقى له ولا يذر.

ومن شاء الدليل: فليتأمل الأمم التي يبذل آحادها الملايين في سبيل المرافق العامة. تجدهم لا يزدادون إلا ثروة.

خلافا لأفراد الجماعات الذين يدخرون المال ولا ينفقونه:

فتراهم يتدهورون جماهير وفرادى في تيهور الفاقة.

فإن استطاع مؤسس الأسرة فيها أن يحتفظ بثروته. بتقتيره على نفسه. خَلَفه عليها من ينفقها بددا. في أهواء نفسه[1].

تنافس الفقراء:

أقبل الفقراء على رسول الله ﷺ يطلبون الحُملان لينالوا شرف الجهاد تحت لواء رسول الله.. حتى المرأة المسلمة: فقد تبرعت بقرطها. وخلخالها. وبالخواتم أيضا!

ونتأمل معا صورا من هذه الاستجابة المخلصة.. والتي تنبئك بأن هذا التنافس وان لم يف بحاجة الجيش كاملة نظرا لكثرة عدده.. إلا أنها تبقى دليلا على أثر الإيمان في توجيه المسلم الى التي هي أقوم. وفي أقسى المواقف.

عمر يصف الموقف:

كان الموقف عصيبا على نحو ما أشرنا. ويكفي ما وصفه به عمر رضي الله عنه وهو الصابر الجلد. بما يؤكد بلوغ المشقة منتهاها:

روى أحمد والحاكم:

(عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجنا إلى تبوك. في يوم قيظ شديد. فنزلنا منزلا وأصابنا فيه عطش شديد. حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع. حتى إن كان الرجل ليذهب ليلتمس الماء. فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع. حتى إن الرجل لينحر بعيره. فيعصر كرشه. فيشربه. ويجعل ما بقي على كبده)[2].

البكاؤون:

عن أبي موسى قال:

---

(١) عن مجلة الأزهر.

(٢) محمد الغزالي فقه السيرة / ٤٣٦.

(أرسلنى أصحابى إلى رسول الله ﷺ. أساله الحُملان لهم إذْ هم معه فى جيش العسرة وهى غزوة تبوك فقلت: يا نبى الله: إن أصحابى أرسلونى إليك لتحملهم - فقال: **«والله لا أحملكم على شىء»**.

ووافقته وهو غضبان. ولا أشعر... ورجعت حزينا من منع الرسول ﷺ. ومن مخافة أن يكون النبى وجد نفسه على - أى غضب -.

فرجعت إلى أصحابى فأخبرتهم الذى قال النبى ﷺ فلم ألبث إلا سويعة. إذ سمعت بلالا ينادى:

أى عبد الله بن قيس. فأجبته فقال. أجب رسول الله ﷺ. يدعوك. فلما أتيته قال: خذ هذين القرينين - لستة أبعرة ابتاعهن حينئذ من سعد فانطلق بهن إلى أصحابك. فقل: إن الله. أو قال رن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء فاركبوهن.

انطلقت إليهم بهن فقلت: إن النبى ﷺ يحملكم على هؤلاء. ولكنى والله لا أدعكم حتى ينطلق معى بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله ﷺ.. لا تظنوا أنى حدثتكم شيئا لم يقله رسول الله ﷺ: فقالوا لى: إنك عندنا لمصدق. ولنفعلن ما أحببت - أى فأنت مصدق عندنا ولكن نفعل فقط ما تحب)[1].

١ - ونحن أمام مجموعة من الشباب المنتمين إلى أمتهم. الحاملين همّ الدّين الذى وهبوه حياتهم. يعلنون بل يلحون أن تتحقق رغبتهم فى الجهاد.

٢ - وعلى مقتضى شريعة النظام لا يذهبون إلى الرسول فى مظاهرة. بل ينيبون أخا لهم فى عرض حاجاتهم.

٣ - لكن موارد الدولة لم تسمح بتحقيق هذا الرجاء. فعاد المندوب حزينا:

أولا: مخافة أن يكون قد أحرج رسول الله ﷺ.

ثانيا: لأن أمله مع رفاق السلاح لم يتحقق. ولم يكن الأمل هنا نزهة أو دنيا يصيبونها.. ولكنه الموت فى سبيل الله تعالى.

---

(١) البخارى.

٤ ـ وجاء الفرج بعد برهة قصيره.. فاستُدْعِى لتسلم الأبعرة.

٥ ـ ولا تنتهى مهمته بتحقيق الأمل.. بيد أنه يستبقى المودة. ويستديم الثقة به... عندما حاول أن يزيل ما يمكن أن يكون قد علق بأذهان من أرسلوه. لأن المسافة الزمنية بين اعتذار رسول الله عن حملهم. وبين استدعائه لتسلم الأبعرة كانت قصيرة وهى التى عبر عنها بقوله: (ما هى إلاسويعة) أى لحظة صغيرة.. وربما اشتبه الأمر على أصحابه.. لأن المنع والعطاء كادا يكونان فى لحظة واحدة.. من أجل ذلك قرر أن يُشهد من سمع مقالة رسول الله ﷺ. ليعلم صدقه..

لقد انتخبوه نائبا عنهم فى التعبير عن آمالهم.. فليكن عند حسن الظن به دائما..

٦ ـ لكن ثقة رفاقه به كانت كما هى قوية.. إلا أنهم أجابوه إلى طلبه فى الاستيثاق جبرا لخاطره.

وهكذا يتعاون الأصدقاء على البر والتقوى. ليظل الود موصولا. وحتى يفوّتون على الشيطان خطته فى تفريق الشمل الجميع.

٧ ـ ولا ننسى صراحة القائد الذى لم يغُش رعيته بمعسول الأمانى. وإنما صارحهم بحقيقة إمكانات الدولة وعجزها عن إجابة مطالبهم. فلما جاء الفرج أسرع بإرسال المعونه.

٨ ـ ولا ننسى أيضا نوع القضية التى من أجلها يعمل هؤلاء الشباب: إنها ليست حكما شرعيا فرعيا لا تكلفهم معرفته مالا أو طاقة. وإنما هى قضية الحياة والموت فى سبيل...

٩ ـ ولا يغيب عن بالنا رد الفعل لدى الشباب حين ضاقت موارد الدولة.. فلم يكن مظاهرة ولا مغامرة. ولكنه الإشفاق من فوت فرصة العمل بالجهاد فى سبيل الله.. ثم الأمل الوثيق فى فرج قريب.. والاحتفاظ بالطاقة لساعة قريبة وسوف يبذلونها رخيصة.

ومن البكائين علبة بن زيد :

عندما دعا النبى ﷺ إلى تجهيز غزوة تبوك تقدم علبة بن زيد ولم يكن معه غير سلاحه. ولا مال هناك ينفقه. ولم يجد النبى ﷺ ظهرا يحمله عليه. فماذا فعل؟

روى "البيهقى" فى الدلائل:

أن علبة بن زيد قام من الليل فصلى. وأخذ يبكى.. ثم ناجي ربه وقال:

اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغّبت فيه... ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به مع رسولك. ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه.

وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها: مال أو جسد أو عرض.

ثم أصبح مع الناس. فقال النبى ﷺ:

«أين المتصدق بهذه الليلة؟»

فلم يقم أحد.

ثم قال: **«أين المتصدق بهذه الليلة..»**

فلم يقم أحد.

ثم قال: **«أين المتصدق؟ فليقم...»** فقام. فأخبره.

فقال ﷺ: **«أبشر. فوالذى نفس محمد بيده: لقد كُتِبَت فى الزكاه المتقّبلة»**[1].

ولندع الذين أسعدتهم أقدارهم بالاشتراك فى المعركة.. ولنعش مع "علبة بن زيد" فماذ فى موقفه من معان؟:

لقد توفر له عذر فى التخلف..وكان المتوقع أن يرضى بالواقع المفروض.. لكن ضميره لم يهدأ حتى يجد لنفسه مخرجا عند رسول الله..

---

(١) البداية والنهاية: ج٥/٦.

فلما ضعف أمله في ذهابه مع إخوانه للمعركة.. ظل إيمانه متوهجا. والمعركة حية في ضميره. فتبرع بكيانه لمن استهدفه من المسلمين في ماله أو جسده أو عرضه.. وإذا فاته أن يبذل روحه تحت ظلال السيوف.. فهو يبذلها في الجبهة الداخلية إلى الله تعالى.

ومعنى ذلك أن إيمان الرجل المتحمس لا يرضى إلا بالعمر كله يقدمه طواعية... فإن لم يتمكن.. فإنه ما يزال مدخرا.. لمعركة قريبة يحقق فيها أمله في الشهادة التي كانت مستراد آماله. و إلى أن تجيء هذه المعركة. فهو راصد كيانه كله لله ولرسوله والمؤمنين.

الذين انتصروا على أنفسهم :

كان في المسلمين من ضعفت عزائمهم. ووهنت إراداتهم. حين وقعوا تحت ضغوط ثقيلة.. فلم ينشطوا للمعركة في مراحلها الأولى... ثم صحا فيهم الضمير.. فلما أفاق حمل السلاح. ولحق برسول الله ﷺ. ومنهم من أبطأ به بعيره.

ولقد أحس الذين أسعدهم القدر فوفقهم لاتخاذ قرار الجهاد مع رسول الله أحسوا بالخير الذى فات إخوانهم بقعودهم مع الخوالف.

وكانوا يذكرون للرسول ﷺ ذلك. لكنه لم يقطع الأمل في لحاقهم بهم. كاشفا عن شفقة القائد على جنده وحرصه حتى آخر لحظة على أن يكونوا تحت لوائه.

وكان الرجل يتخلف فيقولون: يا رسول الله: تخلف فلان. فيقول: **«دعوه. إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم. وان يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»**.

حتى قيل يا رسول الله: تخلف أبو ذر وأبطأ بعيره. فقال: **«دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»**.

فتلوم أبو ذر بعيره. فلما أبطأ عليه. أخذ متاعه. فجعله على ظهره. ثم خرج يتبع رسول الله ماشيا..

ونزل رسول الله ﷺ بعض منازله. ونَظَرَ ناظرٌ من المسلمين فقال:

يا رسول الله: هذا الرجل ماش على الطريق فقال: «كن أبا ذر».

فلما دنا القوم قالوا: يا رسول الله: هو والله أبو ذر فقال ﷺ: «**يرحم الله أبا ذر: يمش يوحده. ويموت وحده. ويبعث وحده**»[1].

أبو خيثمة :

كما سعد المسلمون بقدوم أبى ذر. فقد سعدوا أيضا بقدوم أبى خيثمة:

ومن قصته أنه (رجع بعدما سار رسول الله ﷺ أياما. إلى أهله. فى يوم حار. فوجد امرأتين له فى عريش لهما. فى حائطه قد رشت كل واحدة منهما عريشها. وبَّردت فيه ماء. وهيأت له فيه طعاما، فلما دخل. قام على باب العريش. فنظر إلى امرأتيه. وما صنعتا له فقال: رسول الله ﷺ فى الضح. والريح. والمطر. وأبو خيثمة فى ظل بارد. وطعام مهيأ وامرأة حسناء. فى ماله مقيم. ما هذا بالنصف!!

والله لا أدخل عريش واحدة منكما. حتى ألحق برسول الله ﷺ فَهيِّأَا زادا. ففعلتا. ثم قدم ناضحه. فارتحله ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ. حتى أدركه حين نزل بتبوك.

فلما دنا. قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال ﷺ: «**كن أبا خيثمة**». فقالوا: يا رسول الله: هو والله أبو خيثمة.

ثم اخبر رسول الله الخَبَرَ. فقال خيرا. ودعا له بخير [2].

وتأمل رفاق السلاح يبتهجون بنفرة المجاهدين الذين افتقدوهم فلم يجدوهم. ولقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن يحدُث ذلك...

فقد كانت فرصة أظهرت معادن الرجال.. وردت كيد الأعداء الظانين بالمسلمين ظن السوء.

وكفى بهذا شهادة لمثل «أبى خيثمة» الذى أحاطت به كل المغريات. من

---

(١) البداية والنهاية ج٥/٩٠٨.   (٢) البداية والنهاية ج/٥/٨ .

المال.. والبنين.. والنساء.. وكادت أن تشل حركته.. لكنه انتزع نفسه انتزاعا كشف عن عمق الإيمان وقوته وقدرته على الاستعلاء فوق جواذب الأرض.

الثلاثة الذين خلفوا:

على هذه اللحظات التاريخية من حياة الدعوة الاسلامية. حدث أن تخلف ثلاثة من الصحابة عن الغزوة ـ مع صدق إيمانهم ـ.

وكان من تدبير الحق سبحانه وتعالى أن يكون هذا التخلف ـ ورب ضارة نافعة لما سيسفر عنه فى النهاية من دروس كان لابد منها لإعداد الأمهة لخوض معارك المستقبل.

ونستمع إلى تفاصيل القصة من أحد أبطالها وهو "كعب بن مالك" رضى الله عنه: عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ـ قال كعب لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها. كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ.

فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا، وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم، كتاب حافظ ـ يريد الديوان.

قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوه حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه. فلم يزل يمادى بى حتى اشتد بالناس فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا.

فقلت أتجهز بعده بيوم أو بيومين، ثم ألحقهم فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت فلم يقدر لى ذلك، فكنت إذا خرجت الناس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت. فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجل مغموصا عليه النفاق أو رجل ممن عذر الله من ـ الضعفاء. ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك، : ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره فى عطفه. فقال معاذ بن جبل بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى، وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى. فلما قيل أن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادما وكان إذا قدم من سفر بدا بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلا ـ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال «تعال» فجئت أمشى حتى جالست بين يديه، فقال لى: **«ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟»** فقلت بلى إنه والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه أنى لأرجو فيه عفو الله والله ماكان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: **«أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك»** فقمت. وثار رجال من بنى سلمة ـ فاتبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما

اعتذر إليه المتخلفون، وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع أكذب نفسى ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا نعم رجلانُ قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت كم هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمرى، وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى التى أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب للقوم وأجلدهم فكنت أخرج ـ فأشهد الصلاه مع المسلمين وأطوف فى الأسواق، ولا يكلمنى أحد وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد السلام فقلت: يا أبا قتاده، أنشدك بالله، هل تعلمنى أحب الله ورسوله فسكت. فعدت له فنشدته فست. فعدت له نشدته فقال: الله ورسوله ؟ أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار ...

قال فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يسيرون له: حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك ـ غسان فاذا فيه: أما بعد فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، الحق بنا نواسك. فقلت لما قرأته وهذا أيضا من البلاء. فتيممت بها التنور فسجرته بها. حتى إذا مضت أربعون ليله من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ فقال إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال لا: بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ.

فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال لا، ولكن لا يقربك قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء.

والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا: فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأه هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا.

فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ فى أعلى جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج وأذن رسول الله ﷺ بتوبه الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوته اياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهروا حتى صافحنى وهنانى والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «**أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**». قال قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «**بل من عند الله**». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله من توبتى أن انخلع من مالى صدقه إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «**أمسك عليك بعض مالك، فهو خير**

لك». قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر. فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث ـ منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ: أحسن مما ـ أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ [التوبة: ١١٧] ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِين﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط ـ بعد أن هدانى للإسلام ـ أعظم من نفسى من صدق لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى [٩٥: التوبة].

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُم﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين﴾.

قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال الله [١١٨: التوبة] ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا ورجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه).

وقبل أن نركز على بعض الدروس المستفادة من قصة هؤلاء الثلاثة نبادر إلى توضيح معنى مهم:

لقد كان من حكمة الله تعالى أن يكون هذا المنعطف الخطر على منحدر عمر الدعوه. ليَقِىَ الله أمته من الطابور الخامس المندس فى كيان الأمة ولا يشعر به أحد من المنافقين الذين رَشَحَتْ بثور الحقد على وجوههم.. والذين جاءوا إلى الرسول ﷺ (مصفرة وجوههم. يابسة جلودهم. كأنهم الأشباح خارجة من قبورها).

وأيضا ليحميها من غلاظ الأكباد. بجَاحِ العيون من المشركين الظانين بالله ظن السوء..

وبذلك يتميز الصباح عن ظلمة الليل.. وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينه.

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعدينَ . لَوْ خَرَجُوا فيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[1].

دروس لأولى الألباب:

فى هذه القصة المثيرة دروس نلفت النظر الى بعضها تبصرة وذكرى.

أوفى الأبناء يروى عن أبيه:

(عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ـ قال:

سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك...)

إن الابن الوفى ـ عبد الله بن كعب ـ يلازم أباه حين فقد بصره.. فكان قائده عَبْر تالطريق..

وفى نفس الوقت كان راويته الأمين: يتلقى عنه.. ويتعلم منه.. ويعيش الولد مع أبيه أخطر أيام عمره.. فيدرك الشاب طبيعة الطريق الإيمانى المحفوف بالأشواك.. ليأخذ وضع الاستعداد للتعامل مع المستقبل..

ولا يتحرج الولد من نقل قصة تَحْمِل معنى الإدانة لأبيه على نحو ما... ينقلها بأمانة المؤرخ الواعى.. مدركا أن نسبة الحرج التى قد تصيبه لا تساوى شيئا أمام ما يحققه الموقف من عبر تَصْلُح بها الأمة كلها.

كعب ينفى عن نفسه تهمة التقصير:

(قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة

---

(١) التوبة: ٤٦، ٤٧.

تبوك.

غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر. ولم يعاتب أحدا تخلف عنها.

إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش. حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة: حيث تواثقنا ـ تعاهدنا ـ على الإسلام. وما أُحب أن لى بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها..).

إن كعبا رضى الله عنه يدافع عن عسكريته بأنه لم يتخلف إلا عن تبوك.

وإذا كان قد تخلف فى "بدر" فلأن الأمر فيها يختلف عنه فى تبوك: من حيث كانت القضية فى بدر قضية العير ابتداء.. ثم فُرض القتال الذى لم يكن فى الحسبان. ولذلك لم يكن هنا عتاب على من تخلف..

ومع ذلك فقد شهد "بيعة العقبة" التى وإن كانت "بدر" أشهر منها.. إلا أن شهود العقبة أدخل فى الأهمية وأدل على صدق الإيمان الذى تم والمسلمون ضعاف.

أى أن تخلفه فى "بدر" لم يكن مع سبق الإصرار... لأن الأمر فى بدر أريد به توجيه ضربة اقتصادية إلى العدو.. وشاء الله تعالى أن تكون مواجهة عسكرية.

النقد الذاتى:

(... كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى. ولا أيسر. حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة.

والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط. حتى جمعتهما فى تلك الغزوة)

ويعترف المقاتل هنا بِخَطئه البيِّن.. فى شجاعة تدل على أصالتها فى قلب الرجل...

وقبل أن تناوشه سهام النقد من هنا وهناك.. يتولى هو نقد نفسه نقدا ذاتيا لاذعا...

فقد كان من ناحية اللياقة العسكرية.. فى أقوى حالاته... ومن ناحية عدة القتال فقد كان لديه ما يحمله ويحمل غيره.

وبينما عادَ غيره يبكى لأنه لم يجد ما يُحمل عليه.. كان هو على أوفى ما تكون القدرة.. والقوة... ومع ذلك غلبت عليه نفسه.. مشيرا بذلك إلى الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس.. ومدى قدرته على التأثير... التأثير لا على عمق الايمان فقط.. ولكن على تخدير الإرادة حتى لا تستطيع أن تتخذ قرار الحرب.. بينما الجو ملبد بغيوم داكنه.

صعوبة الموقف:

لقد كان يكفى "كعبا" أن يعترف بخطئه علانية.. لكنه لم يكتف بذلك.. فأصدر بنفسه.. على نفسه حكما حاسما..

ذلك بأنه يريد استئناف حياة جديدة.. لا رجعة فيها إلى مثل ما كان منه فى تبوك... ولذلك.. كان صريحا صراحة من يبوح بكل أسرار النفس مهما كانت قسوتها حتى لا تبقى فيه بقية تؤرقه ذكراها..

وكان من تمام الاعتراف بالتقصير.. ما حكاه من صعوبة موقف المسلمين والذى كان يفرض عليه الجهاد:

وذلك قوله:

(... ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوه: غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد. واستقبل سفرا بعيدا ومفازا. وعدوا كثيرا.

فجلى للمسلمين أمرهم. ليتأهبوا أهبة غزوهم. فأخبرهم بوجهه الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير. ولا يجمعهم كتاب حافظ.. بريد الديوان - قال كعب:

فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له. ما لم ينزل فيه وحى الله.

وغزا رسول الله تلك الغزوه حين طابت الثمار والظلال..).

إن الرجل ليكاد يقول: إنه سقط فى الامتحان... فقد كانت كل الدلائل تشير إلى صعوبة الموقف.. وفداحة النتائج التى تتمخض عنها الحرب.. ومع ذلك فقد آثر الثمار.. والظلال.. والأهل والولد.

ومع ذلك.. فلا يأس مع الإيمان.. وليكن الاعتراف بداية لِميلاَدٍ جديد.. بما يشير إليه من دروس وعبر.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة:

قال كعب رضى الله عنه:

(... وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه فطفقت أغدوا لكى أتجهز معهم. فأرجع. ولم أقض شيئا. فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بى. حتى اشتد بالناس الجد.

فأصبح رسول الله ﷺ. والمسلمون معه. ولم أقض من جهازى شيئا. فقلت: أتجهز بعده بيوم. أو يومين.. ثم ألحقهم..

فغدوت بعد أن فصلوا. لأتجهز. فرجعت.. ولم أقض شيئا ثم غدوت. ثم رجعت. فلم أقض شيئا. فلم يزل بى حتى أسرعوا. وتفارط الغزو[1]... وهممت أن ارتحل فأدْركَهم...).

وتأمل "كعبا" رضى الله عنه وهو يحكى بدقة رحلته النفسية التى بدأ فيها أول الأمر قويا مستعدا. ثم كيف انطفأ ذلك البريق.. رويدا رويدا...

وكل تردد.. يلد ترددا... وكل فتور.. يولد فتورا..

حتى صارت الإرادة فى النهاية ذُبالة خافتة.. تطفئها هبة النسيم!

إنه لم يحسم الموقف منذ اللحظة الأولى.. فلما تراخى الحبل فى يده.. تراخت إرادته فى نفس اللحظة على خطٍّ مواز.

ورحم الله الشاعر القائل:

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة　　　　فإن فساد الرأى أن تترددا

وقد كان "كعب" رضى الله عنه مدركا خطورة الموقف.. وأنه لا يحتمل

التسويف . .

فلما سمح لخواطر القعود أن تتدخل فى حياته . . صارت هذه الخواطر جنودا للشيطان سلطها عليها . . فقعدت به فى منزله . .

رياح الندم تهب:

قال كعب :

(وليتنى فعلت . . فلم يُقدر لى ذلك) .

واستيقظت مشاعر الندم . . . حين لا ينفع الندم .

ولكن . . . لماذا اشتعل قلب الجندى المسلم ندما؟

يجيب هو قائلا :

(. . . فكنت إذا خرجت فى الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفت فيهم : أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مَغْمُوصًا[1] عليه النفاق أو رجلا : ممن عذر الله من الضعفاء) .

لقد بدأ الحزن النبيل يهز الرجل . . لينفض عنه آثار الغفلة . .

وبدأ حساب النفس العسير . . بما يرى ويسمع من منغصات تلسع ضميره الإيمانى والعسكرى . . ففاض الأسى من قلبه نهرا طهورا سوف يغسله . . ليعود كما كان . لقد وجد نفسه غريبا فى وطنه بعد أن سبقه الفرسان إلى معركة الشرف . . ولم يجد حوله إلا المنافقين . . أو المرضى . .

فكان ذلك الدرس العملى بداية لسلسلة من العذاب النفسى . . فجَّرت فى كيانه ثورة من الندم أن لم يكن مع رسول الله مجاهدا . . . ولا سيما ومسوغات الجهاد وفيرة كثيرة :

١ - لقد أخلّ بواجبات إيمانه الذى يفرض عليه أن يهب للدفاع عنه . : طاعة لرسول الله . .

(١) أى فات وسبق.

٢ - وأخل أيضا بواجبه كرجل من الأنصار الذين بايعوا محمدا على الجهاد فى بواكير الدعوة.

٣ - ثم هو القائد العسكرى المرموق.. ومكانه هناك فى الجبهة قدوة حسنة.. تقاتل.. فتحضُ على القتال.. وإذا كان هناك من يرضى ليقعد مع الخوالف فليس هو "كعب بن مالك".

٤ - لم تكن له فى يوم من الأيام غميزة فى دينه. ولا فى عسكريته. فما الذى دهاه حتى تخلف.. جالبا على نفسه شبهة التقصير وكل وقائع حياته تنفى ذلك. بينما غيره ممن لا يرتقون إلى سمائه. هُرعوا إلى المعركة دونه.

٥ - وأين هو من البكائين الذين بللوا الأرض بدموعهم لأنهم لم يجدوا ما يحملون عليه.. بينما هو يستخذى وكل الدواعى تحضه على القتال؟

القائد الأعلى يتفقد جنده:

قال كعب (... ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم: ما فعل كعب؟

فقال رجل من بنى سِلمة: يا رسول الله: حبسه بُرداه. ونظره فى عِطْفه[1].

فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت: والله يا رسول الله. ما علمنا عليه إلا خيرا.

فسكت رسول الله ﷺ..).

ونبادر هنا فنلفت النظر إلى يقظة القائد الأعلى الذى يعيش مع الأمة معركتها على الطبيعة. من غرفة القيادة..

يقول الدكتور حسين مؤنس[2]:

(ومن دلائل فطنته ﷺ. أنه كان يعرف وجوه كل أصحابه حتى فى كبار المغازى. وكان دائم التصفح لوجوههم:

---

(١) العطف: الجانب والمراد: إعجابه بنفسه.

(٢) دراسات فى السيرة النبوية: ١١٨.

فإن وجد فيهم غريبا. أنكره وأقبل على صاحبه يسأله. عن أمره.

وفى أكثر من مرة تبين أن الوجه الغريب لدسيس على المسلمين. دخل فى جملتهم. يستطلع أمورهم. ليبلِّغ الأعداء ما رأى. وما سمع. فيكون الرسول من دون عامة أصحابه هو الذى يكشف أمر الجاسوس الدسيس.

فإذا انكشف أمره. دعاه الرسول إلى دخول الإسلام فإن دخل فيه عفا عنه.

لأن الإسلام يجب ما قبله.

بل يبلغ الأمر أن يكون الدسيس قد اندرج فى جملة المسلمين. يريد بالرسول أذى... فلا يكاد يرى وجه الرسول. ويسمع صوته. حتى تزول من نفسه كراهته ويصبح من أحب الناس إليه. فَيُسلم على يديه. وينتهى الأمر).

بين الغيبة والنقد:

وفى تفقده ﷺ لجنده.. اكتشف غياب كعب رضى الله عنه...

فلما سأل عنه.. جاءه جوابان مختلفان:

فقد حمل عليه واحد من رفاق السلاح.. ناعيا عليه تخلفه..

بينما رد "معاذ بن جبل" عنه ذلك السهم بالدفاع عنه..

والملفت للنظر: أن الرسول ﷺ سكت.. ولم يعقِّبْ!

ومعنى ذلك أنه موافق على وجهتى النظر على ما بينهما من اختلاف....

وربما جاز لنا أن نقول: إن الذى هاجم.. والذى دافع.. كلاهما يصدر من مشكاة واحدة: هى الغيرة على الحق.. والغيرة على المخلصين الذين يعرِّضون إخلاصهم للخطر بالتخلف عن موقع هم أجدر الناس به.. فالنقد هنا بناء: لا يَجْرَحُ.. وإنما يصلح..

وللهجو ما يسوغه.. وللدفاع أيضا ما يسوغه.

ومعنى ذلك أنه لا بأس بالنقد البناء المستهدف تجلية الحق..

وتنبيه المخطئ ولو بقوة الى حجم خطئه ليعود إلى الصف.

وحينئذ يكون النقد القاسي نصيحة يقدمها الناقد تذكر فتشكر.

وبذلك يتضح الفارق البعيد بين النقد الهادف.. والغيبة الهادمة.

اللحظة الحرجة:

(.. قال كعب بن مالك:

فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى. وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخْرج من سَخَطه غدا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما. زاح عنى الباطل. وعرفت أنى لن أخْرج منه أبدا بشيء فيه كذب - فأجمعت صدقه..)

عندما استدار الرسول راجعا.. حَضَرَهمٌ كعب. فى أوانه. وبدأ يعد نفسه للمساءلة.... فرتّب أوراقه فى محاولة للخروج من سخط رسول الله ﷺ.

وطاف برأسه طائف يزين له الكذب الذى يمكن به أن يخرج من عنق الزجاجة.. ولم يعش محنته وحده.. ولم يستقل فيها برأى.. بل شاور المخلصين من أهله.. فلما وصل الرسول ﷺ فعلا.. رزقه الله تعالى نعمة التوفيق فأراه الحق حقا.. وأجمع أمره.. وكانت عزمة من عزمات الخير حين قرر أن يكون صادقا مع نفسه.. ومع رسول الله ﷺ.

الحساب اليسير:

(وجاء المخلفون. فطفقوا يعتذرون اليه.. ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم. وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله).

ويلاحظ هنا يُسرُ الحساب على قدر ما للمعتذرين من وزن خفيف..

إنهم لم يتركوا فراغا يذكر عندما غابوا..

أما المخلصون من أمثال كعب.. فان اخلاصهم محسوب عليهم.. ومن ثم

كان حسابهم عسيرا:

الرجوع إلى الحق:

إن الدولة والدعوة للمخلصين لها. وانتصار الحق منوط بجهادهم. **فإن هم** تخلفوا فمن ذا الذى ينوب عنهم؟

سوف ينتهى كل شىء فى غيابهم..

من أجل ذلك.. كان حساب "كعب" رضى الله عنه **على قدر مكانته:**

قال كعب:

(**فجئته. فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب. ثم قال: «تعال» فجئته** أمشى. حتى جلست بين يديه. **فقال لى:**

«ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت [1]ظهرك؟» **فقلت: بلى.. إنى والله لو** جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر. **ولقد** أُعطيت جدلا.. ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى. ليوشكن الله أن يسخطك على. ولئن حدثتك حديث صدق **تجد على فيه.** إنى لأرجو فيه عفو الله.

لا والله ما كان لى من عذر.. **والله ما كنت قط أقوى. ولا أيسر منى حين** تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ:

«أمّا هذا فقد صدق. فقم حتى يقضى الله فيك». فقمت..)

كانت بسمة الرسول ﷺ مشوبة بنسبة من العتاب الغاضب **على فارس مثل** كعب بن مالك تسمح له نفسه أن يقعد مع الخوالف.. **بينما مكانه هناك على خط** النار..

وكعب رضى الله عنه كان **يفهم ذلك جيدا.. وهو سر عذابه فى نفس الوقت!**

(١) اشتريت بعيرك.

ولقد كان بإمكانه أن يُضلل العدالة بما يملك من الكلام الساحر.

ولكنه بإحساس المريض الراغب فى الشفاء.. كَاشَف الرسول بكل شيء حتى يطب له.. فيخرج من بحر التمزق طاهرا آمنا.. كما كان.

وأنقذته نفسه اللوامة.. من هذا الضغط الثقيل.. فآثر الصدق.. فكانت نجاته فى صدقه.. الذى أعلنه ﷺ..

قلوب المؤمنين مع المذنبين:

(وثار رجال من بنى سلمة. فاتّبعونى فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا. ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون... قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ﷺ لك.

فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذِّب نفسى. ثم قلت لهم:

هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا نعم: رجلان قالا مثل ما قلت. فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما.

قالوا: مُرارة بن الربيع العمرى. وهلال بن أمية الواقفى. فذكروا لى رجلين قد شهدا بدرا. فيهما أسوة. فمضيت حتى ذكروهما لى..)

لم يفرح المؤمنون الذين استجابوا للرسول فى تبوك تاركين إخوانهم المُعْذِرين[1] يأكلهم الهم والحزن.

بل كانت لهم محاولات للوقوف إلى جانب أخيهم المصاب.. فكان هذا الاقتراح بإعادة المحاولة رغبة فى النجاة من قسوة الموقف..

ولم يأت هذا الاقتراح من فراغ:

فإن لكعب رضى الله عنه ماضياً يشهد له.. إلى جانب أن ذنبه مهما كان. فسوف يغسله استغفار رسول الله ﷺ.

---

(١) بضم الميم وسكون العين وكسر الذال: مَن له عذر مقبول أما المعذّرون بتشديد الذال المكسورة فهم مَن يظنون أن لهم عذار ولا عذر لهم. قال تعالى ﴿وجاء المعذرون﴾ قال ابن عباس: رحم الله المعْذرين - بسكون العين - ولعن الله المعذّرين بتشديد الذال.

ومالت نفس كعب إلى اقتراح يصادف هوىً فى نفسه.. إلا أن عزيمة الصدق كانت أسرع إليه من رغبة النفس.

والأحرار من الرجال يتحملون قسوة الموقف.. ولا يترخصون احتفاظا بكرامتهم في القمة.. ومن ذلك ما قاله الشاعر:

إذا قيل: هذا منهل. قلت: قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما

ولقد كان كعب رضى الله عنه حرا.. وكان فوق ذلك مؤمنا... فاختار ما يليق بالأحرار المؤمنين. حين قرر الثبات على موقفه الصعب منحازا فى نفس الوقت الى رفيقيه.. مُرارة... وهلال.. والمصائب يجمعن المصابينا.

من سمات المجتمع الإسلامي:

وهنا نظهر بعض ملامح المجتمع الإسلامى المترابط:

يخطئ المسلم.. فلا يقسو عليه إخوانه.. حتى لا يقطعوا بالقسوة طريق عودته إلى الحق. بل يأخذون بيده.. وبرفق. لينهض من جديد.

وما أحوج الخطائين إلى اليد الحانية تمتد إليهم.. لتصل بهم إلى بر الأمان.

فإذا انكمشت هذه اليد فلم تمتد.. تحمل المتفرجون كفلا من المسؤلية بما فرطوا فى جنب الدعوة التى لم تكن هدَفهم حين نكصوا على أعقابهم. وإنما كانت الأهواء تملى لهم.

المقاطعة:

قال كعب (ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه.

فاجتَنَبنا الناس. وتغيروا لنا. حتى تنكرت فى نفسى الأرض. فما هى التى أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.

فأما صاحباى. فاستكانا. وقعدا فى بيوتهما يبكيان.

وأما أنا: فكنت أشبَّ القوم. وأجلدهم:

فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين. وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد.

وآتى رسول الله ﷺ. فأسلم عليه. وهو فى مجلسه بعد الصلاه فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام على. أم لا؟

ثم أصلى قريبا منه. فأسارقه النظر. فإذا أقبلت على صلاتى. أقبل إلىّ وإذا التفت نحوه أعرض عنى).

لقد كان لقرار المقاطعة ما يسوغه:

أولا: أين هو كعب العربى الأبى؟ وكيف طاوعته نفسه فقعد. وفى سمعه ما قاله الشاعر المعبر عن هذا الإباء الذى هو فطرة العربى وسليقته:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم عن النساء ولو باتت بأطهار

أى لا صوت هناك يعلو فوق صوت المعركة.. وكل المآرب الشخصية مهما ألحت دواعيها.. تنحسر.. ليبقى الولاء كله للمعركة الفاصلة.

ثانيا: أين كان كعب بن مالك المؤمن.. والذى تسلم مع الصحابة الرسالة وديعة غالية.

ومن الذى سوف يوصلها إلى الأجيال من بعده كاملة كما تسلمها؟

ثالثا: لقد كان القرار صارما.. على قدر خطره وأثره.. وكان لابد من درس يسامت الخطأ.. ويجتث أسبابه من النفوس.. كل النفوس... لا نفسِ كعب ورفيقيه فقط..

إن الرسول ﷺ يضرب بقوة ليجنِّب الأمة الإسلامية داء سوف يتهدد وجودها مستقبلا:

وهو حب الدنيا وكراهية الموت.. إنه الوهن الذى سوف يقذفه الله فى قلوب الأمة من بعد والذى بدت مقدماته فى قعود كعب وغيره.. وركونه إلى الظل والأهل. بينما مصير الأمة تحت رحمة أعدائها.

وإذن فلابد من العقاب. . وليكن العقاب جماعيا. . وعلى مدى خمسين ليلة.

ونلاحظ فى هذه المقاطعة ما يلى:

١ ـ كانت الاستجابة جماعية. وفورية.

٢ ـ وكانت من الالتزام لدرجة أن الأرض تغيرت حتى لم تعد هى أرضه التى يعرفها.

٣ ـ حين أُخبر كعب أن زميليه استكانا وقعدا يبكيان. حاول أن يعتذر عنهما بأنه كان شابا دونهما. . فكان أقدر منهما على الطواف والمواجهة وفى الاعتذار فى ساعة العسرة ما فيه من نبل.

٤ ـ تحمل كعب رضى الله عنه قسوة الموقف بمفرده. . وكانت فرصة تقَلّب فيها على ما يشبه الجمر المتقد. . حين يقبل على إخوانه. . فيعرضون. . وحين يسارق الرسول ﷺ النظر لعله يحظى منه ببارق من الرضا. . يفك الحصار المضروب.

خط الدفاع الأخير:

يقول كعب رضى الله عنه:

(. . وحتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس. مشيت حتى تسورت جدار حائط[1] أبى قتادة وهو ابن عمى. وأحب الناس إلى. فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام.

فقلت يا أبا قتادة: أنشدك الله. هل تعلَمُنى أحب الله ورسوله؟ فسكت. . فَعُدت له. فنشدته. فسكت. فَعُدت له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلمْ. ففاضت عيناى. وتوليت حتى تسورت الجدار).

لقد كان هناك أمل لا يخبو ضياؤه فى قلب "كعب" رضى الله عنه. . أن تنكشف هذه الغمة. . ويَنْفرج ذلك الهم الذى شل حركته حين خاصمه الجار.

(١) بستان.

والصاحب.. وزميل العمل..

فلما اتجه إلى ابن عمه وجد نفس الإصرار على المقاطعة التزاما بتنفيذ أمر رسول الله ﷺ..

إصرار يتأبى على عواطف القربى. ولحمة النسب. رغم محاولات استنطاق ابن عمه الحبيب "أبى قتادة".

فلما فاضت عيناه حزنا أن لم يجد مجيبا استسلم للقضاء.. فى لحظة يحس فيها المذنب بحجم المعصية.. وآثارها.. وهى نفس اللحظة التى يدبر الله تعالى فيها لعبده الذى لا يُحْسن التدبير.. إذ يهيىء له أسباب التوبة النصوح بهذا الامتحان العسير.. حتى يعلم أن هناك ما هو أغلى من الحياة نفسها.. وهو الحق..

ومن خلال هذه المحنة العصيبة تخرج الرجولة أنصع جوهرا: لتكون أقدر من بعد على الصّمود فى وجه الأحداث.

ان البَحَّار لا يمتحن فى النهر الهادئ.. ولكنه يمتحن فى البحار الصاخبة..

يقول أحد المغامرين.. (والقياس مع الفارق):

(حيث الطرق ممهدة.. منبسطة.. أفقد أملى. وحيث البحار مصطخبة.. والسموات ملبدة.. أجد طريقى وأملى. كل ما هو سهل واضح يكربنى.. وكل ما هو جائش.. متعرج.. مكفهر.. يأسرنى. لابد لى من جلبة أقهرها.. كى أعرف الهدوء ولابد لى من فوضى أطوعها.. كى أقر النظام. ولابد لى من ظلام أبدده.. كى أرى النور.. وهذا النور وليد الكفاح.. فهو الصفاء... والصفاء الذى ينشده الإنسان من كفاحه غايته الأخيرة العليا.

وهذه الغاية الأخيرة العليا.. تتمثل فيها قدرتك يا الله)

الصائدون فى الماء العكر:

قال كعب:

(.. فبينا أنا أمشى بسوق المدينة. إذا بنبطى - تاجر - من أنباط أهل الشام.

ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟

فطفق الناس يشيرون له. حتى إذا جاءنى. دفع إلىّ كتابا من ملك غسان فإذا فيه:

(أما بعد: فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك. ولم يجعلْك الله بدار هوان ولا مضيعة. فالْحق بنا. نواسك.

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. فيممت بها التنور. فسَجَرته بها).

إن أعداء الإسلام لا ينامون.. وهم دائما ينتظرون ويتربصون:

فما دام المسلمون أقوياء.. وما دام الصف الإسلامى كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. فإن أعداءنا لا يحاولون اختراقه..

ولكنهم يتحينون الفرصة المناسبة.. التى تكون الضربة فيها مؤثرة..

وقد وجدوها. عندما نقل إليهم عملاؤهم فى الداخل.. والمندسون بيننا.. بأن "كعبا" يعيش محنة قاسية.. وهنا تحركت الأفعى لتنفُث سمومها الناقعات..

ولقد كان هناك غير كعب ممن تخلفوا.. بيد أنهم لم يكونوا فى بؤرة الشعور.. وكان التركيز على "كعب" بالذات.. لما له من خطر عظيم.. ولو استطاعوا كسبه لكان ذلك سهما موجعا فى كَبِد الأمة..

ولقد كان من المتوقع أن تنجح المحاولة ولو جزئيا.. نظرا لقسوة الموقف الذى لم يترك "لكعب" خيارا.. ولم يكن أمامه الا أن يرحل تحت ضغط الواقع الثقيل.. إلى حيث يجد لدى ملك غسان متسعا.

هكذا ظن المغرضون.. ولكن الذى لم يتوقعوه هو هذا الإيمان الذى لا يزيد المؤمن إلا ثباتا ورسوخا.

لقد أدرك كعب بحسه البصير مرامى هذه اللعبة السياسية الانفصالية..

وأدرك أيضا خبث الدوافع من ورائها.. فكان رده فوريا.. فأشعل الخطاب نارا. فلم يكتف بتمزيقه بل جعل الخطاب الآثم طعمة للنيران.. ليفلت من جاذبية الموقف الذى يَتزين له مستغلا عزلته وغربته.. وليعلم الماكرون أن مكرهم

إلى زوال فلا يحاولوا استئناف التجربة معه أو مع غيره.

لقد كان كعب يمتلك عزما.. زانه حزم أنهى الجولة لصالح الحق..

لقد جرب رضى الله عنه عاقبة التردد من قبل.. حين لم ينهض مع الجيش الذاهب فكان ما كان من هوان. فليحسم الموقف.. حتى لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين!!

المكر السيء.. مستمر:

باءت محاولة "ملك غسان" بالفشل.. لأنها اصطدمت بإرادة الصحابى الجليل.. فارتدت على أعقابها..

ولكن تبقى الواقعة درسا للمسلمين ليكونوا دائما على وعى كامل بما يدبر لهم فى الخفاء.. حتى لا يحصروا همهم فى الإعداد العسكرى فقط.. بل لابد من جهاز متخصص يكشف اتجاهات الأعداء. حتى لا نؤخذ على غرة فما يزال مكرهم مستمرا للإيقاع بين رفاق السلاح.

ذكر ابن الأثير فى النهاية "مادة "أرس"

(إن عاهل الروم انتهز فرصة الخلاف بين على ومعاوية فكتب إلى معاوية يعرض عليه مساعدته ضد خصمه... فتنبه معاوية إلى هذا الخبث.

إذ كيف يعرض عليه عدوه هذه المساعدة. وهو يحتل أرضا كانت تحت سلطانه؟

إنها ليست حبا منه لمعاوية ولكنها إذكاء لنار الفتنة لتأكل الأخضر واليابس وتضعف الطرفين ليسهل عليه استرداد ما فُقِد منه.

ورد عليه معاوية بما أفحمه.. وحسم القضية.. فى كتاب جاء فيه:

اعلم أنى وعليا أخوان. تنافسا فضلا. وتسابقا خيرا. فإن لم تكف عن مقالتك لأجردن عليك جيشا يكون أوله عندى بالشام وآخره عندك بالعراق حتى أورثه الأرض التى تحت قدميك)

الأعداء يفهمون الدرس:

فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى. كانت جيوش عبد الملك بن مروان تقاتل جيوش مصعب بن الزبير بن العوام فى العراق. فذهب قادة الروم إلى إمبراطورهم وقالوا له: لقد جاءت إليك الفرصة لتهزم العرب:

فإنهم يقاتلون بعضهم بعضا. وترى أن نهجم عليهم فى بلادهم. ولكن "إمبراطور" الروم لم يكن يرى رأى قادته:

فطلب إحضار ذئبين فى قفص أمامه. ثم أثار أحدهما على الآخر. فاقتتلا قتالا شديدا.

ثم طلب إحضار كلب أدخله فى قفص الذئبين. فلما رأى الذئبان الكلب تركا ما كان يشغلهما من قتال أحدهما الآخر. وأنقضا معا على الكلب حتى قتلاه.

عندئذ قال ملك الروم لرجاله: هذا مثلنا. ومثلهم فعرفوا صحة رأيه. وتراجعوا عن رأيهم).

امتحان الإرادة:

(.. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين. إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا.. بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبيه مثل ذلك. فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن هلال ابن أمية شيخ ضائع ليس له خادم. فهل تكره أن أخدمه؟

قال: «لا.. ولكن لا يقربْك» قالت إنه والله ما به حركة إلى شىء!

والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان حتى يومه هذا.

فقال لى ـ أى لكعب ـ بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ.. وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ. إذا استأذنته فيها.. وأنا

رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كَملت لنا خمسون ليلة. من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا).

ولا شك أن رسول الله ﷺ قد علم بمحاولة ملك غسان استقطاب كعب رضى الله عنه.

ولا شك أيضا أن الأمل قد ازداد فى قلب كعب.. وها هى ذى لحظة العفو قد حان ميقاتها.. بعد هذا النجاح فى الإفلات من محاولة القوى الأجنبية التى تحاول ضرب المجتمع الإسلامى بواحد من خلصائه..وفى أحرج لحظات حياته... ولكن الذى حدث هو ما لم يتوقعه أحد: -

ففى الوقت الذى لم تبق بينه وبين العفو إلا خطوة واحدة.. يأتيه الأمر النبوى باعتزال زوجته.. وحرمانه من آخر معقل فى حياته.. ولم يكن الأمر محل مناقشة.. أو مساومة..

وإنما كان الالتزام الصارم من قِبَل الأزواج الذين نفذوا الأمر فوريا.. وحرفيا.

ومن قبلُ كانت الزوجات على مستوى الموقف: فبينما تذهب زوجة كعب إلى بيت أبيها.. تستفسر زوج هلال مجرد استفسار عن حدود الأمر. وإمكانِ أن تبقى فى البيت لتخدمه.. فى صراحة مجللة بالعفة.

ويوافق ﷺ شريطة ألا يقربها زوجها.. مؤكدا بهذه الموافقة إنسانية الإسلام حتى فى أشد المواقف صرامة.

ولقد كان للزوج فى رفيقة حياته نعم الجليس والأنيس.. لكنه عليه السلام يأمره باعتزال زوجته ليذوق معنى الغربة تماما.. وهو امتحان الإرادة التى ترى الحلال بين يديها.. ثم لا تقربه. فى حراسة ضمير صاح لا يغدر ولا يخون. ولا شك أن الرجال الذين يلتزمون بالطاعة إلى هذا الحد لقادرون على الوفاء بكل التزامهم فى كل الظروف.. التى لا يمكن أن تبلغ يوما ما بلغته اليوم من غربة ووحشة.

يفرحون بفضل الله تعالى:

يقول كعب رضى الله عنه:

(.. فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت عليّ نفسى وضاقت عليّ الأرض بما رحبت. سمعت صَوْتا صارخِا أوفى عل جبل "سَلع" بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك: أبشر. قال: فخررت ساجدا. وعرفت أن قد جاء فرج وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا..

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى فنزعت ثوبَىَّ فكسوته إياهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ.

واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة يقولون:

لتَهنك توبة الله عليك: قال كعب: حتى دخلت المسجد. فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى. والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة).

وهكذا يأتى الفرج فى لحظة بلغ الضيق عندها مداه.. بمعنى أنه فى الوقت الذى ينخلع فيه المسلم من كل أسباب الدنيا. وتعجز الوسائل المادية عن إنقاذه.. ويتمكن معنى العبودية من نفسه.. يأتيه من الله فرج قريب...

وتأمل كيف تحول الموقف إلى مهرجان شمل الجميع:

فكعب رضى الله عنه.. فى فورة الانفعال يخلع ثوبيه جائزة لمن بشره..

وكيف سعد الصحابة رضوان الله عليهم بعودة الغائب إلى إخوة يحبهم ويحبونه... وكيف كانت لطلحة ميزته الخاصة بما أظهر من سرور.. طار به إلى كعب قبل أن ينتهى إلى المجلس.. فحفظ الصديق لصديقه جميلا لا ينساه.

ويبقى للمجتمع كله تقديره.. لأنه قاطعه حين قاطع.. وعاد إليه حين عاد. التزاما بأمر رسول الله ﷺ ..

وإذا كان المجتمع قد غضب منه يوما فها هو ذا يهرع إليه فرحا مسرورا بعودة ـ الفارس إلى مكانه فى الصف المؤمن..

إنها إذن المقاطعه التى هى فى نفس الوقت وسيلة من وسائل التربية الأيمانية.

وليس منها على أى حال تلك المقاطعة التى تمليها مصالح الدنيا.. وخاصة فى معارك الانتخاب.. حين يقف شاب فى العشرين من عمره ليُصدر فرمانا واجب التنفيذ بمقاطعة من أبدى رأيه وانتخب مسلما يحب الله ورسوله[1] بينما الولاء كله لصاحب الفرمان.. الذى يَحْرم عالما من إبداء رأيه فى مسألة من مسائل الدنيا.. بينما يعطى نفسه الحق.. فى حلق لحيته ـ بعد عشرات السنين ـ لأن مصلحته تفرض ذلك.. والغريب أن الأمر بالمقاطعة.. ينفذ بدقة.. بينما تَرَاجُعُ الفتى المغرورِ عن التزامه بالسنة.. قضية شخصية.. فوق النقد.. ولعل هذا بعض ما قصده أستاذنا الشيخ محمد الغزالى بقوله: إنها الشعبيه العمياء[2]!

القلب الكبير:

قال كعب (فلما سلمت على رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: ووجهه يبرق من السرور:

«أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟

قال: «لا.. بل من عند الله».

وكان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه.).

وإذا كان بعض القواد محكوما بغريزة الانتقام.. يشفى صدره ألا يتوب الجندى ليشبع نهمته إلى العذاب الذى يُسعد به نفسه المتعطشة إلى الدماء وأذنه المبتهجة بآهات المعذبين..

إذا كان بعض القواد كذلك.. فإن محمد ﷺ يعلّم هؤلاء جميعا كيف يكون قلب القائد الأعلى مستودع آلام الجنود وآمالهم...

وكيف يشقى بأخطائهم التى كان يود أنها لم تكن..

---

(١) نذكر هنا كيف منع الرسول شتم شاب أقيم عليه الحد لأنه يحب الله ورسوله.

(٢) أقصد هنا حكاية تجربة شخصية لها دلالتها التى تفرض مراجعة النفس حتى لا تزل قدمٌ بعد ثبوتها.

فإذا تابوا.. وانقشعت الغمة. كانت فرحته أكبر من فرحة المذنب نفسه..

وها هو ذا محمد ﷺ يبرق وجهه من السرور.. كأنه قطعة من القمر..

ولقد غضب رسول الله ﷺ قبل ذلك على كعب ورفاقه.. بل وأمر باعتزالهم..

وهو نفسه اليوم الذى يعيش واحدا من أسعد أيامه.. ويستقبل التائب العائد بقلب يسع الناس جميعا.. مؤكدا أنه يغضب حين يغضب.. ويفرح حين يفرح.. لمصلحة الدعوة.. لا خضوعا لهواه.

من ملامح التوبة النصوح:

(... فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ:

أمسك عليك بعض مالك. فهو خير لك» قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر).

لقد أراد كعب رضى الله تعالى عنه أن ينتقم لنفسه من الدنيا التى غرته فأخرته عن موقعه فى مقدمة الصفوف فقرر التصدق بكل ما يملك.. تأديبا لنفسه من جهة وتطهيرا للطريق من كل شائبة تعوق انطلاقه..

وليكن هذا الخطأ آخر الأخطاء فكان (نبراسا يهتدى به الخطاؤون الذين قد تغلبهم نوازعهم الغَرزية فتقعد بهم دون مكانهم من المجتمع المسلم.

ولكن الدوافع الإيمانية تُنهضهم وتتسامى بهم ليستعيدوا ما كان لهم من مكانة مرموقة. لاعتصامهم بالصبر على المحن التى جَرَت بها تصاريف الأقدار فى مجارى الغيب. لا يلحقهم ضعف معجز. ولكنهم يتخذون من أخطائهم منائر هداية تنير لهم طريق الأوبة إلى الله مستسلمين لأحكامه وأقداره.

فإذا جاءتهم بشائر الإنعام بالرضا والقبول لم تبطرهم. بل تفتح لهم منافذ الشكر، وتُنهضهم إلى صالح العمل)[1].

(١) محمد رسول الله ص٤٦٢. محمد الصادق عرجون.

وها هو ذا كعب رضى الله عنه لا يجعل من قبول توبته.. عتابا مرا لمن قسوا عليه فى العقاب.. ولا غرورا بما صار إليه ينسيه الدرس القاسى..

وانما كان مثلا شرودا فى الصبر.. وهضم النفس.. وصرف الهمة إلى الأمام.. فى محاولة لاستعادة موقفه القيادى.. معبرا عن هذا كله بتبرعه بماله كله اعترافا منه بالتقصير.. وتَوَدُّدا إلى مجتمع بكى عليه يوما.. وجمد مشاعره نحوه التزاما بأمر الله.. فلما جاء نصر الله والفتح.. كان ذلك الموقف العظيم واحدا من خصائص المجتمع المسلم الذى يخاصم ويصالح لله ورسوله.

ولكن الرسول ﷺ وهو بأمته رءوف رحيم - لم يسترسل مع كعب فى أمانيه.. ولم يركب معه موج الحماس الهادر الصاخب..

فلحظات الحماس لا تحسم المواقف.. ولكنه أمره أن يُبقى لولده شيئا..

ولعل مرافق الدولة وتسليح الجيش كانت بحاجة إلى مال كعب.. لكن ذلك على أهميته لم يحمل القائد على التنكر لمستقبل أسرة لا ينبغى أن تدفع هى ثمن خطأ عائلها. والذى تجاوز الله عنه.. فليتصدق ببعض ماله.. وليُبق لأهله ما يكفيهم.. ويكفى عودة الفارس إلى صهوة جواده يعيش من التوبة فى نهار موصول الشروق. حاملا سيفه خيرا وبركة على أمة محمد ﷺ.. وهكذا الإسلام: يستنقذ اليائس من براثن التمزق.. ثم يعينه ليتجاوز المحنه بسلام.

عندما يصبح الصدق ملكة:

(.. فقلت: يا رسول الله: إن الله إنما نجانى بالصدق. وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت.

فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث - منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى: ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا. وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقيت).

ورب ضارة نافعة:

لقد أثبتت التجربة الانسانية أن الصدق منجاة وأن الكذب مهواه...

وإذا نجا المنافقون من العقاب بالكذب والتمويه.. فقد اختار كعب ذلك

المركب الصعب: الصدق. فوصل به إلى بر الأمان.. لقد صابر على مغارم الصدق فكان الجزاء ذلك التوفيق الإلهى. والذى صار به كعب بين الناس صدّيقا.

إن الله مع الصادقين:

(.. وأنزل الله على رسوله ﷺ [١١٧: التوبة].

﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِين**﴾ إلى قوله: ﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين**﴾ فوالله ما أنعم الله علىّ من نعمة قط - بعد أن هدانى للإسلام - أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد. فقال تبارك وتعالى (٩٥: التوبة)

﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُم**﴾.. إلى قوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِين**﴾.

ونزول الآيات الكريمة تتويجا لهذا الموقف تؤكد مَعِيَّة الله تعالى للصادقين.. الذين أخطأوا يوما.. ثم عادوا بالتوبة أطهر مما كانوا...

واستحقوا بهذه العودة رضوان الله.. الذى أنزل الآيات الخالدات على مر الزمان. تعلى قدرهم. وتنشر ذكرهم..

على قدر أهل العزم:

(قال كعب:

وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر رسول الله أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له. فبايعهم واستغفر لهم. وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه.

فبذلك قال الله (١١٨: التوبة) ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا**﴾.

وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفْنا عن الغزو. إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذار إليه. فقبل منه).

لقد كان لهؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا ماض مشرف فى خدمة الدعوة.

وكان لهم وزنهم بين صفوف الأمة.. ولهذا كان حسابهم عسيرا.. أما غيرهم.. فلم يلاقوا منه ﷺ عتابا.. لخفة وزنهم وقصور باعهم..

من أجل ذلك أرجأهم حتى يحكم الله فيهم - فقد كان فضل الله عليهم.. وعليه عظيما.

سؤال:

لم كان ﷺ سهلا مع المنافقين. متشددا مع المؤمنين؟

يقول ابن القيم[1].

[وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده فى عقوبات جرائمهم:

فيؤدب عبده المؤمن الذى يحبه - وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة. فلا يزال مستيقظا حذرا... وأما من سقط من عين الله. وهان عليه. فانه يخلى بينه وبين معاصيه... وكلما أحدث ذنبا: أحدث له نعمه..

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿... **فتحنا عليهم أبواب كل شيء**﴾.

ثم أعمتهم النعمة عن رؤية الحق بهذا الاستدراج].

القائد الإنسان:

وهكذا تبدو سمات القائد الإنسان فى معمعان الخطر:

إنه أقربهم إلى العدو إذا احمرت الحدق.. ولكنه فى نفس الوقت يحمل قلب إنسان:

١ - أشد تبسطا وتلطفا بجنوده.. لأنه ميدان قتال.. ربما احتاج إلى اللين أحيانا تهدئة للأعصاب المشدودة إلى الخطر.

٢ - يجد الجندى الخجول فرصته للاقتراب منه.. حيث العدد قليل.

٣ - وهو القدوة فى سعة الصدر ليفهم المخطئ ويعود إليه صوابه.

٤ - فى أعسر المواقف خطرا يكون أثبتهم جنانا...

---

(١) زاد المعاد ج٣/ ٢٠.

٥ ـ لا تهمه نفسه. . ولكن همه كان:

أ ـ أصحابه.

٢ ـ ومصير المعركة.

ب ـ حريص على الجندى. . ولو كان واحدا. . فقد يميل به ميزان المعركة. .

٧ ـ لا يقطع الخيط أبدا مهما كان حجم الخطأ. . إيمانا منه بكرامة الإنسان الذى يظل موفور الحرية. . ٨ ـ يدير حياته على قانون: **«لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم»**.

من ثمار هذه العظمة:

وبهذه الخصائص العالية حقق محمد ﷺ ما لم يحققه أحد قبله. . أو بعده. على حد قول بعض الباحثين:

(بعث محمد ﷺ فى مجتمع كان الذئب الغشوم فيه راعيا. والخصم العنيد فيه قاضيا.

مجتمع. . لا يعرف إلا المنكر. ولا ينكر إلا المعروف!

كان الفساد فيه ضاربا أطنابه. . فحوله من عبادة الحجر إلى قيادة البشر. ومن شرب الخمر مرات فى اليوم. . إلى محافظٍ على الصلوات الخمس. .

من مجتمع تنشب فيه الحرب عشرات السنين. لأتفه الأسباب. . إلى مجتمع يُؤْتَى أحدهم بالماء وهو يحتضر. . فيؤثر زميله. .

من مجتمع يقطع صلة الجوار. . إلى جار يخاف على جاره من ريح القدر حتى لا يؤذيه. . ولا يستطيل عليه فى البنان).

الإيمان يعلن عن نفسه:

فى غزوة "تبوك" كان للنفاق ـ كما قيل ـ حضور مكثف. .

ولقد كان للإيمان أيضا حضوره الأقوى. بحكمة القائد وإنسانيته. .

وطاعة الجندى واستجابته. .

وإذا كانت الأزمات الخانقة ـ خاصة العسكرية منها ـ مدعاة إلى التسيب . . البالغ أحيانا حد التمزق. فقد كانت غزوة العسرة بوتقة برز من خلالها المعدن الإسلامى أصيلا.

ولقد كان ذلك جانبا من حكمته تعالى فى تربية الأمة بالأحداث الجسام ليَصْلب عودها. . فتُثبتَ وجودها أمام أعداء يكيدون لها كيدا.

﴿إن هذه تذكره فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾.

بعد تبوك:

روى الطبرانى وأبو نعيم من طرق صحيحة عن خريمة بن أوس قال: هاجرت إلى النبى ﷺ فقدمت عليه عند مصرفه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول: «هذه الحيرة قد رفعت إلىّ وإنكم ستفتحونها وهذه الشيماء بنت نفيل الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود.

فقلت يا رسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى قال عليه الصلاة والسلام «**هى لك**».

فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء بنت نفيل كما قال رسول الله ﷺ على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها وقلت هذه وهبها لى رسول الله ﷺ فطلب منى خالد عليها البينة فأتيته بها فسلمها لى ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال لى: أتبيعنيها؟ فقلت: نعم فقال: احتكم ما شئت فقلت والله لا أنقصها عن ألف درهم فدفع لى ألف درهم فقيل: لو قلت مائة ألف درهم لدفعها إليك فقلت: لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم.

قال الطبرانى وبلغنى أن الشاهدين كانا محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما.

جنازة مسلم مسكين:

مات عبد الله ذو البجادين فى «تبوك».

وكان من قبل ينازع إلى الإسلام ـ يرغب فيه ـ فيمنعه قومه. بل ويضيقون عليه. حتى تركوه فى «بجاد» ـ وهو كساء غليظ ـ ليس عليه غيره. فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ.

فلما كان قريبا منه. شق بجاده اثنين: فاتزر بواحد. واشتمل بالآخر. ثم أتى رسول الله ﷺ. فقيل له «ذو البجادين».

ولما مات فى تبوك. شيعه رسول الله ﷺ. وأبو بكر وعمر. فى ظلام الليل.. وفى يد أحدهم مشعل يستضيئون فى ضوئه. وقد حفروا له. ونزل رسول الله ﷺ فى حفرته. وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. وهو يقول:

«أدنيا إلىّ أخاكما». فدلياه إليه.

فلما هيأه لشقه قال:

«اللهم إنى أمسيت راضيا عنه. فارض عنه».

قال عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة[1].

إنه شاب. وحديث عهد بالإلاسلام.. لكنه صابر أسرته متحملا عنتها ثم فر هاربا إلى مستقبل مجهول..

ولقد صار بالإيمان أخا لأبى بكر وعمر على ما لهما دونه من قدم صدق فى خدمة الإسلام.

ثم يدفنه ﷺ. وبيده الشريفة.

وأكبر من ذلك أنه دعا له دعوة حملت رجلا كابن مسعود له فى الجهاد ماض عريق.. حملته على تمنى أن يكونه.. إنها القيم الأصيلة.. فى ضوء الإسلام..

وفى طليعتها تلك المساواة التى رفعت شابا حديث عهد بالإسلام أن يتربع على القمة.. مع الصاحبين العظيمين.

ولكنها المساواة المرنة.. الرفيقة.. كما قيل بحق:

---

(١) ابن هشام :ـ ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

إن طبيعة الأخوة والمساواة لا تنفى أن من الأخوة من هو: أعقل.. وأكبر.. وأقوى.

فللكبير حقه فى الاحترام..

وللصغير حقه فى الرحمة..

وهكذا يلتقى الجميع فى أحضان الأخوة الجامعة.. فى ظل مجتمع حر.. فيه ما فى الحرية من انطلاق.. ولكن من غير جور ولا شطط..

وفيه ما فى المساواة من ضبط وعدل.. ولكن فى غير كبت ولا حرمان.. ولا حجر على أحد فى الصعود ـ بعمله ـ ليأخذ مكانه.. فى القمة.. التى تسع الجميع.

مواقف من
غزوة مؤتة

بعث الرسول ﷺ جيشا إلى مؤتة واستعمل عليه زيد بن حارثة وقال:

· «إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس. فإن أصيب جعفر فعبد الله ابن رواحه على الناس».

وتجهز الجيش.. وودع الناس أمراء رسول الله ﷺ.. وسلموا عليهم.

فلما وُدع عبد الله بن رواحة مع من ودع الأمراء بكى.. فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحه فقال:

أنا والله ما بى حبُّ الدنيا ولا صبابة بكم.. ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار.

﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾

فلست أدرى كيف لى بالصَّدر بعد الورود.

فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم. وردكم إلينا صالحين.

فقال عبد الله بن رواحة: لكننى أسأل الرحمن مغفرة.. وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا (الفرغ السعة) أو طعنة بيدى حران مجهِزة.. بحربة تُنفذ الأحشاء والكبد.

حتى يقال إذا مروا على جدثى.. أرشده الله من غاز.. وقد رشدا.

١ - صورة للتخطيط العلمى.. وتوزيع المسئولية وتحديدها.. كما يرسمها رسول الله ﷺ حين أمّر زيد بن حارثه أولا.. ثم ثنّى بابن عمه جعفر.. وأخيرا يجىء دور ابن رواحة..

ولا يجىء هذا الترتيب جزافا.. فلابد أن يكون نتيجة تجربة سابقة اقتضته.. وعلى كلٍّ فليست القرابة.. أو المنفعة أحد الأسباب حين يجد الجد وتدق طبول

الحرب.

بل الرأى والمكيدة التى تتخطى هذه العوامل.. لتضع الرجل المناسب فى المكان المناسب.

ولو اقتضى الأمر أن يكون أحب الناس إليك فى مواجهة الأعداء.. ولو اقتضى الأمر أيضا أن يكون واحد من عامة الشعب أميرا على ابن عم الحاكم..

فمصلحة الدعوة والوطن أولا.. وأخيرا..

٢ - ثم هى صورة من صور الترابط بين الجبهة الداخلية والقوات المجاهدة..

فلم يجهّز الجيشُ نفسَه ثم يمضى وحده تاركا من ورائه النائم.. والمتكئ.. واللاعب.. أو المستهتر ليزحف الأسى إلى قلبه إذ يفارق الديار وفى الذهن صورة هؤلاء الكسالى.. وناهيك بهذا الوضع سببا فى ضعف المقاومة وفتور الحماس.. لكن الشعب كله بجميع طبقاته يغبِّر أقدامه فى سبيل الله ساعات يترك فيها المخادع المريحة ليودع الجيش الذاهب.. ليضم الجميعَ بين يدى المعركة شعور واحد بالمسؤولية إزاء معركة واحدة.

وكأنما الكل مستعد فعلا للذهاب إلى ساحة النضال لَوْلا ما تتقاضاه المعركة من تنسيق يفرض بقاء البعض هنا حارسا لظهر الجيش المقاتل..

٣ - ويبدو هذا التجاوب قويا حين بكى عبد الله بن رواحة ساعة الوداع: إن الكل ينتقلون إليه بقلوبهم الباحثة عن سبب للبكاء لدى بطل يجيد صناعة الموت؟!

ويكشف البطل عبد الله عن طبيعة الجندى العربى المسلم الذى ينفى أن يكون حب الدنيا أو التعلق بهل سببا لبكائه..

لكنه الخوف من الله عز وجل ومن ناره التى لابد أنه واردها مع الواردين.. إذن.. فهو مستعد لمغارم النضال.. وكونه مستعد للنزال أمر مفروغ منه.. لكنه فقط تحسس طريقه إلى الله فساوره قلق غامر على هذا المستقبل رغم ما يقدم من نفسه وماله.

٤ - ويتجه المودعون إلى الله أن يحفظ الجيش.. وأن يمده بنصر من عنده..

لكن الدعوة تجيء هكذا: صحبكم الله.. ودفع عنكم.. وردكم إلينا صالحين! لم يقولوا: وردكم إلينا سالمين..

إنهم بذلك يكشفون عن روح الإسلام التى تشير إلى أهمية الروح المعنوية لدى المقاتل..

فليس المهم أن يعود "سالما" لم يمسسه سوء.. لكن المطلوب أن يعود بنفسه بين جنبيه.. أن يعود بها صالحة: إذا حققت النصر لم يطغها النصر..

وإذا فاتها.. لم تذهب النفس حسرات..

والنصر أولا وأخيرا فى عودة المقاتلين بنفوسهم مستعدة لجولات أخرى يستدركون ما فاتهم.. أما إذا فقد المقاتل نفسه.. أى فقد صلاحيتها للنزال.. فهذا هو الانكسار بعينه..

على أنه لا معنى للنصر إذا استصحبت النفوس نشوة النصر فأنستهم الاستعداد لكل طارئ.

٥ ـ وعلى رغم أن الدعوة تذكر بالعودة السالمة.. والرجوع بالحياة.. إلا أنها لم تحرك نفس المقاتل إلى هذه الحياة.. بل إنه استدبر المتاع.. ليستقبل الآخرة.

متطلعا إلى رحمة ربه.. والشهادة فى سبيله.. والطعن فى سبيله أيضا.. وكأنما كان هذا القتال هو رسالته الحقيقية.. وما عدا ذلك فلا يخطر له على بال.

كتب القتل والقتال علينا.. وعلى الغانيات جر الذيول.

* * *

روح القتال فى ضمير أمتنا

إذا كان لكل أمة تاريخ تستعيده وتتغنى بذكراه.. فإن لنا نحن المسلمين تاريخا حافلا بمعانى التضحية.. والعدل والصبر..

هذه الفضائل التى استصحبتها أمتنا فى كفاحها الطويل ضد الباطل.. فدوخته فى حالتى النصر والهزيمة معا:

إذا لم تستكمل عدتها يوما فلم تكسب الجولة. كان معها الصبر يربط على قلوبها.. والثقة بالنفس.. التى تمسك الإرادة أن تذوب فى غمرة اليأس.

ثم عادت من تجربتها على وعى كامل بما تلقت من دروس تُعدها للنزال من جديد.. وإذا جاءها نصر الله والفتح.. وجدت فى طبيعتها فضيلة العدل الذى يستقيم به وجودها.. فلم يُطغها النصر.. كما لم تُمتها الهزيمة..

أى أن انتصارها يكون وسيلة لا غاية: وسيلة تعبِّد الطريق إلى أعماق النفوس التى يروعها ما تراه من عدل لم تسمع عنه من قبل.. فتدخل فى دين ظَلَمه حساده فحاولوا تشويه طبيعته التى تتألق اليوم.

وهذا بعض ما يشير إليه قول الحق سبحانه.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

وفى مجال التطبيق نرى فى غزوة مؤتة شاهدا يبين كيف استطاع المسلمون فى مدة وجيزة أن يحولوا الهزيمة إلى نصر.. حين فتحوا مكة.. ولم يكونوا فى أيام النكسة بأقل روعة منهم ولقد عاد الجيش من مؤنة منسحبا دون أن يحقق نصرا..

وخرج الشباب منفعلا يرمى العائدين بالتراب قائلا: يا فرار! فررتم فى سبيل الله..

فيقول الرسول ﷺ : «**ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى**».

إن الرسول عليه الصلاة والسلام - من موقع المسؤولية الأولى - ينفى تهمة الفرار.. بل يؤكد للشباب أنهم الكرار أبدا..

فحيث عاد الجنود بأنفسهم صالحة لم يقتلها اليأس..

رغم فقدان قواد الجيش.. فهم مستعدون لجولة أخرى يستعيدون ما فاتهم..

إن استمساكهم بمبادئهم وسط المعركة الطحون لون من الانتصار..

ولقد مهد للنصر المبين حين فتح المسلمون مكة دون مقاومة تذكر بعد عودتهم من مؤتة بأشهر قليلة..

لكن هذا النصر لم يأت عبثا.. بل كان نتيجة لازمة لإصرار المسلمين على موقفهم وقبولهم التحدى إزاء المشركين..

ولقد كان المظنون - أخذا بظواهر الأشياء - أن يسعى المسلمون إلى الصلح فى وقت الهزيمة..

وإن تعجب فعجب أن يحدث عكس ذلك تماما:

جاء بديل بن ورقاء يطلب عون الرسول ﷺ لأن قريشا نقضت عهده فاعتدت على خزاعة..

وأوفدت قريش "أبا سفيان" إلى الرسول فقابل "بديلا" فى الطريق.. وسأله أبو سفيان عما إذا كان قد أخبر محمدا.. ولما نفى ذلك لم يسعه إلا أن يذهب إلى مبرك راحلة "بديل" فتحسس روثها.. فلما وجد فيه "نوى" المدينة قال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا!

وتصوروا معى سيدا من سادات قريش.. بذل كبرياءه إلى حد يلملم ثيابه بين الروث المبعثر بحثا عن شاهد يؤيد لقاء بديل بمحمد عليه الصلاة والسلام.. لتروا خوف القوم من المسلمين فى وقت هم المغلوبون فيه.. ذلك بأن قريشا لتعلم من أمر المسلمين ما يؤرق ليلها..

وتابع أبو سفيان سيره إلى المدينة للمفاوضة والصلح مع الرسول ﷺ .

ودخل على ابنته "أم حبيبة" فرفضت أن يجلس أبوها على فراش رسول الله . . لأنه طاهر لا يجلس عليه مشرك نجس ولو كان أباها!

فلما انتقل إلى الرسول وكلّمه . . لم يتلق منه كلمة واحدة . .

وكان يكفيه ذلك مسوغا للعودة من حيث أتى . . لكنه الرعب القاتل يدفعه ليستمر فى محاولات يائسة:

ذهب إلى أبى بكر يلتمس لديه الشفاعة . . ثم يتجه إلى عمر ليقول له:

أأشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟!

فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به!

وتنتهى المحاولة بما يكشف عن الهلع الآخذ بمجامع الرجل حين يطلب من فاطمة بنت الرسول أن يتدخل ابنها الصغير " الحسن" ليقوم بدوره فى الصلح؟!

فانظر كيف خرج الشباب منفعلين بأحداث تتعلق بمستقبل أمتهم . .

وكيف استمعوا إلى رأى القائد المؤمن الذى يرى من موقعه رقعة أوسع . .

والذى لم يعترض عليهم فى موقفهم . . لكنه فقط استبعد أن يكون الجيش العائد قد فقد ثقته بالله وبنفسه . . أبدا . . لقد عاد بها . . فكأنه لم يخسر شيئا . .

بل لقد حقق فى الواقع نصرا بصموده وقبوله تحدى الأعداء . .

وقد صدقت الأيام ظن الرسول ﷺ . . فأسلم أبو سفيان إسلاما كان بداية لعهد جديد . . تفرد فيه الإسلام بالسيادة على الجزيرة العربية . . بفضل هذه الإرادة الصلبة . . وبدافع من الثقة المتبادلة بين القائد والجنود. على نحو فوت على الأعداء غرضهم فى تفريق الصف الواحد . . والله غالب على أمره

* * *

سرية خالد
إلى بنى الحارث بن كعب

انقضت الأشهر الأربعة التى حددها البيان الإلهى بالبراءة من المشركين. وبدأت الدعوة تتحرك فى كل اتجاه..

وفى إطار الجهود الرامية إلى نشر الدعوة بالحكمة. أرسل رسول الله ﷺ سرية إلى بنى الحارث بن كعب فى نجران. وذلك بقيادة خالد بن الوليد رضى الله عنه.

ونتساءل أولا:

من هم بنو الحارث بن كعب؟

وما هى ملتهم.. أو علتهم التى يراد إبراؤهم منها؟

ومن ذلك الطبيب الذى وقع عليه الاختيار؟

وأين هو المنهاج أو العلاج.. لإخراج القوم من الظلمات الى النور؟

أما بنو الحارث بن كعب: فقد كانوا قوما أشداء. خبراء بفنون الحرب. التى كان النصر حليفهم كلما خاضوها.

ويرجع ذلك كما تقول الروايات - إلى أنهم دائما مجتمعون لا متفرقون.. ولا يبدأون أحدا بظلم.

فهم إذن يستجمعون خصائص التفوق: بالقوة الجسدية.. والبراعة الحربية.. يعينهم على ذلك: وحدة الكلمة.. وهى أساس النصر.. ثم العدل الذى كان لهم سماء تظلهم.. وتحميهم من البوار.

ولكن.. لا قيمة لهذه الخصائص فى صحبة الشرك.. وإنما بالإيمان تكون شيئا مذكورا..

وكيف؟

إن الشرك: غباء فى العقل مانع من رؤية دلائل التوحيد المنبثة فى الأنفس

والآفاق. . . ثم هو جحود في القلب لا يمكنه من استشعار الجمال السارى فى تضاعيف الكون:

فلا العقل بقادر على رؤية آثار الجلال. .

ولا القلب يستطيع أن يحس بهذا الجمال. .

وقد تكون هناك ـ إلى جانب ذلك ـ قيود من آصار الجاهلية تمنع الإنسان من الانطلاق. .

ومن ثم يجيء الإيمان ليكون هو العلاج الشافى. . بالتعامل مع العقل. . بالبرهان. . ومع القلب بالتأليف والتبشير. .

وفى نفس الوقت تكون هناك حركة تطهير من آصار الجاهلية تمهد السبيل أمام العقل الصاحى. . والقلب الحساس ليأخذ طريقه إلى الإسلام.

خالد.. الداعية:

وينتدب خالد رضى الله عنه للقيام بهذا الدور. .

خالد. . الذى كان بالأمس لا يفارق صهوة جواده بطلا جسورا. . يذهب اليوم إلى بنى الحارث حاملا غصن الزيتون رمزا للسلام. .

فإن استجاب بنو الحارث ـ وذلك أمله ـ فبها. . وإلا فهو مستعد أن يتفاهم معهم بلغة القوة التى لا يفهمون سواها.

خطاب التكليف:

أما منهاج الإصلاح فيظهر من خطاب التكليف. . تكليف خالد بإصلاح "بنى الحارث" ثم تكليف "عمرو بن حزم" من بعده:

لقد أمر خالد أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام. قبل أن يقاتلهم.

«فإن استجابوا لك فاقبل منهم. وأقم فيهم. وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه. ومعالم الإسلام. فإن لم يفعلوا فقاتلهم».

لما وصل خالد اليهم بعث رجاله فى كل ناحية يدعون الناس إلى الإسلام قائلين:

(يا بنى الحارث. . أسلموا. . تسلموا).

وتظهر الخطوة الأولى على طريق الإصلاح مبشرة بالنهاية الطيبة بإذن الله:

فأمر الرسول بإمهالهم ثلاثة أيام.. أتاحهم لفرصة التأمل.. والوقوف على حقائق الدعوة الجديدة..

والمدة كافية لمن أراد أن يسعى للهداية سعيها:

تهدأ الانفعالات.. وتنقشع سحب الدعايات المضللة.. ليرى الناس على الطبيعة حقيقة الإسلام..

وفى نفس الوقت تتحرك القدوة الحسنة بين أيديهم.. وتحت سمعهم وبصرهم. فيرون هذه الحقيقة مجسدة تمشى على قدمين:

وهكذا كان رجال خالد بين بنى الحارث..

وأنت واجد فى صيغة الدعوة دليلا عقليا قرآنيا: فمعنى أسلموا.. تسلموا.. مردود الى الآية القرآنية الكريمة:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[1].

وكأن دعوة خالد تخاطبهم بالبرهان هكذا: من يسلم وجهه إلى الله.. فقد استمسك بالعروة الوثقى..

ومن استمسك بالعروة الوثقى.. فقد سلم.

فأسلموا.. تسلموا!

وإذن.. فقد تعامل خالد ورجاله مع العقل..

وبالقدوة الحسنة تعامل مع القلب الذى أحس بجمال الحق ممثلا فى رجال يمشون على الأرض..

الدعوة تؤتى أكلها:

أعلن بنو الحارث إسلامهم بدون قتال.. وقرت أعين المسلمين بهذه النهاية المباركة..

وأرسل خالد الى رسول الله ﷺ هذا الخطاب:

(بسم الله الرحمن الرحيم:

---

(١) لقمان: ٢٢.

لمحمد النبى رسول الله ﷺ . من خالد بن الوليد: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو.

أما بعد يا رسول الله. صلى الله عليك: بعثتنى إلى بنى الحارث بن كعب. . . إلى أن قال:

وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام. كما أمرنى رسول الله ﷺ . وبعثت فيهم ركبانا قالوا: يا بنى الحارث: أسلموا تسلموا. فأسلموا ولم يقاتلوا. وأنا مقيم بين أظهرهم. وآمرهم بما أمرهم الله به. وأنهاهم عما نهاهم الله عنه. وأعلمهم معالم الإسلام. وسنة النبى ﷺ . حتى يكتب إلى رسول الله.

والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته).

الرسول يرد على كتاب خالد

«أما بعد: فإن كتابك جاءنى مع رسلك يخبر أن بنى الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا. وأجابوا إلى ما دعوت إليه من الإسلام.. .. وأن قد هداهم الله بهداه. فبشرهم.. وأنذرهم. وأقبل. وليقبل معك وفدهم».

فأقبل خالد ومعه وفد بنى الحارث. . فبايعوا رسول الله ﷺ .

وأرسل معهم إلى بلادهم "عمرو بن حزم" ليفقههم فى الدين.

وكتب له كتابا يرشده إلى ما يجب عمله. .

ونقتطف من كتابه ﷺ إلى "خالد" . . وإلى "عمرو" بعض التوجيهات التى تعتبر معلما من معالم الدعوة لمن أراد أن يتخذ الى مثلها سبيلا.

نقرأ فى كتابه إلى خالد: أمر رسول الله ﷺ : **«بشرهم وأنذرهم..»**

ثم فى خطاب عمرو أمره ﷺ : (أمره أن يأخذ بالحق كما أمره الله. . وأن يبشر الناس بالخير. ويأمرهم به. . ويستألف الناس حتى يفقهوا فى الدين. .

وينهى الناس أن يصلى أحد فى ثوب واحد صغير.

وينهى الناس أن يحتبى أحد فى ثوب واحد. يفضى بفرجه إلى السماء[١].

وينهى أن يعقص[٢] أحد شعر رأسه فى قفاه.

(١) هو أن يجمع الرجل ظهره وساقيه بثوب.

(٢) العقص: إرسال الشعر خلف الرأس فى ضفائر. وكان من عادات الجاهلية.

وينهى إذا كان بين الناس هيج ـ شحناء ـ عن الدعاء إلى القبائل ـ أى بدعوى الجاهلية.

وليكن دعواه إلى الله عز وجل وحده لا شريك له.

ويلاحظ أنه ﷺ يضع منهجه فى الإصلاح على أساس مخاطبة العقل.. والقلب معا..

ثم زحزحة عادات الجاهلية.. خروجا من جاذبيتها. ليكون الولاء للإسلام وحده. وتنقطع الصلة بماضى الجاهلية الكئيب:

فالداعية مأمور.. قبل أن يأمر بالخير: أن يبشر به.. وقبل أن يفقه فى الدين.. أن يستألف القلب..

ومعنى ذلك أن حشو الأدمغة بالمعلومات لا يجدى إذا لم تذهب إلى العقل عن طريق القلب.. وسوف تظل الأحكام جافة مملة ما لم يمنحها القلب أشواقه..

فمهمة الداعية ذات مرحلتين:

مرحلة نحبب المدعوين فينا.. ونشرح صدورهم لما ندعوهم إليه بالتودد.. وتأليف القلوب.. والنجاح فى هذه المرحلة مفض لا محالة إلى نجاح. المرحلة التالية.. وتعلق التلميذ بالمدرس تعلق بمبادئه فى نفس اللحظة.

ثم تأتى الخطوة الأخيرة.. وهى إفساح المجال أمام العقول والقلوب لتنطلق.. بتحطيم العادات السيئة..

وهو ما فعله ﷺ حين أرشد رسوله إلى ضرورة الإقلاع عن كل أوضار الجاهلية.. بستر العورة.. ووأد النعرة القبلية.. وإفساح الطريق أمام عادات إسلامية جديدة. تعيد صياغة الإنسان من جديد.

وعلى الدعاة اليوم مراجعة خطتهم فى ضوء هذه التوجيهات النبوية الكريمة.. قبل أن تكون الدعوة جعجعة ولا ترى طحنا.

ذلك بأن التعامل بالبرهان مع العقل ـ على أهميته ـ قدر متاح لكثير من الدعاة.. ويبقى غزو القلوب بالابتسامة المشرقة.. والخدمة العاجلة.. والمعونة المالية.. والمعاملة السمحة.. فإن فعلنا.. وصلنا إلى ما نريد.

* * *

الجذور الإنسانية
للعسكرية الإسلامية

لن أكون فى هذه الكلمة ذلك الفيلسوف الباحث المستنتج ولا العالم المستقرئ المعلل.. ولكننى أعرض مثالاً إسلامياً متميزاً.. ومن خلاله أخاطب الأمة.. لافتا نظرها إلى الجذور الإنسانية للعسكرية الإسلامية.. لتعلم.

أولا: وبخاصة المخدوعين من بعض شبابنا ـ لتعلم أن هناك فى حياتها أناسا كانوا من لحم ودم: بيد أنهم دوخوا الطغاة. وألزموهم كلمة التقوى.. بالسيف.. وبالخُلُق الحسن معا.

وثانيا: لتدرك مدى إنسانية المقاتل المسلم والذى قد يصب فى أحشاء عدوة حَرَّ النبل.. لكنه وفى ساحة الخطر يذيقه من قلبه الكبير حُرّ النُّبل!

حتى إذا تبجحت زعامات أرضية طائشة فزعمت أنها تقاتل باسم الإسلام.. فى نفس الوقت الذى تشوه فيه إنسانية الإسلام.. حتى إذا حدث ذلك.. كان لنا فى هذا الأنموذج مثل يحتذى.. نصحح به المفاهيم.. قبل أن ينجح الإعلام المزيف فى تحريفها..

هذا المثال الذى اخترناه اليوم تعبيرا عن شخصية المجاهد المسلم.. الذى يحمل السلاح.. وفى قلبه من عواطف الخير والتعاون على البر راهباً بالليل وفارساً بالنهار.

ولنؤكد للناس: أنه إذا تهافتت دور النشر اليوم فى محاولات للظفر بمذكرات قائد عسكرى نجح فى إدارة معركة ما.

وإذا رصدت لذلك الملايين.. فإن فى تاريخنا الإسلامى نماذج من القادة نضرت وجه الحياة وهى أجدى بالحديث وأولى.. وإذا تساوت مع الآخرين فى أصل الخلقة والمظهر.. لكنها بما تحمل فى باطنها من عواطف الخير.. تدعونا إلى أن نجلس بين يديها. هاربين من سعير الحرب اليوم.. إلى آفاق ننسم فيها عبق الماضى ونرى قبسا من نور.. نرده إلى أولادنا دروسا تكتب بماء الذهب.. بما تكشف عنه من صور المجاهدين المسلمين. الذين كانوا عسكريين.. ولكن.. قبل

ذلك كانوا أخلاقيين.

حارثة بن النعمان:

ومثال اليوم هو: حارثة بن النعمان رضى الله عنه. فمن هو؟ تقول كتب السيرة إنه: أنصارى خزرجي. من بنى النجار.. وهو واحد من القواد العسكريين الذين عرفتهم المعارك أبطالا.. وخاصة فى بدر وأحد والخندق وحنين.. تلك المواقع التى لم يكن ليثبت فيها إلا أولو العزم من الرجال.

حارثة إذن.. من بنى النجار.. فهو من أخوال النبى ﷺ.. فهل حقق بهذه القرابة مغنما.. وكان استثناء من قاعدة النظام والعدل.. فأطلق يده بالأذى.. ولسانه بالفحش.. اعتمادا على لحمة نسب تربطه بالرسول ﷺ؟.

لقد كان قريبا للرسول الأعظم فعلا.. لا ادعاء.. فهل كانت تلك اللحمة على الأمة عذابا.. أم كانت رحمة وصوابا؟

ثم هو قائد عسكرى.. فهل ردمت عسكريته منابع الخير فى نفسه.. فعبس وبسر.. ثم أدبر واستكبر.. جاعلا من هذه العسكرية سوط عذاب.. لأمته.. دون سواها:

سريع إلى ابن العم يلطم خده وليس إلى داعى الندى بسريع

هل كان حارثة رضى الله عنه ذلك القائد.. أم كان له شأن آخر جعل منه نسيج وحده وفريد عصره.. جعل منه ذلك العسكرى.. الموصول بإنسانية الإنسان.. حيثما كان؟ وذلك ما تنطق به سيرته العطرة:

حارثة فى الملأ الأعلى:

روى ابن عباس رضى الله عنه عن حارثة بن النعمان أنه مر على رسول الله ﷺ ومعه جبريل يناجيه. فلم يسلم.

فقال جبريل: ما منعه أن يسلم؟

فقال له رسول الله ﷺ: «ما منعك أن تسلم حين مررت؟»

فقال: رأيت معك إنسانا تناجيه، فكرهت أن أقطع حديثك.

قال: «**أو قد رأيته؟**» قال: نعم: قال: «**أما إنه لجبريل**».

وقال جبريل: أما إنه لو سلم لرددت عليه. ثم قال: أما إنه من الثمانين.

فقال رسول الله ﷺ: «**وما الثمانون؟**».

قال: يفر الناس عنك غير ثمانين فيصبرون معك. رزقهم ورزق أولادهم على الله فى الجنة. . . فأخبر حارثة بذلك.

من فقه الحديث:

هذا هو حارثة بن النعمان رضى الله عنه يحمل خلف ضلوعه قلبا كالمرآة الصقيلة: تعكس القليل والجليل. . فلم يسمح لنفسه أن يقطع حبل الحديث ولو بالتحية الواجبة. حفاظا على حق جليس رسول الله ﷺ فى استمراره. واستجابة لأدب الإسلام فى أمر قد يترخص فيه آخرون. . فلا يبالون. ويهتم جبريل عليه السلام بالأمر. . فلا يشيعه باللوم حيث لم يلق السلام كما يفعل بعضنا اليوم إزاء أناس قد يغفلون فلا يحيون. . وإنما يتساءل عن السبب. .

وتتم الصورة جمالا حين لا يصدر الرسول حكمه مسبقا على حارثة. . لكنه يسأله عن السبب. . ثم يسفر الحوار عن مكانة حارثة المكينة، فاسمه يتردد فى الملأ الأعلى، وجهاده المبرور، ومواقفه المشرفة. مسطورة فى كتاب مرقوم يشهده المقربون، ورزقه الكريم مع أهله وولده مكفول فى جنات النعيم. .

ولا يبقى ذلك سرا فى ضمير الغيب. . بل يبشره الرسول بذلك ليسعد، فيواصل سعيه المشكور، ويسمع الآخرون ذلك فيتنافسون، ثم يشيع الخير فى أرجاء الأمة.

الجذور الانسانية:

هذه مكانة حارثة القائد العسكرى. . فماذا عن جذوره الإنسانية والتى بها تتم صورة القائد الذى يجيد صناعة القتال. . بينما يحمل فى قلبه أنبل ما فى القلوب من عواطف الخير؟

بره بأمه:

لم تكن العسكرية الصارمة لتميت فى النفس دوافع البر. . فقد كان حارثة بارا

بأمه. وفيا لأهله، فلم تنسه مغارم القتال حق أسرته عليه:

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**دخلت الجنة. فسمعت قراءة. فقلت: من هذا؟ فقيل: حارثة بن النعمان**» فقال رسول الله ﷺ: «**كذلكم البر. وكان برا بأمه**».

دوره الاجتماعى:

ذكر أبو نعيم: هو ممن ثبت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فى ثمانين رجلا. لما انهزم الناس. وبقى حارثة وذهب بصره. فاتخذ خيطان من مصلاه إلى حجرته ووضع عنده مكتلا فيه تمر. فكان إذا جاء المسكين. فسلم. أخذ من ذلك المكتل. ثم أخذ بطرف الخيط حتى يناوله.

فكان أهله يقولون: نحن نكفيك. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مناولة المسكين تقى ميتة السوء**».

وتأمل حال رجل يذهب بصره بعد هذا الجهاد الطويل فلا تقعد به العلة فى كهف من اليأس الذى يقتله ببطء.

ولكن ولاءه لمجتمعه يظل قويا.. فيرتفع فوق مستوى الألم.. وتظل يده ممدودة بالعطاء لأمته.. التى يزيد فى إسعادها بهذه اليد الممتد بالخير..

ثم يظل إحساسه بكرامة الإنسان قويا حين لا يسمح لواحد من أسرته أن ينوب عنه فى إعطاء المسكين يدا بيد.. حفاظا على كرامته.. فكان موقفه ذلك حجة. على من يحاولون الإغداق على شعوبهم فى لحظة انفعال.. بينما كل قراراتهم تدمر فى هذه الشعوب بقايا من كرامة لم تجد من يصونها.

حق الجار:

وإذا سول الغرور للقوى أن يجرب قوته بإغماد السكين فى ظهر جاره المسلم.. تاركا للعدو الحقيقى فرصة التمكن منه.. ومن جاره معا..

إذا حدث ذلك.. فإن فى سيرة حارثة بن النعمان رضى الله عنه من حسن الجوار ما يؤكد أصالة احترام الجار.. بمقياس النخوة العربية.. إذا لم يكن هناك دين مانع..

كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب منازل النبى ﷺ بالمدينة. . فكان كلما أحدث رسول الله ﷺ أهلا ـ أى كلما تزوج ـ تحول له حارثة بن النعمان عن منزل بعد منزل. حتى قال النبى ﷺ : **«لقد استحييت من حارثة بن النعمان مما يتحول لنا عن منازله»**.

وهكذا يحتفظ حارثة للجار بحقه. . لا فى القول المعسول. . والمجاملات التى لا تسمن من جوع.

وإنما يحتفظ له بحقه فى السكن على حساب راحته. . وراحة ولده. . وأين منه جيران يفزعون جيرانهم اليوم. . فلا يكتفون بسلب المال. . فهتكوا الأعراض. . وصار أمرهم على ما يقول الشاعر:

أشبهت أعدائى فصرت أحبهم　　　إذ كان حظى منك. . حظى منهمو[1]

وبعد:

فقد كان (حارثة بن النعمان) رضى الله عنه رجلا واحدا. . ولكنه كان أقوى دليل على نبل أمته. وعظمة دينه. . وفى تاريخنا العظيم من أمثاله: (من الأمجاد ما لو أفيض على أفراد البشر لجعلهم كلهم عظماء).

وإلى شبابنا نتوجه بالحديث:

إذا كان مهما أن نعلم السيرة، فأهم منه أن نتعلم منها وبخاصة فى زمان كثر فيه الأدعياء. . . الذين خدع بهم شباب قلبوا فى أدمغتهم معانى القيم، فسموا الإسراف كرما، والتهور شجاعة، والفوضى حرية، والجبن حكمة، وكان لابد من تصحيح هذه القيم التى تخرج العسكرية الإسلامية من خلالها بيضاء من غير سوء.

فإلى ماضينا التليد. . وسوف يمدنا كل يوم بدرس جديد.

---

(١) راجع أحاديث المقال فى سيرة حارثة: أسد الغابة جـ١/٤٢٩ ـ والطبقات الكبرى لابن سعد جـ٣/٤٨٨.

ذكرى عين جالوت

كان التتار بقيادة «هولاكو» إعصارا مدمرا. أهلك الحرث والنسل وامتدت يده الآثمة إلى بيوت الله بالتخريب.. وكانت غايته الكبرى الاستيلاء على الوطن العربى والإسلامى.

وقد ساعد على تنفيذ مخططه: ضعف العالم العربى. الذى مزقته الخصومات شر ممزق.. ثم غياب روح الجهاد فى العالم الإسلامى.. ولقد وجدها فرصة سانحة: أن يضرب والحديد ساخن.. فقرر اجتياح بغداد.. والقضاء على الخلافة الإسلامية. التى كانت رمز الإسلام الجامع..

ولم يكن «هولاكو» وحده على الساحة.. بل كانت أوروبا من ورائه تسول له الشر.. فى محاولة لتدمير الحضارة الإسلامية الزاهرة ليخلو الجو لأعداء الإسلام.

وفعلا تحقق الهدف بالقضاء على دار السلام.. بغداد.. ثم تفتحت شهيته.. فتوجه إلى الشام.. إلى حلب ودمشق فعاث فيهما فسادا.

ولقد اعتمد فى هجومه على ما يسمى بالطابور الخامس.. الذى ينشر الشائعات.. توهينا للقوى العربية والإسلامية.. حتى إذا وافى الجيش المهاجم.. لم يجد مقاومة تذكر.

وأدركت مصر خطورة الموقف. فقررت التعبئة العامة. وتحمل القائد المظفر «قطُز» مسؤولية الموقف.. من واقع إحساسه بمسؤولية مصر التى هى جزء من الوطن العربى والإسلامى.. النابض.. وإرادته الفاعلة.

وأدرك أن سقوط بغداد.. وحلب.. ودمشق نذير من شأنه إيقاظ روح الجهاد فى الأمة لتواجه الخطر المشترك والمحدق بالعرب جميعا.

فى هذا الوقت.. مارس «هولاكو» هوايته فى التهديد.. عن طريق الحرب الإعلامية:

أرسل إلى «سيف الدين قطز هذا الإنذار:

{من ملك الملوك شرقا وغربا. القائد الأعظم.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته. وأهل مملكته بالديار المصرية: أنا نحن. جند الله فى أرضه.. سلاحنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر. وعن عزمنا مزدجَر.. ليس لكم من سيوفنا خلاص.. ولا من مهابتنا مناص..

فخيولنا سوابق. وسهامنا خوارق. وسيوفنا صواعق. وقلوبنا كالجبال. وعددنا كالرمال. فمن طلب حربنا ندم. ومن قصد إمامنا سلم}.

وهكذا استعرض «هولاكو» عضلاته.. منوِّها باليد الطويلة القادرة على ضرب مصر كما حدث لإخوة لها من قبل.

ولقد كان «سيف الدين قطز» على مستوى مسؤوليته.. فأمر بالبعثة التى حملت الرسالة فضربت أعناقها.

وكانت مفاجأة تركت آثارها ولا شك على قلب المعتدى المغرور.

ولم يكن للقائد «قطز» أن يأخذ بهذه المبادرة لولا أنه على يقين من وقوف الشعب من ورائه صفا واحدا.. مسلمين وأقباط.. فانطلق من قاعدة راسخة.. مكنته من الانطلاق.. وضرب أهداف العدو.

وإذا استهدفت حرب الأعداء توهين القلوب حينئذ...

فلقد كانت الأمة كلها على مثل قلب هذه المرأة المؤمنة التى خوفها جيرانها بأن زوجها الذاهب إلى ساحة المعركة سوف يموت.. وتنتهى بموته حياتها.. ولكنها قالت لهم:

أنا أعرف أن زوجى كان أكّالا.. ولم يكن رزّاقا.. وإذا مات الأكّال.. فقد بقى الرزاق!!

كانت هذه روح الشعب المصرى الأبى وعلى سناها خاض المعركة المنتصرة..

النصر العظيم:

إنما يجاهد المسلم بأخلاقه أولا.. ثم تأتى من بعد ذلك نوعية السلاح. وعبقرية التخطيط.

ولقد جمع الله كل هذه الخصائص «لسيف الدين قطز»:

كان رجلا صالحا. كثير الصلاة فى الجماعة.. لا يتعاطى المسكر. ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك.

وكان الجنود على مستوى القيادة: أخلاقا وانضباطا.. وكانوا جميعاً تعبيرا عن الروح المصرية المؤمنة.. الحاملة هموم الأمة العربية والإسلامية فى وقت لا ينتصر فيه إلا الأقوياء المتعاونون..

لقد جعل الأمة كلها معسكرا تدريبيا.. فبث إرداة القتال فى ضمير الأمة فلم ينطلق الجندى المصرى بجسمه إلى المعركة بينما قلبه هناك معلقا بزوجه الوالهة..

وإنما.. عاش الجميع المعركة.. وانطلق إليها الجندى المصرى بكيانه كله.. فى مواجهة إعصار التتار... وكان عنصر المفاجأة مهما فى تحقيق النصر المأمول.. من أجل ذلك قرر «سيف الدين قطز» أن يبادرهم قبل أن يبادروه.. وكانت المفاجأة عند التلاقى فى مدينة غزة:

يقول المؤرخون:

[كانت المفاجأة فى الاستراتيجية فوق ما قدره التتار. إذ دخلت الجيوش المصرية بقوة غير متوقعة... فاضطرت قوات التتار إلى الإسراع فى الانسحاب من غزة. وإخلاء جنوب فلسطين. وكسب قطز أولى جولاته].

ثم اتجه شمالا.. حتى توج الله هامته بالنصر المبين على أعداء الإنسانية.

وهكذا هزم التتار. وقتل أميرهم. وجماعة من بيته.. وتعقبهم الجيش الإسلامى قتلا وتشريدا.

وكانت معركة «عين جالوت» هى قاصمة الظهر.. ومنها سار وراءهم. ودخل «دمشق» واسترد «حلب».

وفرح الناس فرحا شديدا.. حين قطع دابر القوم الذين ظلموا. والحمد لله رب العالمين.

ولقد كشف هذا اللقاء المسلح عن معدن الشعب المصرى المجاهد.. وقدرته الفائقة على تحقيق النصر الذى يمتلك عناصره بما منحه الله من إيمان ومصابرة.. بل

ومكابرة لأحلك الظروف التى يتجاوزها بعسكريته الصامدة. وأخلاقه القويمة.. والتى جعلت من هذه الحروب حماية للحضارة الإنسانية من أعدائها..

وبعد: فقد كان من أقوال طاغية «التتار» «جنكيز خان»: إننى لا أفتح البلاد. ولكن أتسلمها..

ويعنى أنه يخرب القلوب أولا.. حتى إذا لم يبق إلا الحطام الهش.. جاءه مستسلما..

ولكن الفتح الإسلامى كان شيئا غير ذلك تماما:

لقد كان القائد الإسلامى: يحيى القلوب.. ولا يحطمها.. يبعثها من رقادها.. لترى الحق.. وتعتنقه.. فإذا هى وبهذه الصحوة آية مسلمة.. لا مستسلمة. مسلمة وجهها إلى الله تعالى بقلوب ذاقت طعم الحق. فوضعت وجودها كله.. لهذا الحق.. بل إنه لثمن زهيد فى سبيله..

من أجل ذلك بقيت أمتنا.. وستبقى.. والبقاء للأصلح.. دائما.

بعد عودة القدس.. فتح «صفد»:

كان صلاح الدين رحمة مهداة جمع الله به شمل الأمة الإسلامية بعد تفرق.. فبعد أن عادت القدس على يديه.. انطلق بجيوشه المظفرة فى كل اتجاه فكان النصر حليفه أنى سار.

ولقد كانت عسكريته الصارمة تأبى مظاهر الدعة والترف.. حتى يظل الجندى صالحا للنزال أبدا كلما دعا إلى الجهاد داع.

عاد يوما إلى دمشق فوجد وكيل الخزانة قد بنى له دارا بالقلعة هائلة.. فيها ما تشتهى الأنفس وتلَذّ الأعين.. فغضب عليه. وأصدر قرارا بعزله.

ولم يكتف بذلك.. بل أراد أن يجعل وكيل الخزانة عبرة لغيره فأعلن فى الناس:

إنا لم نخلق للمُقام فى دمشق. ولا بغيرها من البلاد... إنما خلقنا لعبادة الله عز وجل. والجهاد فى سبيله. وهذا الذى عملته مما يثبط النفوس. ويقعدها عما خلقت له...

وواصل السلطان زحفه المبارك ـ وكان ذلك سنة أربع وثمانين وخمسمائة للهجرة وفى رمضان من هذه السنة فتحت «صفد» و«حصن كوكب» ومن قصتها:

أن السلطان لم يقم بدمشق إلا أياما بعد مرحلة من الجهاد الموصول.. ثم خرج قاصداً «صفد».. حاصرها بجنوده..

ولكن الظروف الجوية لم تكن مواتية.. فقد كان البرد شديدا.. إلى حد أن الماء من شدته يصبح جليدا.

إلا أن القائد المؤمن صابر الموقف.. وغالب الظروف الصعبة.. أكثر من عشرين يوما..

ولما أحس القوم بضغط المسلمين أعلنوا الراية البيضاء مستسلمين... ثم واصل زحفه حتى وصل إلى «صور» فألقت إليه بقيادها.

وقد أعلنت براءتها من أنصارها. وأجنادها. وقوادها الذين لم يحسنوا إليهم يوما.

ومنها سار إلى حصن كوكب.. وكان يسكنها كما يسكن «صفد» جماعة من الفرنج وهم من أبغض الناس إلى السلطان.. لسوء أخلاقهم فقد كانوا قطاع طرق.. ينشرون الرعب فى قلوب عابرى السبيل. فلم يكن أحد يأمن على نفسه أو ماله.

فأراد السلطان أن يذيقها من نفس الكأس فعاملهم بشدة.. وكانت هذه الشدة استثناء من القاعدة العامة.. لما ارتكبه هؤلاء الناس من كبائر.

وبهذا الفتح: أراح الله الناس من شرهم..

ويقول المؤرخون وصفا لها.:

[وتمهدت السواحل. واستقر بها منازل قاطنيها. هذا: والسماء تصب. والرياح تهب.. والسيول تعب.].

وهكذا يتبين لنا: كيف كان الفتح الإسلامى سلاما وبركة. حتى على الذين لم يعتنقوا الإسلام.. وإنه لشهادة صدق على أن الإسلام وحده هو حصن الأمان.. وساحل النجاة.

خاتمة

لم تحظ سيرة من سير العظماء بمثل ما حظيت به سيرة نبينا محمد ﷺ:

١ ـ كان له تسع زوجات كلهن مأمورات بنشر كل ما يرونه من شؤونه قليلها وجليلها.

٢ ـ إلى جانب الصحابة المأمورين بالتبليغ عنه.. ولو آية واحدة.

٣ ـ يضاف إلى ذلك أعداؤه الذين تربصوا به.. وحاولوا أن يجدوا فيه مطعناً.. أو مغمزاً.. فما وجدوا إلا فصاً من الماس.. أينما طالعته.. بهرتك أشعة من سناه.

وناهيك بعظيم يرصده أصحابه فى أدق صفاته.. حتى وصفوا رمحه.. وسيفه.. ودرعه.. ونعله.. وقيامه.. وتبسمه.. ثم يتواصى أعداؤه بالتفتيش عن تهمة واحدة فى خلقه.. فلا يجدون.

إنه العظيم الذى يتحدى به ربه البشر جميعاً.. تحدياً يجعل من رسالته قضية لا تقبل الجدل.. ومن شخصه ﷺ حجة قائمة على الناس. شاهدة بأنه على الحق المبين.

الأمر الذى يفرض على الدعاة اليوم مسؤولية إبراز جوانب هذه العظمة فى سيرته ﷺ.. وفى الوقت الذى أحس المثقفون من أتباع المذاهب الأرضية بالفراغ الناشئ عن فقدان الإجابات الشافية عن هذه الأسئلة:

من أين؟ وإلى أين؟

ولا شك أنهم سيجدون فى سيرته العطرة ما يشفى الغليل.. ويبل الصدى.

قال المستشرق «ماسينيون»:

(يكفى لتعرف أوروبا محاسن رسول الله محمد ـ ﷺ ـ ومحامده. أن ينقل كتاب «الشفا» للقاضى عياض، إلى إحدى اللغات الأوروبية).

وإذا أتيح لأوروبا أن تعرف محاسن الرسول ﷺ.. لو أحيطت علماً بهذا السفر الجليل.. فقد بقيت خطوة أخرى على الطريق الطويل.. وهى: أن يدخل المنصفون هناك فى دين الله أفواجاً.

ولن يتم ذلك لمجرد وقوفهم على طريقة أكله.. وصفة سيفه.. ولون خضابه

إلى غير ذلك من سنن العادات التى يحفظها بعض الشباب اليوم. ثم يغالون بها مغالاة تنسيهم ما يحويه البحر فى أعماقه البعيدة من لؤلؤ ومرجان!

وكما أن الحق تعالى سخر لكم البحر.. لا لإمتاع العين.. بمشهده الرائق فقط.. بل لتأكلوا منه لحماً طرياً.. وتستخرجوا منه حلية تلبسونها.. فإنه تعالى لم ينعم علينا بمحمد ﷺ لنتغنى فى المحافل بلون عينيه.

وإنما لنحشد كل قوانا الذهنية والوجدانية فى محاولة لاستكشاف مواطن العظمة فى شخصه الكريم.. ثم تجليتها للناس.. وعلى مرآتها سيرون العظمة فى آفاقها العالية.

إن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

وحرف الجر «فى» هنا.. يهيب بالمتأملين.. أن يرتفعوا إلى مستوى «المتوسمين».

«المتوسمين» الذين يتجاوزون القشرة البادية إلى الأعماق.. إلى القدوة الحسنة.. التى صارت اليوم أنجح وسائل الدعوة.. وهو الأمر الذى حاولت الإسهام فى تحققه بهذه الصفحات.

ولقد كان هذا المعنى يلح على خاطرى وأنا أكتبها منطلقاً من تجاربى فى حقل الدعوة.. ومعايشتى لشباب لا ينقصهم الإخلاص بقدر ما ينقصهم الفهم العميق المستوعب:

لقد شغلوا أنفسهم بأمور ثانوية. غافلين عن الحقائق الناصعة فى سيرته ﷺ. وعن مواطن الأسوة الفعالة.

وإنك لترى أحدهم يرفع يديه فى الدعاء حتى ليكاد يكشف عن ذراعه ليرى بياض إبطه اقتداء بالرسول الكريم ﷺ.. فإذا رحت تسأله عن فقه هذا الدعاء.. وعما فيه من دلائل البعث والتفاؤل والعمل.. سكت!

فإذا أردت أن تلزمه كلمة التقوى حاول أن يشغب عليك بما يحفظ من نصوص ينثرها بلا وعى.

وصار الأمر على ما يقول الإمام محمد عبده:

(جمود أحكام الشريعة جر إلى عسر حمل الناس على أعمالها.

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٢١.

كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً . . سمحة . . تسع العالم بأسره. وهى اليوم تضيق عن أهلها . . حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها. وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها. وأصبح الأتقياء من حملتها يتخاصمون إلى سواها).

إن المشركين الذين نشأ بينهم محمد ﷺ قد أجمعوا على أنه: الصادق. الأمين.

ولم يكن هذا الاعتراف مردوداً إلى صحيفة يملكها تنوه بصدقه وأمانته.

وإنما كانت حياته العملية شاهد صدق على أنه كذلك.

(كان يتعاطى فيهم التجارة. ويعاملهم فى أمور الحياة ليل نهار. وهى الحياة اليومية. وما تنطوى عليه من أخذ وعطاء ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء. فيتبين للناس فسادها وصلاحها.

وهى عيشة طويل طريقها. كثيرة منعطفاتها. وعرة مسالكها. تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة. وإخفار عهد. وأكل مال بالباطل. وعقبات من الخديعة. والخيانة. وتطفيف الكيل. وبخس الحقوق. وإخلاف الوعد.

إن الرسول ﷺ اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة. وخلص منها سالماً نقياً. لم يصبه شىء مما يصيب عامة الناس. حتى لقد دعوه بالأمين.

وإنَّ قريشاً بعد بعثه كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به.

ولقد هاجر ﷺ . وخلف «علياً» ليرد ما كان لديه من الودائع إلى أهلها[1].

وهذا جانب واحد من جوانب حياته ﷺ . . وهو فضيلة تشكل جندياً يقف إلى جانب الداعية يؤكد للناس صدقه . . ويلقم حجراً كل فم يحاول الاقتراب من ساحته الطهور مدعياً منكراً من القول وزوراً.

وهو الأمر الذى نؤكد عليه . . ونلفت نظرة الدعاة إليه . . حتى إذا دعوا إلى الله تعالى . . اقتطفوا من خلاله العظيمة باقات من الروح والريحان تسر الناظرين . . وتنجد الطالبين.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

---

(١) البعث الإسلامى جمادى الأولى: ١٤٠٥.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطبعة جزيرة الورد
المنصورة ـ تومبا البحر
ت: ٤٤١١٩١/ ٠٥٠